يناير ٢٠١٠ / العدد ١

للدراسات الحضارية والفكرية

- ثورة الإيمان
- منهج النورسي في إحصاء أسماء الله الحسنى
- عالم الغيب في منظور النورسي

al-Nur

Academic Studies on Thought and Civilization

An Academic Biannual Journal (January, July)
Published by the Istanbul Foundation for Science and Culture
Volume 1, Number 1 (January 2010)
ISSN 1309 4424 (En-Nur)

Annual Subscriptions (2 issues)

Turkey:	TL 20
Individuals outside Turkey:	US$ 15
Institutions outside Turkey:	US$ 30

Addresses for Subscriptions and all Communications

info@nurmajalla.com
Istanbul İlim ve Kültür Vakfı,
Rüstem Paşa Medresesi,
Sururi Mah., Medrese Sok. No: 2,
34120 Eminönü, Istanbul, Turkey.
Tel: +90 212 527 81 81
Fax: +90 212 527 80 80

Abdulkerim Baybara: kerimbaybara@gmail.com
Sozler Publications,
30 Gafar al-Sadiq Street, al-Hayy al-Sabi',
Nasr City, Cairo, Egypt.
Tel. / Fax: +20 2 22 602 938

www.nurmajalla.com

للدراسات الحضارية والفكرية

تصدر عن مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم

THE ISTANBUL FOUNDATION FOR SCIENCE AND CULTURE

صاحب الإمتياز والمدير المسؤول: كنعان دميرطاش kenan@nurmajalla.com

رئيس التحرير: أ.د. عمار جيدل editor@nurmajalla.com

المشرف العام: إحسان قاسم الصالحي ihsankasim@gmail.com

هيئة التحرير

أ.د. ثروت أرماغان؛ أ.د. محمد خليل جيجَك؛
د. سعاد الناصر؛ د. محمد جنيد شِمشَك

اللجنة الإستشارية

أ.د. حسن الأمراني؛ أ.د. سليمان عشراتي؛ أ.د. عبد الحليم عويس؛ أ.د. عبد العزيز برغوث؛
أ.د. عبد العزيز خطيب؛ أ.د. عبد الكريم عكيوي؛ أ.د. عبد المجيد النجار؛ أ.د. عماد الدين خليل؛
أ.د. محسن عبد الحميد؛ أ. د. محمد عبد النبي؛ د. بوكاري كيندو؛ د. سمير بو دينار؛
د. محمد كنان ميغا

الإخراج الفني

سعيد طاقطاق، مولاي الحسن الحفيظي

رقم الإيداع الدولي

ISSN: 1309 - 4424 (En-Nur)

الطباعة

يناير ٢٠١٠

Birleşik Basım Pazarlama - Istanbul
Tel: + 90 212 279 56 26 Pbx

المركز الرئيسي
Cucecesmesi Sk. 6, VEFA,
34134 Fatih, ISTANBUL - TURKEY
Tel : +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com
www.nurmajalla.com

بسم الله الرحمن الرحيم

النور للدراسات الحضارية والفكرية

١ ـ التعريف بالمجلة:

مجلة علمية أكاديمية محكّمة نصف سنوية (يناير – يوليو)، تصدر عن مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم.

تُعَد مجلة ''النور للدراسات'' مجلة الباحث والمفكر المجدد فضلا عن من يتمرّس بالبحث من شباب هذه الأمة، وهي منبر علمي أكاديمي مفتوح أمام كلّ المفكرين والباحثين الجادين.

تعمل المجلة على توجيه النظر إلى الجمع بين أصالة الأمة ممثلة في أستاذها الأول ''مصادر الإسلام'' (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) وثقافة العصر فيما لا تتعارض وحقيقة ثقافة الأمة وأصالتها، كما تعمل على الإفادة منها في التأسيس لبعث معرفي وحضاري، إنساني البعد إسلامي الروح، يسعى إلى فحص المتداول في الدرس الاجتماعي والإنساني بقصد تمحيصه والتأسيس للبديل المنبثق عن التصور التوحيدي للعالم والحياة والإنسان، وتَعَهُّد هذا الكسب (العلم المنجز) بالمراجعة والاستدراك المستمر، وتدريب المثقف الرسالي على التوقّف المنهجي والمعرفي عند ''الكونية'' التي يراد من خلالها تمرير مشاريع التحكّم في المعرفة ومن ثمَّ الهيمنة على مؤسسات صناعة الوعي في برامجها ومناهجها، والحيلولة الموضوعية دون ضياع سائر موارد القرار في مختلف مجالات الحياة.

٢ـ تتناول المجلة وفق الخط العام المشار إليه أعلاه:

قضايا المنهجية الإسلامية الجامعة بين مخاطبة العقل والقلب في ذات لحظة التذكير، حتى يغدو الفصل بينهما في عداد المحال المنهجي والمعرفي على السواء.

قضايا المعرفة من حيث خلفيتها النظرية، ومصادرها ونظمها وفلسفتها وإنتاجها.

العودة بالأمة إلى أستاذها الأول (القرآن الكريم)، مبعث نهضتها، ومؤسس فعاليتها في شعاب الحياة المعرفية.

الحث على البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في إطار النظرة الإسلامية وفي كنف تكاملها مع سائر علوم الشريعة، بقصد بعث الفعالية الحضارية المنشودة.

دراسة وفحص ثم تمحيص مناهج التعامل مع الخبرة المعرفية الإسلامية (التراث) والإنسانية في مختلف مجالات التدين (العقيدة، والشريعة، والأخلاق) بالإسلام.

الإفادة من مشاريع النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي، ولاسيما مشروع بديع الزمان النورسي المبيّن في رسائله الموسومة بـ ''رسائل النور''، سعيا منا إلى الاستفادة من هذه التجربة وغيرها من خبرتنا في مجال النهضة والتغيير، بغرض المساهمة في فهم الحاضر والتخطيط الجيّد للمستقبل.

ما تنشره المجلة يعبّر عن رأي صاحبه، وليس رأي المجلة ضرورة.

المحتويات

كلمة العدد .....أ.د. عمار جيدل ٤

الدراسات والبحوث

ثورة الإيمان .....أ.د. كولن تورنر ٧

مفاهيم المشروع النهضوي الإسلاميّ المعاصر (نقد وتوجيه) .....د. محمد سالم سعد الله ١٩

فصل المقال فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال ... أ.د. طه عبد الرحمن ٢٩

ملف العدد

منهج النورسي في إحصاء أسماء الله الحسنى..... أ.د. عبد الكريم عكيوي ٤٩

عالم الغيب في المنظور النورسي .....أ.د. عماد الدين خليل ٦٩

منهج النورسي في التعامل مع الأسماء الإلهية الحسنى..... أ.د. محمد خليل جيجك ٩٣

مقاصد الحياة وغاياتها في فكر النورسي من خلال رسائل النور ... د. محمد حمد كنان ميغا ١٢٣

المنهج الواقعي في دراسة قضايا الإيمان، رسائل النُّور أنموذجا.....د. بوكاري كندو ١٣٧

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

حوار مع الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم ١٦٤

الإصدارات: قراءة في كتب..... ١٧٤

المؤتمرات والحلقات الدراسية ١٨٢

إعلان عن انعقاد المؤتمر العالمي التاسع في إستانبول..... ١٨٩

معلومات عن النشر في المجلة..... ١٩٢

* ترتيب الدراسات والبحوث يخضع لاعتبارات فنية بحتة.

كلمة العدد

بسم الله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى.

تُعَد مجلة ''النور للدراسات'' فضاء علميا نزيها لنشر الدراسات الحضارية والفكرية والتربوية الجادة، المنضبطة بأصول المنهجية العلمية في جانبيها الفني الصرف (تقنيات البحث) من جهة والمتعلّق بمناهج العلوم من جهة أخرى، ولهذا ترحّب بكلّ دراسة جادة تتسّم بما سبقت الإشارة إليه، وتتناغم مع حاجاتنا المعرفية والمنهجية والفكرية والحضارية المعاصرة، ذلك أنّها تروم تحقيق وثبة علمية ومنهجية، وسيلة لتحقيق وثبة حضارية نوعية، تتبنى ''العمل الإيجابي'' فلسفة وخطة، ومن مقتضيات هذا المسلك، العمل على بعث ثقافة المشاركة في التفكير والتدبير بالتركيز على الفضائل المبثوثة في مسالك تفكيرنا وخطط تدبيرنا، وتجاوز التوقّف المضني عند نقد المخالف للنقد، ليس إلا.

المجلة بخطها العام في إطار مقاصدها المبيّنة وطبيعتها المشار إليها، تشجّع كلّ الدراسات العلمية النوعية التي تروم تحقيق أهدافها، فتفتح المجال للدراسات التأصيلية بصفة عامة، فضلا عن الدراسات القائمة على مسالك الفحص والتمحيص العلميين، ولهذا لا تضيق المجلة بالنقد العلمي الهادئ والهادف، هروبا من العبثية وصرف الطاقات وتضييع الأوقات فيما لا طائل منه.

اشتمل العدد الأول على دراسات متنوّعة، فمن مباحث الإيمان في إطار رؤية واقعية وحضارية، إلى مفاهيم المشاريع النهضوية، وختمت دراسات العدد بمقارنة بين حكمة القرآن وفلسفة الإنسان.

اخترنا أن يشمل العدد الأول ملفا عن ''المنهجية في رسائل النور''، وحوى دراسات متنوّعة، ساعدتنا على اكتشاف عناصر مهمّة من مجمل المنهجية المبثوثة في رسائل النور، والملف، فرصة لقراءة النورسي من خلال باحثين من مختلف الأصقاع، ومن تخصصات مختلفة، تبين عن زوايا النظر إلى المنهجية عند بديع الزمان، كما تحيلنا إلى جوانب أخرى من الدراسات المنهجية عند العلماء عامة، والنورسي على الخصوص.

تحاول المجلة إثراء لقضاياها وتمتينا للصلة بالباحثين الجادين والمفكرين من الطراز العلمي العالى، إجراء حوار علمي جاد بأبعاد حضارية وفكرية رصينة مع شخصيات علمية وفكرية مرموقة، وبهذا العدد استضفنا الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم.

وختمنا العدد بالتعريف بالنشاط العلمي والدراسات الجامعية ذات الصلة بالخط العام للمجلة، فعرضنا آخر الإصدارات والمؤتمرات أو اللقاءات العلمية.

أ. د. عمار جيدل

الدراسات والبحوث

ثورة الإيمان[1]

الأستاذ الدكتور كولن تورنر[2]

كثيرا ما أسأل –لأنني ولدت وترعرعت في بريطانيا– هذا السؤال:

– ماذا تستطيعون – كمسلمين– أن تقدموا للغرب؟

ولكن قبل الإجابة عن هذا السؤال أود أن أسأل سؤالا:

أنحن مسلمون لأننا نؤمن بالله تعالى؟

أم نحن نؤمن بالله تعالى لأننا مسلمون؟

لقد خطر ببالي هذا السؤال قبل مدة طويلة خلال اشتراكي في مظاهرة طافت شوارع "لندن" للتنديد بالاحتلال الروسي لأفغانستان... كنت قد اعتنقت الإسلام رسميا قبل هذا بسنوات عديدة، ولم تكن هذه هي المظاهرة الأولى التي اشترك فيها.

كانت المظاهرة تحوي شعارات وإعلانات وهتافات أمثال: "اخرجي يا روسيا"... "الموت لبرجنيف"[3]... "يحيا مسلمو أفغانستان، وكنا نهتف بهتافات إسلامية: "الله أكبر"... "لا إله إلا الله"

وعندما اقتربت المظاهرة من نهايتها تقدم نحوي شاب قدم نفسه إليّ بصفته مهتما بالإسلام... قال لي:

– عفوا... ولكن ما معنى "لا إله إلاّ الله؟"

ودون أي تردد أجبته:

– معناها أنه لا يوجد إله إلاّ الله.

قال لي:

– أنا لا أسألك أن تترجم الجملة لي... ولكني أود أن أسألك: ماذا تعني هذه الجملة حقا؟

وعندما تبيَّن عجزي كان هناك صمت طويل ومحرج.

لا شك أنكم ستقولون في أنفسكم:

– ما هذا المسلم الذي لا يعرف معنى لا إلٰه إلا الله؟

وأجيب عن هذا:

– إنه مسلم نموذجي

في تلك الليلة فكرت مليا حول جهلي... ولم يكن يعزيني أن الأغلبية تشاركني في مثل هذا الجهل، بل زاد ذلك من ضيقي.

إذن فكيف أصبحت مسلما؟

لا شك أنكم سمعتم إحدى نوادر ''نصر الدين خوجا'' (جحا) وهي أن صديقا له مر عليه يوما فوجده جالسا وأمامه سلة كبيرة مملوءة بالفلفل الأحمر وقد احمرت عيناه وانتفختا والدماء تسيل من فمه والدموع من عينيه... ولكنه وجده –على الرغم من هذا كله– مستمرا في تناول وأكل الفلفل الأحمر، فقال له:

– لماذا تعذب نفسك هكذا يا صديقي؟

أجابه ''نصرالدين خوجا'' وهو يأكل فلفلة أخرى:

– لأنني آمل أن أعثر في السلة على فلفلة حلوة.

لقد كنت في الموقف نفسه... لم تكن هناك أية أيدلوجية، أو أي طراز من طرز المعيشة التي جربتها يمكن أن يكون مشبعا أو متجاوبا مع الحاجة الداخلية للإنسان... الحاجة في العثور على شيء أفضل... على شيء يستحق أن نعيش لأجله... ولكننا لم نستطع العثور على هذا الشيء.. هذا الشيء الذي يتملص من بين أيدينا ويحيرنا، والذي كنا نتوقع أنه في متناول يدنا وقريب منا .

ولكي أتخلص من أوهام كل مظهر من مظاهر حياتي، تركت لندن وتوجهت إلى الشرق الأوسط... لم يكن هذا اختيارا شعوريا... ولكني استطعت هناك أن أعثر على الفلفل الأحمر الحلو.

رأيت أن الإسلام يقدم معنى بشكل لا يشبهه أي شيء آخر، فهو يحتوي على قوانين لإدارة الدولة، وله نظام اقتصادي، وقواعد تشمل كل منحى من مناحي الحياة اليومية، وهو يخاطب جميع العناصر والشعوب على قدم المساواة، وهو سهل الفهم

وواضح... وعلاوة على ذلك فله إله... إله واحد لا شريك له.. هذا الإله الذي كنت أومن به من قبل بشكل غامض ومبهم.. وهذا ما كنت أريده، لذا فقد قلت: ''لا إله إلاّ الله'' وأصبحت عضوا في هذا المجتمع، ولأول مرة في حياتي ذقت طعم الانتماء.

وعادة ما يكون المهتدون متحمسين جدا لمعرفة كل ما يمكنهم معرفته حول دينهم الجديد في أقصر مدة ممكنة. لذا فبعد بضع سنوات من اهتدائي توسعت مكتبتي بسرعة، فقد كان هناك الكثير مما لا أعلمه، وكانت هناك كتب عديدة مستعدة لتعليمي... كتب عن التاريخ الإسلامي، وعن النظام الاقتصادي للإسلام، ومفهوم الدولة في الإسلام، وكتب وكراسات عديدة عن القوانين الإسلامية (الشريعة الإسلامية)، والأهم من هذا كله كانت هناك الكتب التي تبحث موضوع الإسلام والثورة... أي كيف يهبّ المسلمون ويشكلون الحكومات والجمهوريات الإسلامية. وعندما رجعت إلى بريطانيا في أوائل عام ١٩٧٩ لمتابعة دروسي في الجامعة كنت متهيئاً لتقديم الإسلام إلى الغرب والتبشير به.

رجعت إلى هذه الكتب للعثور على جواب حول السؤال: ما معنى لا إله إلاّ الله؟ ولكني أصبت بخيبة أمل.. كانت هذه الكتب حول ''الإسلام'' وليس عن ''الله'' ... كان في هذه الكتب كل ما يخطر على بال الإنسان من موضوعات... ولكن الموضوع الأهم لم يكن موجودا... تقدمت بالسؤال إلى إمام مسجد الجامعة، ولكنه قدم لي عذرا وتركني ومضى، ولكن أخا سمع حديثي مع الإمام تقدم مني وقال:

عندي تفسير لـ ''لا إله إلاّ الله''، ونستطيع –إن أحببت– أن نقرأه معا. وقد تصورت أن هذا التفسير سيكون حوالي عشرة أو عشرين صفحة في الأكثر، فإذا به يجاوز خمسة آلاف صفحة!!... وكما تتوقعون فقد كان مجموعة ''رسائل النور'' للأستاذ سعيد النورسي.

كنت أتصور أن رسائل النور ليست إلا رسائل في التصوف، لذا فقد أهملتها، ولكن صديقي هذا قال لي:

– إن رد فعلك هذا نحو رسائل النور ليس إلا نتيجة نظرة ضيقة.

ومن دون الانعكاسات الفكرية التي كانت كتبي القديمة تقدمها لي، كنت أحس بالضياع وبالجهل. ولكني وجدت في رسائل النور لغة جديدة تماما، ونظرة جديدة.

وعندما لاحظ صديقي اضطرابي وقلقي قال لي:

– لا تقلق...! إن الكتب التي قرأتها سابقاً كل لها مكانتها وفائدتها... إنها مثل الجلد أو القشرة، ولكن هذا –وأشار إلى رسالة ''الآية الكبرى''– يعد بمثابة الثمرة.

وبدأنا معا بقراءتها.

في هذه المرة بدأ كل شيء –بفضل من الله– يأخذ مكانه الصحيح.

كل منا يولد جاهلا تمام الجهل، ولكن الرغبة في معرفة أنفسنا ومعرفة العالم المحيط بنا رغبة فطرية، لذا فكل منا يجيب بطريقته الخاصة عن أسئلة عديدة أمثال: من أنا؟ .. ما المكان الذي وجدت نفسي فيه؟... ما وظيفتي هنا؟... من المسؤول عن إيجادي أو خلقي؟... يجيب عن هذه الأسئلة إما من خلال ملاحظاته ومشاهداته، أو من خلال التقبل الأعمى للأجوبة المقدمة إليه من قبل غيره. وعلى ضوء هذه الأجوبة يُعيّن الإنسان طراز عيشه في هذه الدنيا، وتتحدد لديه المعايير التي يلتزم بها ويتحرك ضمنها، وما رسالة ''الآية الكبرى'' إلا سياحة في هذا الكون برفقة مرشد، وهذا السائح يفتش عن أجوبة لهذه الأسئلة.

ولا تقدم ''الآية الكبرى'' الإيمان بالله كبديهية منذ البداية، بل تسير من ''المخلوق'' إلى ''الخالق''، وهي تقرر وتبرهن على أن أي شخص يبحث بإخلاص عن جواب لهذه الأسئلة، وينظر إلى الكون المخلوق كما هو وليس كما يرغب فيه أو يتخيله... مثل هذا الشخص سيصل حتما إلى نتيجة: ''لا إله إلاّ الله'' ذلك لأنه سيرى نظاما وتناغما... جمالا وتوازنا... عدالة ورحمة... ربوبية ورحمة... وسيدرك أن هذه الصفات لا يمكن أن تعزى إلى المخلوقات نفسها، بل إلى ''الحق'' الذي هو مصدر هذا الوجود والكمال والمطلق. وسيرى أن هذا العالم المخلوق ليس إلا كتابا لأسمائه الحسنى، وفهرسا يخبر ويشير إلى خالقه وإلى صاحبه.

وفي رسالة ''الطبيعة'' يتوسع بديع الزمان في تفسير ''لا إله إلاّ الله'' إذ يتناول موضوع السببية Causality التي هي حجر الأساس للمادية، والعمود الذي شيدت عليه العلوم الحديثة، إن الإيمان بالأسباب أو بالسببية يؤدي إلى تصريحات أو أقوال عديدة مثل: (اقتضته الطبيعة) أو (الطبيعة خلقته) أو (حدثت مصادفة) أو (أوجدته الأسباب)... الخ، وضمن حوار ومناقشة منطقية يفجر سعيد النورسي ويهدم أسطورة السببية، ويكشف بكل وضوح أن المتمسكين بهذه العقيدة ينظرون إلى الكون لا كما يبدو في الحقيقة وفي الواقع، بل كما يحبون هم أن يظهر وأن يبدو حسب تفكيرهم ومزاجهم.

ويبين بديع الزمان في رسالة (الطبيعة) بكل وضوح أن جميع المخلوقات في

مختلف مستوياتها مرتبطة بعضها مع البعض الآخر بعلاقات متداخلة ومتشابكة كالدوائر المتحدة المركز، أو كالدوائر المتقاطعة، وهو يشير إلى أن المخلوقات تبدو وكأنها جاءت إلى الوجود من العدم، وفي أثناء حياته القصيرة يقوم كل مخلوق... حسب ما كلف به من وظائف وغايات وأهداف خاصة به ... بوظيفة المرآة التي تنعكس عليها مختلف الصفات الإلهية ومختلف الأسماء الحسنى، وأن ما يظهره كل مخلوق من العجز، وسرعة الزوال والوجود الطارئ، واعتماده الكلي على عوامل موجودة خارج كيانه ليدل دلالة واضحة لا تقبل الشك أو الجدل بأنه من المستحيل أن يكون هذا المخلوق هو صاحب ومالك هذه الصفات الظاهرة فيه... فإذا كان الأمر هكذا فهو أعجز من أن يهب الصفات الكاملة والزينة والجمال لمخلوقات مثله أو لمخلوقات أكبر منه.

ولكن الماديين ينظرون إلى نفس هذه الأمور نظرة مختلفة ومن زاوية مختلفة، ومع أنهم لا ينكرون النظام والدقة والتناغم في هذا الكون، إلا أنهم يريدون منا أن نؤمن أنه نشأ من حالة فوضى وتشوش نتيجة مصادفة عشوائية، وهم يطلبون منا أيضاً أن نؤمن أن الكون قائم على التفاعلات الميكانيكية للأسباب. ولكن هذه الأسباب... التي لا يعرف الماديون ماهيتها بشكل قاطع... هي نفسها مخلوقة وعاجزة وجاهلة وزائلة ودون هدف...

والماديون يرون أن هذه الأسباب هي التي أنتجت –وذلك من خلال القوانين التي ظهرت من العدم!!– كل مظاهر الدقة والتناغم والتوازن والنظام والجمال التي نراها من حوالينا.

وكما قام إبراهيم عليه السلام بتحطيم الأوثان والأصنام في المعبد، قام بديع الزمان بتحطيم هذه الأساطير والخرافات، فهو لا يدأب يذكر أنه ما دامت جميع الأشياء يرتبط بعضها مع البعض الآخر، فإن هذا يعني أن من أوجد البذرة هو الذي أوجد الزهرة وأنشأها، وبما أن أحدهما يرتبط بالآخر بعلاقات متداخلة فإن من أوجد الزهرة لا بد أنه هو الذي أوجد الشجرة وأنشأها، ونظرا لوجود علاقات متداخلة فإن من أوجد الشجرة لا بد أنه هو الذي أوجد الغابة وأنشأها... وهكذا إذن فإن القادر على خلق ذرة واحدة يجب أن يكون قادرا على خلق الكون بأجمعه، وهذا ما تعجز الأسباب عن القيام به ولا تطاله أبدا، ذلك لأن الأسباب عمياء وعاجزة وزائلة ومحتاجة وليس لها أي علم بحاجاتنا.

ويوما بعد يوم بدأ العديد من العلماء يدركون أن مساندة النظريات الميكانيكية القديمة لم تعد ممكنة، ذلك لأنه أمام هذا الجمال والروعة وهذا النظام والتناغم والاتساق، وأمام هذا التناظر ووجود الغاية والهدف فإن محاولة تفسير الخلق استنادا إلى فكرة المصادفة والسببية أصبحت –وبتسارع كبير– شيئا لا يمكن الدفاع عنه إلى درجة أن نوبات الهيستريا بدأت تنتاب بعض العلماء الذين بلغ بهم الحنق درجة كبيرة وهم يشاهدون تهاوي آلهتهم القديمة وتحطمها جذاذا.

يقول أحد علماء علم الحياة (البيولوجيا) –والبيولوجيا لا يزال من أكثر فروع العلم ميكانيكية– المشهورين:

– أليس من الغريب أنني كلما اكتشفت جمالا أكثر، وتناسقا أفضل في الكون ازددت قناعة بعبثيته؟!

لا يدرك هذا الرجل المسكين أنه إن كان كل شيء عبثا ودون معنى فإنه وحياته أيضا دون أي معنى.

ويؤكد أيضا عالم آخر مشهور –هل لي أن أقول عنه إنه سيئ السمعة؟– وهو بيولوجي أيضا، بأن وجود الكائنات ولا سيما ظاهرة الشكل Phenomenon of Form لا يمكن عزوها أو إرجاعها إلى الحركة العشوائية للأسباب العاجزة والعمياء والتي لا تملك شيئا من العلم ومن المعرفة. وهو ليس العالم الوحيد الذي يفكر على هذا النحو، ولكنه أول عالم مشهور في العالم الغربي يصرح برأيه هذا بكل صراحة. والذي يلفت النظر أكثر من تصريحه هذا هو قوله أن الجو العلمي في العالم الغربي يشبه نمط إدارة الحكم في عهد بريجينيف.

إن النظرية الميكانيكية اليوم قوية ومسيطرة ومتنفذة في التفكير الغربي –ولا سيما في العلوم البيولوجية– إلى درجة أن جميع العلماء يجب أن ينحنوا أمامها ويستسلموا لها إن كانوا راغبين في الاحتفاظ بوظائفهم. وهم مضطرون إلى إعلان ولائهم وإخلاصهم لهذه النظرية أمام الملأ، بينما يهمسون بآرائهم الحقيقية في مجالسهم الخاصة، أي يضطرون إلى إدامة هذه التمثيلية وهذه اللعبة.

عندما طبع كتابه الذي هاجم فيه ''السببية'' وصفت مجلة ''نيو ساينتست The New Scientist'' هذا الكتاب بأنه ''كتاب يستحق الحرق''، ومنذ ذلك الحين عُدّ هذا الكاتب مؤلفا منبوذا، أي عد ''سلمان رشدي'' آخر، ولكن في عالم العلم في الغرب.

إن وجود مثل هذه الآراء المختلفة حول سريان أو عدم سريان نظرية الأسباب، والقول بصحة هذه النظرية يشير بوضوح إلى أن عزو قوة الخلق إلى الطبيعة، أو إلى القوانين الطبيعية ليس نتيجة حتمية وضرورية للبحث العلمي الموضوعي، بل هو نظرة شخصية لا أكثر ولا أقل.

ونظير هذا، فإن إنكار خالق الكون –الذي وضع الأسباب الظاهرة، وجعلها ستارا ليد قدرته– ليس نتيجة منطقية وعقلية، بل هو ميل ورغبة نفسية، والخلاصة أن إسناد الخلق للأسباب– أي النظرية السببية– ليس إلا لعبة وحيلة ماكرة وقحة أراد بها الإنسان أن يوزع ملك الخالق بين المخلوقين لعله يبقى المالك المطلق والحاكم لكل ما يملكه، والمالك المطلق لذاته.

ليس في نيتي القيام بتلخيص ''رسائل النور'' ولكني أريد أن أوضح أن هناك مسافة كبيرة بين مفهومي عن الله قبل قراءة رسائل النور وبين مفهومي الحالي عنه – سبحانه– بعد القراءة، فقد أصبحت مقتنعا بأنني عندما أقول: ''لا إله إلاّ الله'' فإني أكون قد قلت كل ما يجب قوله عن الله تعالى، لذا فإني مدين بالشيء الكثير لرسائل النور، لقد أصبحت الآن قادرا على فهم أن الله تعالى كان بالنسبة إليّ في السابق شيئاً ضروريا لتكملة الصورة، أو كان هو العامل والسبب غير المعروف الذي يجب وضعه في بداية الخلق لتجنب مشكلة التسلسل اللانهائي. كان بالنسبة لي سابقا ''السبب الأول'' أو ''المحرك الأول''، أي إلها لملء الثغرات، أي شبيها بوضع ''الملك الدستوري'' لدى الإنكليز، يقدم له أعظم أنواع التوقير والاحترام، ولكن لا يسمح له بالتدخل في شؤون الحياة اليومية.

بينما تشير رسائل النور –التي أَخَذَتْ إلهامها من الآيات الكريمة– أن الكائنات (التي هي مرايا لأسماء وصفات الله تعالى) ترينا على الدوام وبأشكال وصور وهيئات مختلفة ومتغيرة أدلة تقودنا إلى المعرفة وإلى التصديق وإلى التسليم، ثم إلى المحبة وإلى العبودية، وهكذا ترينا رسائل النور أن هناك خطوات وعمليات محددة يجب إنجازها لكي يكون الإنسان مسلما بكل ما في هذه الكلمة من معنى... فمن التأمل إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى التصديق، ومن التصديق إلى الإيمان أو إلى الاعتقاد، ومن الاعتقاد إلى التسليم. وما دامت كل دقيقة جديدة، وكل يوم جديد يرينا جوانب جديدة وملامح جديدة من الحقيقة الإلهية فإن هذه العمليات تكون عمليات مستمرة ومتجددة، أي نستطيع القول بأن المظاهر الإسلامية الخارجية (أي أشكال العبادات)

ثابتة بينما الإيمان في حركة... أي يزداد أو ينقص، وذلك حسب العمليات التي سبق وأن ذكرتها، لذا فإن علينا أن نركز اهتمامنا على حقيقة الإيمان... هذه الحقيقة التي ستتبعها حقيقة الإسلام.

لذا فإنني أستطيع أن أقول بأنني كنت مسلما ولكني لم أكن مؤمنا، وإن ما كنت أحسبه إيمانا لم يكن في الحقيقة إلا عدم القابلية على الإنكار، أي استحالة الإنكار عندي. ومع أن بديع الزمان لم يقدم لي الإسلام– وهذا عمل يستطيع أي شخص القيام به– إلا أنه قدم لي الإيمان... إيمان من خلال البحث والتمحيص وليس من خلال التقليد.

والآن دعونا نرجع إلى السؤال: ماذا نستطيع نحن المسلمين أن نقدم للغرب؟

والجواب: كل شيء... أو لا شيء.

فنحن نملك الإيمان والإسلام وهما كل شيء، ونحن نملك فهما وتفسيرا معينا للإسلام الذي هو في كثير من الأحيان لا يسمن ولا يغني من جوع.

أما بالنسبة للكتب التي عرفتني بالإسلام، ولا سيما الكتب التي كتبت مع أخذ الغرب بنظر الاعتبار فهي ليست إلا نوعا من التبادل الثقافي البريء... ولكن القضية المركزية الثابتة للإيمان إما أهملت تماما أو ذكرت هامشيا.

تكررت كلمة ''الله'' تعالى في القرآن الكريم (٢٥٠٠) مرة، بينما تكررت فيه كلمة ''الإسلام'' أقل من عشر مرات، غير أننا نرى أن هذه النسبة عكست في الكتب الإسلامية المعاصرة، ففي القرآن نرى أن النسبة بين الإيمان والإسلام هي (١/٥) (خمسة مقابل واحد) وذلك لصالح الإيمان، بينما نرى أن النسبة بين الإيمان وبين الإسلام في عناوين الكتب الإسلامية المكتوبة باللغة العربية حتى أواخر القرن التاسع عشر هي (٣/٢) لصالح الإسلام. نرى أن هذه النسبة أصبحت في ستينيات هذا القرن (١٣/١) (أي ١٣ كتابا يبحث عن الإسلام مقابل كتاب واحد يبحث عن الإيمان) ولا شك أن هذه النسبة زادت في هذه الأيام. والنتيجة الحتمية لهذا هي أن التوجه نحو الغرب تركز في تقديم الإسلام بصفة نظام وبديل أيديولوجي، وتم هذا التقديم في الغالب دون الإشارة إلى حقائق الإيمان.

والسبب الآخر في عدم نجاحنا من الاقتراب من الغرب هو أننا أسأنا فهم الغرب. فالغرب ليس مجرد وجود سياسي وجغرافي Geopolitical Entity بل هو أيضا معنى

ومجاز لأن الغرب كان من الناحية الجغرافية أول بلد شهد عصيانا وتمردا ضد الألوهية، وحسب علمنا فالمدنية الغربية المعاصرة هي المدنية الوحيدة التي لا تملك أي عقيدة دينية ظاهرية في قلبها، وهكذا فالغرب معنى ومجاز أو رمز لكسوف شمس العقيدة وخسوف الإيمان... رمز لإقصاء الإله. وبما أن هذا الإقصاء والكسوف لم يعد منحصرا في الغرب كموقع جغرافي، فإن الإنسان يستطيع أن يقول أنه أينما أقصيت حقائق الإيمان فالغرب موجود هناك. لذا يجب النظر إلى الغرب كحالة ذهنية خاصة وكمرض وكانحراف. ويشير بديع الزمان إلى أن السبب الأصلي والجذري لهذا هو ''الأنانية'' وعبادة النفس.

فمنذ عصر النهضة الأوروبية جعل إنسان الغرب نفسه المرجع والمصدر الوحيد له، والمركز الوحيد للكون حواليه، أي جعل نفسه القسطاس والميزان الوحيد لحياته البائسة، لقد حاول سرقة أردية الأسماء الحسنى لله تعالى، وحاول لبسها وتقديم نفسه كإله. ولكن هذه الأردية لم تناسبه، ولا يمكن أن تناسبه أبدا.

إن الإنسان الغربي الذي لا يتقبل فكرة أن وظيفته تنحصر في إظهار وتجلية (عكس) الصفات الإلهية باسم الخالق وحسب إرادته ورضاه سبحانه وتعالى... بدلا من هذا نراه يرغب في إعلان هذه الصفات وكأنها ملك له، ويصرف حياته كلها في محاولة إدخالها ضمن ملكيته المتخيلة المزعومة. وفي أثناء حياته يجره بحثه عن اللانهائي إلى منافسة حادة (بل مميتة في أحيان كثيرة) مع أبناء جنسه.

ومما يزيد من ضرام الرغبات اللانهائية للإنسان معرفته بأنه محدود وعاجز ومرتبط (أي غير مستقل)، وأنه سيضطر في يوم من الأيام إلى تسليم كل شيء حسبه وتخيله ملكا له، وأنه سيواجه الفناء والزوال، وبدلا من أن تقوده محدوديته ونقصه إلى تذكيره بعجزه وبفقره المطلق، فإنه يحاول التهرب والاختباء من هذه الحقيقة، وذلك بتنويم نفسه تنويما مغناطيسيا.

والإنسان الغربي الذي يحاول الهرب من الأفكار الحزينة حول مصيره النهائي نراه يروم خنق وإخماد ما وهب له وما ركز في فطرته من قابلية معرفة وحب خالقه وعلى الوصول إلى أنه بحد ذاته ليس بذي شيء، وإنه لا يملك شيئا.

إن المجتمع الغربي الدنيوي المنهمك في شؤونه الذاتية فقط مصمم ومنظم (في جميع مستوياته) لكي يعمي الإنسان ويستغفله، ولكي يخفي حقيقة واضحة وهي أن

عقيدة الأنانية فشلت في تحقيق وعودها، وأن عقيدة التثليث الدنيوية وهي (التقدم بلا حدود... الحرية دون حدود... البهجة دون قيود) أصبحت دون معنى، مثلها في ذلك مثل عقيدة التثليث المسيحية التي نبذت قبل قرون، وكذلك ليخفي حقيقة أن مبدأ ''الإنسانية الدنيوية'' Humanism Secular (الذي يشكل التقدم الاقتصادي والعلمي قادته وروحه)، قد حول الغرب إلى أرض قاحلة من ناحية الروح، واتلف أجيالا بعد أجيال، وخربها وأفسدها.

ومع ذلك فإن هناك من بدأ يستيقظ ويدرك أنه كان يعيش في عالم من الوهم والخداع. إذن فمن الضروري أن يحذّر هؤلاء من مرض ''أنا'' وإنه من العبث أن نقول لمن ابتلي بهذا المرض أن النظام الاقتصادي الإسلامي هو أفضل نظام، أو أن نقول له أن النظام الحقوقي والقانوني للإسلام هو أعدل نظام، لأنك لا تستطيع أن تشفي شخصا مصابا بمرض السرطان بأن تعطيه سترة جديدة، ولكنه يحتاج إلى تشخيص صائب وإلى عملية جراحية جذرية وأساسية، تعقبها معالجة ومداومة مستمرة، ورسائل النور تقدم كل هذه الأمور.

تتذكرون أني كنت قد صرفت النظر عن رسائل النور في السابق على أساس أنها كتب تصوف. وسمعت آخرين يصفونها هكذا أيضا، ولكن الحقيقة كانت شيئا آخر، ذلك لأنه ما من إبهام أو غموض في الاختيار البراق والواضح تماما الذي يضعه سعيد النورسي أمامنا:

إما إيمان أو إنكار
إما سعادة أبدية أو شقاء أبدي
إما خلاص أو هلاك
إما جنة أو نار
وذلك في هذه الدنيا وفي الآخرة.

كما سمعت من وصف ''رسائل النور'' بالثورية، وأنا مع هذا الوصف ولكن ليس بالمفهوم السياسي للكلمة، فهذا غير موجود في رسائل النور، مع إنني متأكد تماما أنه لو قام بديع الزمان بالدعوى إلى استعمال العنف لاسقاط الحكومات العلمانية لأصبحت رسائل النور مطلوبة القراءة في جميع الجامعات الغربية، ولأصبح اسم بديع الزمان اسما مألوفا في كل بيت في العالم الغربي. ذلك لأن الغرب يحمل ضعفا أمام مظاهر التشدد، ولا سيما عندما يتلون هذا التشدد بعقيدة دينية، وهل هناك أحسن أو

أجمل أو أشهى في عيون الوسط الغربي من منظر ينقل إليهم من بلد بعيد منظر آلاف المسلمين الغاضبين الذين يصرخون: ''الموت لأمريكا''، ويطالبون بالثورة وبالعودة إلى الشريعة؟... فالغرب لم يعد بحاجة لإزعاج نفسه حول كيفية تشويه صورة الإسلام، لأننا ـنحن المسلمين– نفعل ذلك لهم، ولا يبقى لهم إلا مهمة القيام بتسجيل ذلك على الفلم بكل بساطة ثم عرضه.

وأنا أتذكر مظاهرة مماثلة شهدتها قبل أكثر من عشر سنوات في بلد يعرف فيه أمريكا بأنه ''الشيطان الأكبر''، ولكن الذي أذهلني آنذاك أن أرى أن ٧٠ % تقريبا من ذلك الزحام كانوا يلبسون الملابس من ماركة ''لويز'' كما أن أعقاب السجاير التي بقيت بعد انفضاض المظاهرة كانت إما من سجائر ''مالبرو'' أو ''ونستون''، فكأن هناك يد تقطع (أو تتظاهر بالقطع) الأربطة التي تقيدنا مع الغرب، ويدا أخرى تشد هذه الأربطة وتقويها أكثر فأكثر.

ومع هذا فنحن لا نزال نقول:

لقد تكلمنا بما فيه الكفاية، وقد حان وقت العمل.

حتى إنني سمعت القول نفسه بخصوص رسائل النور، فقد قال أحدهم عنها:

إنها عبارة عن مجرد أقوال، إذ لا تجد فيها حركة.

ولكننا في الحقيقة لم نتكلم حتى الآن، كل ما عملناه هو أننا عولنا وندبنا وبكينا، ولأننا لم نتكلم، ولم يحدث أحدنا الآخر حديث أخ لأخيه، ومؤمن لمؤمن، ومسلم لمسلم، باسم الله وبلغة القرآن، وبلغة كتاب الخلق، فإننا عندما بدأنا بالعمل أخطأنا الطريق، وعملنا دون نظام ودون صلاحية ودون مقياس صحيح، أو مرجع صالح يتخذ إطار عمل. وهذا هو السبب في أننا في النهاية لم ننجح في الوصول إلى نتائج باقية ودائمة، والغرب يعلم هذا تمام العلم.

كلا... إن الثورية التي دافع عنها بديع الزمان ليست من نمط تلك الثوريات الصاخبة التي كانت تجوب شوارع طهران والقاهرة والجزائر. إن الثورية التي تصورتها رسائل النور هي ثورة في العقل وفي القلب وفي الروح، إنها ليست ثورة إسلامية، ولكنها ثورة إيمانية، وتعمل هذه الثورة في مستويين:

فهي مصممة أولا لكي تقود المسلمين من إيمان تقليدي إلى إيمان تحقيقي (أي قائم على التفكير والتأمل)، ثم لكي تغير المؤمنين وتحولهم من عبادة أنفسهم إلى

عبادة الله، وهذا هو السبب في أن الذين يهيمنون على الغرب ويقودونه يخشون رسائل النور خشية كبيرة.

وختاما أود أن أقول ما يأتي:

بعد سنوات عديدة من البحث والمقارنة أستطيع أن أقول إن رسائل النور هي المؤلّف الإسلامي الوحيد الشامل والمكتفي بنفسه، والذي يرى الكون كما هو في الواقع، ويقدم حقائق الإيمان كما هي، ويفسر القرآن كما أراده نبينا ﷺ، ويشخص الأمراض الحقيقية الماحقة التي ابتلي بها الإنسان، ويقدم له الدواء الناجع والشفاء.

إن مؤلَّفا مثل رسائل النور الذي يعكس نور القرآن، ويضيء الكون... مثل هذا المؤلف لا يمكن تجاهله أبدا، ذلك لأن الإسلام هو وحده الحائل والحاجز بين الإنسان وبين الكارثة، وأنا أعتقد أن مستقبل الإسلام يعتمد على رسائل النور وعلى الذين يتبعونها ويستلهمون من تعاليمها ودروسها.

* * *

الهوامش:

[1] A Revolution Of Belief، ترجمة: أورخان محمد علي.

[2] د. كولن تورنر، جامعة دورهام– انكلترة: ولد عام ١٩٥٥ في مدينة برمنغهام في انكلترة. تشرف الانتساب إلى الإسلام عام ١٩٧٥. أكمل تعليمه العالي في جامعة دورهام واختص باللغة العربية واللغة الفارسية. قدم فيما بعد رسالة دكتوراه في موضوع "الحركات السياسية والدينية في العهد الصفوي في ايران". يدرّس حالياً في جامعة "مانشستر". عكف على دارسة رسائل النور منذ عشر سنوات وهو متزوج واب لثلاثة أطفال.

[3] المسؤول الأول في الاتحاد السوفياتي السابق.

مفاهيم المشروع النهضوي الإسلاميّ المعاصر

– نقد وتوجيه –

د. محمد سالم سعد الله[1]

يسعى منظرو المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر تقديم خطّتهم الفكرية وبيان طرائقهم البحثية في مقومات هذا المشروع وتحديد ركائزه التي تنبثق أساسا من الدعوة إلى إحياء التوجهات الإسلامية ونقلها من واقعها الكتابي المدون إلى واقع عياني ملموس يشمل أصعدة شتى، تبدأ مع ميدان التربية والتعليم، وتحتضن الميدان التقني، وتتقن الميدان السياسي، ولا تنتهي عند الحوار مع الآخر.

وتكتنز مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي متتاليات اصطلاحية متنوعة وكثيرة يصعب حصرها، لكن يمكن الحديث عن بعضها في إطار من البيان والنقد ثم التوجيه والمعالجة، ومن هذه المفاهيم: (النهضة، الإبداع، الأصالة، المعاصرة، الحداثة) ويحتوي كل مفهوم من هذه المفاهيم ميراثا فكريا يتضمن منظومات أكسبت أصحابها فنيّة قراءة الماضي، والتعامل مع الواقع، والتطلع إلى المستقبل.

ويظهر جليا أن هذه المفاهيم ليست منفصلة عن بعضها، بل تشتغل وفق آلية منطقية، وسنحاول في هذا البحث تقديم رؤية نقدية لأنماط اشتغال هذه المفاهيم في وعي العلماء والدعاة والمصلحين والمجددين، وسنبين هل أثرت معطيات النهضة إجمالاً في مسارات تقديم الخطاب الإسلامي المعاصر بما يعرف بـ(الصحوة) التي مارست على أرض الواقع نشاطات باسم الاسلام، منها ما حقق انجازات مهمة وأدخل مفاهيم الإسلام الصحيحة في القلوب والعقول، ومنها ما اتخذ مسارا فئويا ضيقا، أو إطاراً حزبياً أحادياً، أو ميداناً مذهبياً لا يرى الحق إلا من خلاله !!.

وانطلاقا من تشعب المحاور التي تبحث في المفاهيم السابقة وتنوعها، فقد آثرنا تقسيمها على ثلاثة محاور أساسية:

١- ثنائية الأصالة والمعاصرة. ٢- ثنائية التقليد والإبداع. ٣- ثنائية التراث والحداثة.

تناقش هذه المحاور مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر بين الممكن والمنجز، وبين الواقع العياني والتفكير الاستقبالي، فضلا عن تقديم صورة نقدية لمسارات تناول هذه المفاهيم، ووضع توجيه علمي لبيان نجاعتها في صناعة المشهد الإسلامي المعاصر.

تمارس النشاطات الفكرية دورها في صياغة منظومة الأسئلة المعرفية التي تعتري مسيرة أمة من الأمم، وتعمد إلى صناعة الإجابات المقنعة لها في ظل معايشة الدور الحضاري ومواكبة المعطيات والمستجدات.

يكتسب الحديث عن مفاهيم المشروع النهضوي الإسلاميّ المعاصر استدعاء حشد من المصطلحات المعرفية التي تضيء الموضوع من جوانب عدة، وقد انتظمت هذه المصطلحات في إطار منطقي ثنائي يسهم في المعالجة والتناول.

إنّ الحديث عن الثنائيات بوصفها مظهرا من مظاهر النشاط الفكري هو حديث عن صيغ تعارف الإنسان على تناولها من خلال القيم والموروثات، والتسليم والانقياد، وهي ليست كذلك، لأنها معرضة للنقد والتحليل والتوجيه والتعليل، وهي لا تمثل مطلقا منظومة قدسية يركن إليها الفكر ويطمئن لنتاجاتها، بل هي نصوص إنسانية تستدعي التأمل والدراسة، ويعمل العقل عليها دورَه في بيان صالحها من فاسدها، ومقبولها من مردودها.

وتدخل المحاور التي سنعالجها في هذا البحث في إطار ما ذُكر آنفا، فثنائيات: (الأصالة والمعاصرة، والتقليد والإبداع، والتراث والحداثة) وغيرها تستدعي من الباحث التحليل والتفسير وتقديم صيغ التعليل والتفكير من حيث كونها نتاجات إنسانية خاضعة للنقد والتقييم المستمرين.

اختلف المفكرون والباحثون والدارسون في تناول هذه المصطلحات، وتعددت معها زوايا الدراسة والنظر، وأخذت مساحة واسعة من الجهد الفكري العربي الحديث خلال النصف الثاني من القرن العشرين وامتدت وما زالت، وانقسم الدرس العربي حول دراسة هذه الثنائيات بين موافق ومعارض، بين متبنٍ ورافض.

وأرى أن هذه الثنائيات لا تتطلب بالضرورة القبول بأحدها ورفض الأخرى، إنما تتجه إلى التواصل والتحاور، وأنها –أي الثنائيات– يستدعي بعضها بعضا، إذ لا يمكن الحديث عن الحاضر ومعطياته دون استلهام الماضي وثمراته، ولا يمكن تقديم البدائل

الفكرية دون معرفة المنجزات النصية، ولا يمكن دراسة ظاهرة معرفية معاصرة دون تتبع سياقاتها التي مرت بها خلال زمن ماضٍ، ولا يصح تقديم نتائج بحثية عن النصوص الحديثة دون دراسة مرحلة طفولتها وهي مرحلة خضعت لزمن مخصوص.

وفي الإطار نفسه فالحديث عن معطيات الحاضر والماضي بوصفها معطيات إنسانية تخضع لعنصري التوالد والتتابع، يمثل تنظيما للوعي في استيعاب الماضي واستلهامه وتجاوز الجمود في بعض مفاصله وفي اختيار الناجع من معطيات الحاضر وانتخاب الأصلح من منتجاته وتنمية الحركة العلمية المتسارعة التي يتسم بها، ولا يمكن البتة الفصل المعرفي بينهما، فالحاضر بكل ما فيه من تنوعات واختلافات هو وليد ثقافي متنامٍ لمجمل النشاطات الذهنية السابقة بكلّ تنوعاتها واختلافاتها.

إن التوجه الفكري القاضي بوصف النتاجات الماضية بـ(السلبية) وإطلاق (الإيجابية) على النتاجات المعاصرة، هو توجه يحتاج إلى إعادة الفحص ثم النقد والتقييم، لا سيما وأن الفكر المعرفي والحضاري لا يتجزأ، وهو لا ينتمي لوطن معين، ولا تحدّه حدود مرسومة.

وتقدم صفحات التاريخ المتوارثة عبرة التلاقي الحضاري والتثاقف المعرفي بين الأمم والشعوب، ومن ذلك –على سبيل المثال لا الحصر– التأثير الحضاري للهند وفارس والصين ومصر في المعرفة اليونانية، والتأثير الحضاري لليونان في الغزاة الرومان قبل الميلاد، وتأثير الحضارة الإسلامية في البشرية جمعاء انطلاقا من الجزيرة العربية مرورا بأوربا من خلال الأندلس وصولا إلى فارس والصين وبلاد ما وراء النهر، وتأثير الحضارة الغربية المعاصرة ومنجزاتها في الفكر العالمي المعاصر بشكل عام.

تعالج ثنائيات: (الأصالة والمعاصرة، التقليد والإبداع، التراث والحداثة) إشكاليات معرفية عدة، ومن خلالها تنوعت التوجهات الفكرية وأصبح الحديث عن (الماضي والحاضر) معياراً فاصلا لتصنيف المفكرين بين مقلد وحداثوي !!، والحقيقة تشير إلى غير ذلك، إذ لا يُسلّم الفكر الحاذق مطلقا بالنتاجات –سواء أكانت تراثية أو حداثية– دون فحصها ثم تحديد مواطن الخطأ والزلل فيها ويؤشر على بؤر الخلل، فضلا عن تحديد مواطن الصحة وبيان الإبداع وسماته فيها.

وتكمن الإشكالية الكبرى في بيان ماهية (النص التراثي) وتحديد معالمه، وفي هذا السياق جنح بعض المفكرين لعدّ القرآن الكريم ونصوص المصطفى ﷺ جزءاً من

التراث الإسلامي المتنوع بنصوصه الفقهية والأدبية والفنية والسياسية وغيرها، وأطلقوا الأحكام بشكل عام على هذه النصوص جميعها، ويقتضي التحليل العلمي وضع الفروق الدقيقة بين هذه النصوص لأنها ليست واحدة، إذ تنقسم هذه النصوص على قسمين:

الأول: **النص المقدس** (القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ).

الثاني: **النص المدنس** (النتاجات البشرية في صُعُدٍ شتى).

وأقصد بـ(النص المقدس) النص الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحاديث المصطفى ﷺ المتفق على صحتها، ولا أقصد بـ(النص المدنس) الإيحاء بسلبيتها أو عدم نجاعتها، إنما يتجه القصد إلى بيان أنها نتاج إنساني قابل للنقض والنقد والتحليل، وخاضع للتعليل وتعدد الآراء وترجيح ما يقترب من الصواب ونحو ذلك.

وأشير إلى مسألة مهمة وهي: أن النص المقدس لا يُعد تراثاً البتة، إنما هو نص اكتسب أهمية وخصوصية صالحة لكلّ زمان ومكان وليس مُنجزاً يُورّث، هو نص مُنِح صفة الخلود إلى أن يرث الله تعالى الأرضَ ومن عليها، وما عدا ذلك فهو تراث معرّض للدرس النقدي. فالتراث منجزات زمنية تاريخية، صنعتها أجيال متعاقبة في ظروف معينة، لا تؤخذ على سبيل الإلزام واللزوم، إنما تؤخذ على سبيل النصح والإرشاد، وعلى سبيل الفائدة والانتفاع، وتدخل في البناء المعرفي لهذه الأمة.

وعلينا الانتباه إلى أن لكل عصر ميزاته في إشكالياته وفي حلوله أيضاً، ولا يصح علمياً وعملياً استدعاء الحلول الماضية الجاهزة لمعالجة المستجدات الحاضرة دون إعمال فكر وتوجيه إصلاح، إذ أحيطت الإشكاليات المعاصرة بهالة من التنوع والتعقيد التي لا يصلح معها استعارة جاهزيات الآخرين، مع وجود إمكانية الانتفاع من تلك الحلول على سبيل الاستئناس والمعرفة بالشيء.

وانطلاقا من سنة الكون في التطور والتغير، فإن العقل الإنساني منظومة فكرية متكاملة تتعرض للتغيير وللتطوير المستمرين، وهي متجددة بتقادم الزمان وتنوع المكان، وتكتسب النضج في ترتيب الأولويات، والابتكار المتواصل، ورسم الممارسات المناسبة في إطار ما يُعرض وما يُستجد من قضايا.

إنّ ثنائيات: (الأصالة والمعاصرة، التقليد والإبداع، التراث والحداثة) مرتبطة بحشد منوع من ثنائيات أخرى مثل: (التأصيل والتغريب، والتميز والتحيز، والإبداع والاتباع، والانفتاح والانغلاق، والإنتاج والاستهلاك، والنص المبدع والنص المجتر، التطابق

والتناقض، العقلانية والاتباعية، الافتعال والاعتدال، التشكيل والتفكيك، الثوابت والمتغيرات، الخطاب التشددي والخطاب التجددي... إلخ) وهي تعمل بشكل منهجي في بيان مسارات الممارسة والتطبيق، وفي تحديد المناطق المعرفية في التضايف والاتصال، والتجاوز والانفصال.

يتجه التضايف إلى إمكانيات الربط بين تفعيل النص التراثي وتشكيل النص الحداثي انطلاقا من نقاط التواصل بينهما والمحددة بفكرة أن المنتجَ الإنساني هو منتجٌ متسلسلٌ متوالٍ يخضع لمسيرة تاريخية لا تنقطع وهو ما نتبناه هنا في هذا البحث، أما التجاوز فيتجه إلى قطع العلاقات والإرساليات كافة بين المنتج التراثي والحداثي بدعوة اختلاف التوجهين وعطب آليات الاستقبال لتنوع البعدين وتباينهما كليا!! وهذا مدعاة للنقد والتقييم والنقض عندنا انطلاقا من الوسطية الإسلامية التي ننتهجها في تناول القضايا الفكرية ومناقشتها.

وعلينا في مناقشة مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر ألّا نغفل التوجَه نحو الكليات في الفهم المعرفي الدقيق، الداعي إلى ممارسة التحليل والنقد، وبيان المكاسب وتنميتها وتحديد المزالق وتجاوزها، فضلا عن عدم التوجه نحو الجزئيات في الحكم المعرفي القاضي بالتقوقع في المعاصرة وقطع أواصر مرجعيات النصوص الحضارية التي رسمت لها شموخها، ومنحتها مزية ومكانة بين الأمم آنذاك.

تتجه مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر إلى بيان أجندتها في مناقشة أسباب التقدم الحضاري الماضي والتراجع المعاصر، وتضع في برنامجها أولوية النظر في قضية الميزان الزمني للمعطى العلمي، الذي سيمنحها أطراً مفتوحة للعمل والتحليل بعيدا عن عقدتي: (تضخم الأنا، والدونية) التي اصطبغت بها معظم نصوص المفكرين المعاصرين.

وتتناول قضية الميزان الزمني للمعطى العلمي مسائل عدة تبدأ مع خصوصية النتاجات العلمية لعقلية تنتمي لزمنها، ولا تنتهي عند عمومية الفكر العابر للحدود والمتجاوز للذوات، إنها قضية تملك حساسية بالغة في الطرح والتناول، وتتسم بمعطيات تشخص الداء وتمنح الدواء.

وإذا ما كُتب لهذه المفاهيم أن تشتغل في هذا الإطار الفكري فإننا سنحصد إمكانيات معرفية تسهم في بلورة التشكيل الحضاري في المستقبل، وتعين في إعادة صياغته بما يخدم التوجهات العقلانية المعاصرة والاستقبالية بما ينسجم مع رسالة

الوحي، وسيظهر أثر ذلك في مسيرة النهضة الإسلامية الوسطية المنشودة بشكل عياني تطبيقي، بعد أن مورست بحقها في زمن خلا تنظيرات لمشاريع تبنت شعار النهضة ومارست إجراءات التقليد والاتباع، فظهر جليا التناقض بين الفعل والممارسة والتطبيق، واتجهت إلى أرشيف الإنسانية بعد أن عفا عنها الزمن والفكر.

ولا يتسع البحث هنا لسرد تلك التجارب فهي ممتدة وكثيرة شملت معظم أصقاع البلاد الإسلامية من العراق إلى بلاد الشام إلى بلاد المغرب العربي، لكنها وبشكل عام حملت بذور الإصلاح ونية التغيير، وأرادت أن تسهم في إحياء نص وبناء فعل، لكن المشكلة كمُنت في تغافل أو تناسي ما أشرنا إليه في مراعاة (الميزان الزمني للمعطى العلمي)، فضلا عن مشكلة النظر بعقول الآباء والأجداد، فهم وإن أسهموا في البناء المعرفي الحضاري الإسلامي وقدموا ثمارهم العلمية التي تلذذ بها وانتفع منها الدراسون عبر عصور خلت، إلا أنها أصبحت غير منسجمة ومتطلبات العصر وتنوعاته وتشعباته، وأؤكد أن حديثي هنا منصب بشكل أساس على النتاجات الإنسانية الخاضعة للتغيير وعلى الفكر المعرض دوما للتنمية والتطوير.

لذا بات لزاما على أولي الفكر والاجتهاد أن ينظروا من خلال عنداياتهم، وأن يسهموا في البناء الحضاري الإسلامي المعاصر وفي مشروع نهضته انطلاقا من احتياجات العصر مع الاستئناس والانتفاع من معطيات الآباء والأجداد على سبيل التحليل والنقد وبيان المكاسب والمزالق، وليس على سبيل التسليم والتقليد.

وبهذا المنطلق ستكتسب مفاهيم النهضة الإسلامية ميدانا جريئاً في مناقشة قضايا عدة أخذ منها الخلاف مساحة زمنية استهلك الجهود واستنفر الطاقات، ومن تلك القضايا مزية الأحكام التي تُطلق على المنجز التاريخي بين موضوعيتها وتحيزاتها، ومعرفة هل أنّ التراث هو خير كلّه وأن الحداثة هي شر كلّها والسؤال العكسي صحيح أيضاً، وهل تعدّ المعاصرة شرطاً للنشاط العقلي وأن الأصالة شرط لصدقية الفكر وصلاحية العمل، ثم بيان مسارات الائتلاف والاختلاف بين الأقوال والأفعال للجهود التاريخية المبذولة في البناء المعرفي الحضاري الإسلامي، لاستثمار منجزاتها، ولتجاوز عثراتها، فضلا عن دراسة ظاهرة (التوافق في الرؤية) التي اتسمت بها نتاجات الحضارة الإسلامية، وتشير هذه الظاهرة إلى التوافق على تحديد الهدف المنشود من الإبداع العلمي في شتى مجالاته والمحدد بوضع لبنة معرفية في البناء الكلي للحضارة الإسلامية، بمعنى أن ظواهر الابداع كانت جمعية ولم تكن فئوية أو شخصية.

وعلينا معرفة أن ثنائيات مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي لا تشتغل لوحدها، إذ هي مصفوفة في نظام ثقافي حياتي متكامل يشمل التوجه السياسي، والنتاج الجماعي الشعبي، والمنجز الاقتصادي، فالنهضة لن تتجسد واقعا عيانيا دون توحدٍ – أو على الأقل تقاربٍ – بين الخطابين السياسي والثقافي، لأن انفصالهما يؤدي إلى انفصام الطرح التنظيري لمشروع النهضة عن الممارسة التطبيقية على أرض الواقع بسبب الحاجز السياسي، وما أشد وقعه وتأثيره في البلاد الإسلامية.

كما ستضطلع هذه المصفوفة بمهمة إعادة ترتيب الأفكار والمسارات المعرفية، والتبشير بثقافة الانتاج ونبذ ثقافة الاستهلاك، وبيان أن العصور العلمية ليست ملكا لأحد وبهذا يمكن غربلتها بما يتفق مع توجهات مشروع النهضة.

وجدير ذكره أن التطلع لبناء مشروع نهضوي إسلامي معاصر من هذه الجهة أو تلك، لا يعني مطلقا اكتسابه الحقيقة كلها، وامتلاكه أسس الصحة في الفعل والعمل، إنما يشير إلى اجتهاد فكري قد يصيب في إجراءاته وقد يخطىء وهذه هي مزية العمل الإنساني، والادعاء باكتساب الحقيقة كلّها يوقع في شَرَكِ النقص والانتقاد والشطط.

وعلينا الانتباه كذلك إلى أنّ الاشتغال في مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر لا يعني مطلقا الانفتاح المفتعل على العالم على حساب ما عُلِم من الدين بالضرورة، بمعنى أن يكون الانفتاح سببا للتنازل عن الوصايا والتعاليم الدينية كما حصل عند بعض الدعاة الجدد الذين رفعوا شعار التنمية والنهضة الإسلامية المعاصرة، لكنهم وفي الوقت نفسه تجاوزوا حدوداً ما كان ينبغي لهم تخطيها، ودقّوا بخيارهم هذا أسفين الخلاف في مشروعية تبني العمل في هذا الإطار.

فضلا عن أنّ الاشتغال في هذه المفاهيم يجب أن يتسم بالخصوصية والوسطية النابعة من الفهم القرآني والقاضي بكون الرؤية الإسلامية وأسسها العقدية هي المرجع في معرفة الصواب وتمييزه، وتأشير الخطأ والتنبيه من الوقوع فيه، وعندما يتحقق الاشتغال الفكري من خلال هذا المفهوم، عندئذ تكتسب الرؤية صفة المرجع والشاهد والقدوة الحسنة انطلاقا من قول الحقّ – تبارك وتعالى– : ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.[البقرة:١٤٣]

وجدير ذكره أن مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي تتجاذبها أطراف عدة تبدأ من إشكالية مناقشة المنجز التاريخي وصولا إلى قضية تحيزات المدونة التاريخية نفسها

وليس انتهاء بمسارات العقلانية المعاصرة التي تفرض أنماطها الفكرية بوصفها ضرورات حداثية يقتضيها الواقع المعيش!!.

ويمكن الانتفاع في هذا السياق ومن باب حديث الأمين المصطفىﷺ: (اَلْحِكمَةُ ضَالَةُ الْمُؤْمِنِ أَنَّى وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ النَّاس بِهَا)،[2] من مشروع النهضة الأوربية في العصور الوسطى الذي استمر زهاء أربعة قرون واتجه نحو إحياء التراث اليوناني في مجالاته المختلفة والمتنوعة والانتفاع من ميراث الحضارات والشعوب الأخرى، فكانت الحضارة الإسلامية في الأندلس معيناً ثرّاً ونبعاً متدفقاً بالمعطيات العلمية أضاءت ميادين أوربا المظلمة آنذاك.

ومشروع نهضتنا ليس بدعا من غيره فهو يحتاج – بعد تأصيله بأسسه العقدية كما أسلفنا – إلى زيارة الجهد الفكري للأمم والشعوب الأخرى، ودراسة الدوافع والأسباب، وبيان مواقف التنمية وتحديد مواطن النقد وتوضيح نقاط القوة والضعف في تلك المشاريع، وإن كانت أوربا قد أنفقت أربعة قرون في سبيل الوصول إلى النهضة المنشودة وبناء عصر التنوير، فإن المجتمعات الإسلامية أكثر اختصارا للوقت وأقدر على تقديم نهضتهم بوقت قياسي لتوفر سُبُل نجاح ذلك أولاً، ولأن الأمة الإسلامية أثبتت أنّها عودٌ صلبٌ في مواجهة الأخطار التي أحدقت وتحدق بها ثانياً، وبعد كل كبوة تنهض هذه الأمة من جديد لأنّ المعين الذي يمدها بالقوة وبأسباب التمكين والنهوض لا ينضب وهو معين القرآن الكريم.

إنّ الباحث في نهضة أوربا وبيان أسباب ولادة عصر التنوير يدرك تماما أن السعي لإيجاد النهضة لا تقف أمامه حساسية مفتعلة تجاه التراث أو الحداثة، أو قضية التأصيل والمعاصرة، أو مسألة تدافع العصور واختلافها، إنما يتجه القصد دوما إلى نبذ التقليد وممارسة الإبداع، والبعد عن تقديس الآباء واللجوء إلى العقل المستند إلى قيم الوحي والمنبثق –أي العقل– من النص الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولنا في المنجز الإسلامي الحضاري مثال شاخص على ما ذُكر، إذ منح النص الكريم مفاتيح اشتغال للعلماء المسلمين ورسم لهم خصوصية تتسم بالموسوعية والابتكار وعدم الركون إلى التقليد والحث على النظر المستمر والسياحة في الأرض ودراسة حال الأقوام السالفة لاخذ العبر، وتحفيز العقل على التفكر والتدبر والتأمل، وتقليب الأمور على أوجهها حتى يتبين الحقّ، وبذلك قدّم المنجز الإسلامي للعالم كلّه أسماء أسهمت في خدمة الإنسانية جمعاء، وأوضحت جوانب علمية كثيرة كانت

غائبة عنها، والقائمة في هذا السياق تطول في الجانب الديني والطبي والهندسي والفلكي والاجتماعي والتأريخي والنفسي والجغرافي واللغوي والبلاغي ... إلخ، ونذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر: (أبو الأسود الدؤلي، ابن سينا، ابن النفيس، الكندي، الفارابي، ابن رشد، الغزالي، ابن الهيثم، ابن خلدون، ابن تيمية، أبو هلال العسكري، ابن رشيق القيرواني، ابن جني، ابن فارس، الجاحظ، الزمخشري، الخليل بن احمد الفراهيدي، عبد القاهر الجرجاني، الأصمعي، ابن النديم، ابن الأثير، الرازي، الطبري، ابن كثير، السيوطي، التفتزاني، ابن هشام... إلخ).

إن الحديث عن النهضة الإسلامية المعاصرة وبيان مفاهيمها ليس حديثا آنيا إنما هو حديث متجدد بتجدد الظواهر والمعطيات على الصعيدين الإسلامي والعالمي، وقد برزت جهود طيبة في هذا المجال خلال نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ونادت محاولات عبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب ومالك بن نبي ويوسف القرضاوي.. وغيرهم، نادت الجهود المخلصة المحبة لدينها والمتجهة لرضا ربها، وحفزت الهمم المبدعة، في سبيل فهم جديد للنص الديني ينطلق من قاعدة: (ثبات النص وحركية المعنى) ويتجه نحو احترام سيادة العقل ومعطياته، وخدمة الإنسانية، وتعظيماً للدور الإسلامي الحضاري الذي بات العالم أجمع بحاجة ماسة لحلوله التي تنتظر مَنْ يُحسِن تقديمها ويبلور نتائجها.

لكن مشروع النهضة الإسلامية محفوف بمطبات عدة، نظراً لاتساع تنوع الفكر الإسلامي وتشعبه بين معتنقيه، وباتت هذه المطبات عوائق منعت المسار النهضوي، وأخّرت بدورها ممكنات القيام بهذا العمل بشكل جماعي لا فئوي. ويمكن الحديث عن أهم المطبات التي تعتري مسيرة مشروع النهضة الإسلامية من خلال الآتي:

أولاً: من أخطر إشكاليات مشروع النهضة الإسلامية هو بعد منظري المشروع أو المشتغلين عليه عن العلماء العاملين أصحاب الفتوى والاجتهاد. ويؤدي هذا البعد إلى تباين في المواقف وضعف في التأثير.

ثانياً: مشروع النهضة الإسلامية من وجهة نظر طائفية. ويقود هذا الأمر إلى نقص في البناء الفكري، وعوز في بيان المقدمات، وفساد في استخلاص النتائج، ولنا في الطروحات الطائفية مثال أكبر شاهد.

ثالثاً: تعد قضية استيراد الحلول الجاهزة مثلبا يعوق مشروع النهضة الإسلامية ويؤخر قيامها، لأنه يعتمد على جاهزيات الفكر عند الآخر وهي غير مناسبة بالضرورة

للفكر الإسلامي لتباين خصوصية الطرح في كلا التوجهين.

رابعاً: لا يمكن تقديم الدعوة إلى ولادة هذا المشروع أو إحيائه جملة واحدة، بل لا بد من الاحتكام إلى فقه الأولويات، وبيان مسارات الحاجة المعرفية، وتقديم الأهم على المهم، والعمل وفق تدرج علمي مدروس.

خامساً: تباين الأساليب الداعية إلى هذا المشروع بين المسلمين في الشرق وفي الغرب، ويعود سبب ذلك إلى تباين المشكلات واختلافها.

سادساً: تباين الطرح النهضوي لدى النخب الإسلامية المعاصرة، ويرجع سبب ذلك إلى التبني الفكري القصدي والموجّه بمسار حزبي ضيق، أو مذهبي محدد، أو طائفي مقيت، أو ذاتي متضخم.

سابعاً: يعد التأثير السياسي من العوامل المجهضة لمشروع النهضة الإسلامية، لا سيما وأن السلطة التنفيذية الناطقة باسم السياسة في البلاد الإسلامية تمارس سلطة مطلقة في تبني الأفكار المعروضة وتسييسها لصالح هذا النظام أو ذاك، أو رفضها ووقف انتشارها إن لم تكن مناسبة لتوجهاتها السياسية ومصالحها الآنية.

وفي الختام نتمنى أن نكون قد أسهمنا في بيان ما يعتري مفاهيم مشروع النهضة الإسلامية من خلال تقديم رؤية نقدية توجيهية تقضي بضرورة إحياء الماضي واستلهام الدروس منه وفحص منجزاته بشكل علمي ومنهجي وعدم التقيد بها أو تقليدها لأنها نتاجات إنسانية تخطىء وتصيب، وتؤكد هذه الرؤية احتضان الحاضر والانتفاع من طروحاته وتحليل معطياته وفق الأسس العقدية المتمثلة بنص القرآن العظيم وبسنة النبي الكريم ﷺ، مع تحفيز العقل على الاشتغال والابتكار والإبداع، كما تتجه هذه الرؤية إلى استشراف المستقبل وصياغة مفاهيمه انطلاقا من الإيمان بأنّ الرسالة الإلهية صالحة لكل زمان ومكان، وأن المشروع النهضوي المنبثق منها جدير بخدمة الإنسانية وتقديم ما يصلح لها. وإذا ازدانت الرؤية الاشتغالية في هذا المشروع بما تقدم آنفاً وتجاوزت المطبات التي تعتري مسيرتها، فإنها ستعيد مجدها الحضاري المتواري طيلة عصور خلت.

* * *

الهوامش:

[1] عميد كلية اللغات / جامعة المدينة العالمية ماليزيا.

[2] رواه الترمذي.

فصل المقال فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال عند الحكيم بديع الزمان

أ.د. طه عبد الرحمن[1]

نستهل هذا البحث باتخاذ إجراء اصطلاحي أساسي، وهو أن نخصص (من الآن فصاعدا) لفظ ''الفلسفة'' بالدلالة على المعرفة التي وضعها الإنسان من عنده، فنقول: ''الفلسفة الإنسانية''، ولا نقول: ''الفلسفة القرآنية''، كما نخصص لفظ ''الحكمة'' بالدلالة على المعرفة التي جاء بها الوحي من عند الله، فنقول: ''الحكمة الإلهية''، ولا نقول: ''الحكمة الفلسفية'' أو ''حكمة الفلاسفة''، ولا بالأولى نُطلق اسم ''علم الحكمة'' على الفلسفة، ولا اسم ''الحكماء'' على الفلاسفة.[2]

ولا يخفى أن هذا الإجراء الاصطلاحي يضاد كليا نظيره الذي قام به ابن رشد، فقد خص كلمة ''الحكمة'' بإفادة معنى ''الفلسفة'' في مقابل ''الشريعة'' كما جاء ذلك في عنوان كتابه المعروف: **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**؛ ومن شأن تخصيص الفلسفة بالحكمة ومقابلتها بالشريعة أن يوهم بأن الحكمة اجتمعت كلُّها في الفلسفة وأن الشريعة ليس شيء فيها حكمة، بحيث تَرِد على هذا الإجراء شبهة التخليط أو التغليط؛ ولا دفع لهذه الشبهة إلا بتغيير عنوان هذا الكتاب بأحد الطريقين: إما الاستبدال أو التقييد؛ والطريق الأول منهما يقوم في أن نضع لفظ ''الفلسفة'' مكان لفظ ''الحكمة''، فنقول: **فصل المقال فيما بين الفلسفة والشريعة من الاتصال**، ولا سيما

أن المصطلح الذي اختار ابن رشد أن يستعمله في أول كلامه في كتابه هذا هو لفظ ''الفلسفة''، وليس لفظ ''الحكمة''؛ والطريق الثاني يقوم في أن نخصص طرف الحكمة من طرفي هذه المقابلة بواسطة الإضافة، فنقول: **فصل المقال فيما بين حكمة الفلسفة وحكمة الشريعة من الاتصال** أو نخصصه بواسطة الإسناد، فنقول: **فصل المقال فيما بين الحكمة الفلسفية والحكمة الشرعية من الاتصال.**

وبعد هذا التوضيح الاصطلاحي الضروري، نتَّبع في عرض موقف بديع الزمان من العلاقة بين ''الفلسفة'' و''الحكمة'' الطريق الذي يُؤثِر هو نفسه اتباعَه في بسط أفكاره وآرائه، لأننا نكون بذلك أقرب إلى فهم هذا الموقف مما لو نحن نتَّبع في ذلك طريقا غيرَه من طرق العرض والإيضاح والتحليل المعلومة؛ وليس هذا الطريق المفضل لدى بديع الزمان إلا طريق التمثيل والتشبيه؛ فلنوضح إذن موقفه من هذه العلاقة بتشبيه تمثيلي مخصوص نتأوَّله ونتعرف من خلاله على الصفات التي يتميز بها هذا الموقف؛ وليكن هذا التشبيه كالتالي:

فكما أن ''كوبيرنيك''[3] أحدث انقلابا في تصور العلاقة بين الأرض والشمس، فكذلك بديع الزمان أحدث انقلابا في تصور العلاقة بين الفلسفة والحكمة أو قل، على جهة التشبيه، بين **أرض** الفلسفة **وشمس** الحكمة؛ غير أن هذا الانقلاب الجديد أخذ مسارا معاكسا لانقلاب فكري آخر نُعِت هو أيضا بكونه ''كوبرنيكيا''، وهو بالذات الانقلاب الذي أحدثه ''كانط''[4] في تصور العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف؛ فيتعين إذن أن نحدد خصوصية انقلاب بديع الزمان – هذه الخصوصية التي تَثْبُت له معها الصفة ''الكوبرنيكية'' وتنتفي عنه الصفة ''الكانطية'' – كما يتعين تحديد نوع الإنسان الذي يتولد من هذا الانقلاب الفكري الجديد.

ومعلوم أن مفهوم ''الانقلاب'' أخص من مفهوم ''التغيير''، إذ هو تغيير الشيء إلى ضده أو نقيضه، بحيث يكون الموقف من العلاقة بين الفلسفة والحكمة الذي انقلب إليه بديع الزمان مضادا للموقف الذي انقلب منه؛ فلننظر الآن في هذا الموقف المُنْقَلَب منه، حتى نَتَبَيَّن قدر التحوّل الذي سوف يطرأ على فكر صاحبه.

١. بديع الزمان الفيلسوف والوصل بين الفلسفة والحكمة

يقر بديع الزمان بأنه اشتغل بالفلسفة مدة وتعلق بها تعلقه بالعلوم العقلية كما اشتغل وتعلق بها غيره من المفكرين،[5] بحيث يصح أن نَعُد هذه الفترة من حياته

الفكرية **فترة تفلسف** صريح جعله يتخذ من العلاقة بين الفلسفة والحكمة نفس الموقف الذي اتخذه فلاسفة الإسلام من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد،[6] وهو، على التعيين، موقف **الجمع** أو **الوصل** بينهما، بمعنى أن الفلسفة لا تخالف الحكمة، وإنما توافقها.

والواقع أننا إذا دققنا النظر في هذا الجمع – أو الوصل – وجدنا أنه يتخذ صورتين اثنتين: إحداهما، الصورة التي اشتهر بها الكندي والفارابي وابن سينا؛ والثانية، الصورة التي اشتهر بها أبو سليمان السجستاني وابن رشد؛ فلنبسط الكلام في هاتين الصورتين للوصل بين الفلسفة والحكمة.

١,١. جمع التداخل بين الفلسفة والحكمة: إن الصورة الأولى التي اتخذها الجمع بين الفلسفة والحكمة هو أنه عبارة عن **تداخل**، بمعنى أن الفلسفة والحكمة تدخل إحداهما في الأخرى، فما تقرره الحكمة تثبته الفلسفة وما تدعيه الفلسفة تؤيده الحكمة، بحيث تنزلان منزلة **الأختين الشقيقتين**؛ ويقوم هذا الوصل التداخلي، حسب ما جاء في نصوص بديع الزمان، على مبدأين أساسيين:

أحدهما، **مبدأ تأسيس النقل على العقل**: ومقتضاه أن النقل يُؤوَّل على مقتضى العقل متى ظهر تعارضه معه.

والثاني، **مبدأ التوسل بالعقل في النقل**: ومقتضاه أن المفاهيم العقلية تكون وسائط في بيان الحقائق النقلية.

وقد عَمل بديع الزمان بهذين المبدأين في فترة تفلسفه، إذ يخبرنا أنه كان يقيم الحقائق الإسلامية على أدلة عقلية كما هي طريقة الفلاسفة، داخلا في مناظرة خصومه وخصوم الإسلام؛[7] كما نجد أنه كان يلجأ في توضيح المعاني الإسلامية إلى المفاهيم الفلسفية كشأنه مع معنى ''العدل''، إذ لجأ في بيانه إلى نظرية ''أفلاطون'' في الفضائل الأربع – أي العفة والشجاعة والحكمة والعدل – وأيضا إلى نظرية ''أرسطو'' في مفهوم ''الفضيلة'' باعتبارها وسطا بين الإفراط والتفريط.[8]

٢,١. جمع التصاحب بين الفلسفة والحكمة: أما الصورة الثانية التي اتخذها الجمع بين الفلسفة والحكمة، فهي أنه عبارة عن **تصاحب**، بمعنى أن الفلسفة والحكمة، ولو أنهما تعبِّران عن حقيقة واحدة، تبقيان مستقلتين إحداهما عن الأخرى، إذ تكون لكل واحدة منهما لغتها وجمهورها ومنهجيتها ومقصديتها الخاصة، فتكون العلاقة بينهما

علاقة تساوق وترافق أشبه بترافق **الصديقتين**؛ والأصل في القول بهذا **الوصل التصاحبي** هو الاعتقاد بأن الفلسفة تأخذ بمبادئ ثلاثة لا تأخذ بها الحكمة:

أحدها، **مبدأ الاندهاش**: ومقتضاه أن فعل التفلسف يتولد من الشعور بالدهشة – أو العجب – إزاء الآثار في النفس أو إزاء الأشياء في الأفق.

والثاني، **مبدأ الاستشكال**: ومقتضاه أن الفيلسوف لا يفتأ يضع الأسئلة تلو الأخرى، باحثا عن الأجوبة عنها.

والثالث، **مبدأ الاستدلال**: ومقتضاه أن الفلسفة تستند في إثبات حقائقها إلى الأدلة العقلية التي قد تبلغ أعلى مراتب اليقين.

وقد عَمل بديع الزمان بهذه المبادئ الثلاثة، هي الأخرى، في فترة تفلسفه، إذ كان يتمتع بقدرة اندهاشية قَلَّ نظيرها، فلا يرى شيئا في نفسه أو في أفقه إلا ويرى فيه سرا عجيبا ينبغي استكناه أمره؛ وأيضا كانت الأسئلة المصيرية تملك عليه مشاعره وتستحوذ على مداركه، فيشغله طلب الأجوبة عنها طويلا، معاودا النظر فيها، إن تصحيحا أو تعميقا؛ ولم يكن بديع الزمان يجد من طريق أسلم في استكناه الأمور التي يندهش لها ولا في الجواب عن الأسئلة التي تهجم عليه إلا طريق البرهان العقلي، لكي تطمئن نفسه التي بين جنبيه ويقتنع خصمه الذي بين يديه.

وعلى الجملة، كان بديع الزمان الفيلسوف كغيره من فلاسفة الإسلام يسلم بمبدإ الجمع بين الفلسفة والحكمة، سواء اتخذ هذا الجمع شكل **التداخل** كما عند الفارابي وابن سينا أو شكل **التصاحب** كما عند ابن رشد.

٢. بديع الزمان الحكيم والفصل بين الفلسفة والحكمة

هاهنا يجب التنبيه على حقيقة أساسية، وهي أن هذا الجمع بين الفلسفة والحكمة، إذا كان النظر العقلي المجرد يجوِّزه ولا يحيله، فإن الواقع الحي يكذبه ولا يؤيده؛ ذلك أنه حدثَ على مرأى ومسمع من بديع الزمان انقلاب سياسي اجتماعي تصدَّع له التاريخ واهتز له المجتمع وصعق له الإنسان؛ ولم يكن هذا الانقلاب السياسي الاجتماعي إلا أثرا من الآثار التي انعكس بها على المجتمعات الغربية الانقلاب الفكري الذي قامت به الفلسفة الحديثة ضد الحكمة الدينية والذي يمثله خير تمثيل فكر الفيلسوف الألماني "كانط".

وكان لا بد لهذا التعارض الغريب بين تجويز العقل للجمع بين الفلسفة والحكمة

وتكذيب الواقع المعيش له من أن يشغل بال بديع الزمان طويلا ويدعوه إلى مراجعة موقفه الفلسفي وبالتالي إلى تجديدِ النظر فيما تقرر بين فلاسفة الإسلام من أن الفلسفة والحكمة متصلتان اتصالَ تداخلٍ كالشقيقتين أو اتصالَ تصاحبٍ كالصديقتين.

من هنا يبدأ العهد الجديد لبديع الزمان، إذ يتجرد من لباسه الفلسفي القديم ليلبس لباسا جديدا، ألا وهو لباس الحكمة! أو قل هاهنا نشهد **موت بديع الزمان الفيلسوف وولادة بديع الزمان الحكيم**،[9] ونسوق في هذا المقام نصا بهذا الشأن لا غبار عليه، وهو التالي:

"راجعت أول ما راجعت تلك العلوم التي اكتسبتها سابقا أبحث فيها السلوة والرجاء؛ ولكن كنت – ويا للأسف! – إلى ذلك الوقت مغترفا من العلوم الإسلامية مع العلوم الفلسفية ظنا مني – ظنا خطأ جدا – أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدر الرقي والتكامل ومحور الثقافة وتنور القلب، بينما تلك المسائل الفلسفية هي التي لوثت روحي كثيرا، بل أصبحت عائقة أمام سُمَوي المعنوي.

"نعم، بينما كنت في هذه الحالة، إذا بحكمة القرآن المقدسة تسعفني، رحمة من العلي القدير، وفضلا وكرما من عنده سبحانه، فغسلت أدران تلك المسائل الفلسفية، وطهرت روحي منها – كما هو مبين في كثير من الرسائل – إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية يغرق روحي ويطمسها في الكائنات، فأينما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نورا ولا أجد قبسا، ولم أتمكن من التنفس والانشراح حتى جاء نور التوحيد الساطع النابع من القرآن الكريم الذي يلقن 'لا إله إلا الله'، فمزق الظلام وبدده، فانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان."[10]

ويتخذ هذا التحول الجذري في حياة بديع الزمان مظهرين اثنين: أحدهما مظهر نقدي والثاني مظهر بنائي.

١,٢. انقلاب بديع الزمان ونقد الوصل بين الفلسفة والحكمة؛ يتجلى المظهر النقدي لهذا التحول في كون بديع الزمان اشتغل بنقد الجمع بين الفلسفة والحكمة في صورتيه الاثنتين: التداخل والتصاحب نقدا مثلَّثا: نقدا منطقيا ونقدا أخلاقيا ونقدا إشاريا؛ ولا عجب في ذلك، فالحكيم أصلا لا يكتفي بالنقد المنطقي للآراء كما يكتفي به الفيلسوف، بل يتعداه إلى النقد الأخلاقي لها، لأنه لا ينظر إليها مجردة، وإنما مقترنة بالعمل، فيقوّمها بحسب أثرها العملي، ثم يرتقي بها درجة، فينظر إليها من جهة قيمتها الجمالية، فيأتي بنقده الإشاري لها.

فلنبدأ بتوضيح كيف مارس بديع الزمان هذا النقد المثلَّث على الضرب الأول من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التداخلي الذي ينبني، كما تقدم، على مبدأين اثنين هما: ''مبدأ تأسيس النقل على العقل'' و''مبدأ التوسل بالعقل في النقل''.

١,١,٢. نقد التداخل بين الفلسفة والحكمة:

أ. النقد المنطقي: يرى بديع الزمان أن مبدأ تأسيس النقل على العقل الذي ينبني عليه جمع التداخل هو عبارة عن ترجيح بغير مرجِّح، ذلك لأن العقل ليس أقل من النقل حاجة إلى التأسيس، ولا يمكن أن يكون هذا التأسيس بطريق العقل نفسه متى كان هذا العقل هو ''العقل الدائر بين الناس''[11] ولم يكن عقلا من نوع جديد لا عهد للفلسفة به[12]؛ كما أن هذا المبدأ يحمل على تأويل النقل بما يفضي إلى تحريفه، لأن العقل المعلوم ليس له من السعة والتجرد ولا من القدرة على الانطلاق ما يستوجبه فهم هذا النقل.[13]

ويرى بديع الزمان كذلك أن مبدأ التوسل بمفاهيم العقل في بيان معاني النقل الذي يقوم عليه هذا الضرب الأول من الوصل لا يرفع من شأن النقل، وإنما ينزل به، لأن فيه إيهاما بأن الأسس العقلية أعمق وأرسخ من الأسس النقلية؛ كما أنه لا يفيد في الظهور على الخصم، لأنه يبقى منحصرا في دفع الاعتراضات بالطريق العقلي المجرد الذي يأخذ به هذا الخصم، ولا يرقى إلى عرض حقائق النقل بالطريق الذي يمتزج فيه العقل بالقلب والذي تختص به هذه الحقائق[14]، هذا إن لم يؤد إلى تزييفها تزييفا كاملا.[15]

ب. **النقد الأخلاقي**: يؤكد بديع الزمان أن تعاطي المتفلسف لتأسيس النقل على العقل يصيبه بأمراض قلبية، في مقدمتها مرض الغرور، ذلك لأنه يجعل من عقله الناقص والمحدود معيارا للوحي الذي هو كلام لا حد لكماله؛[16] كما يؤكد أن التوسل بالمفاهيم الفلسفية – ولا سيما الطبيعية و''الميتافيزيقية'' – في مباحث القرآن يفضي بصاحبه إلى تقديس الطبيعة وترك تقديس خالقها.

ج. **النقد الإشاري**: إن مَثَل الفيلسوف القائل بالتداخل بين الفلسفة والحكمة عند بديع الزمان كمَثَل من يسلك طريقا في جوف الأرض – أي نفَقا – أو من يأوي إلى كهف[17]، فيكون عبارة عن شبح لا يُرى شخصه وإن عُرفت عينه وشُهِد أثره، وينتهي بالهلاك في هذا النفق اختناقا ولَمَّا يُكمِّل سيره، وتكون منزلته في القرآن – الذي هو معدن الحكمة – منزلة الضال.[18]

من ثمَّ، يصبح الفيلسوفان اللذان ذكرهما بديع الزمان بالاسم مرات عديدة، وهما: الفارابي وابن سينا معدودَين عنده في زمرة الضالين،[19] إذ كانا يقولان بالتداخل بين الفلسفة والحكمة، وهو قول أشبه بسفسطة النصارى؛ وقد ذهب ابن سينا في العمل بهذا القول إلى أبعد مما ذهب إليه الفارابي؛[20] ولما كان بديع الزمان قد انخدع بدهائهما واعتقد الصحة في رأيهما، فقد كاد هو نفسه أن يضل كما ضلاّ لولا أنّ الله تجلى عليه باسمه ''الحكيم''، فأضحى أهدى سبيلا وأقوم قيلا.

وعلى هذا، فإن العمل بمبدإ تداخل الفلسفة والحكمة يُنتِج إنسانا رقيق الإيمان ضعيف الحجة متعلقا بالظاهر مغترا بنفسه وتائها عن طريقه.

ولننعطف الآن على الضِرْب الثاني من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التصاحبي، فنبين كيف مارس عليه بديع الزمان هذا النقد المثلَّث، مع العلم بأن هذا الضرب يقوم على مبادئ ثلاثة هي: ''مبدأ الاندهاش'' و''مبدأ الاستشكال'' و''مبدأ الاستدلال.''

٢,١,٢. نقد التصاحب بين الفلسفة والحكمة

أ. النقد المنطقي: فبالنسبة لمبدإ الاندهاش الفلسفي، الصواب أن الفلسفة لا تصدر عن الشعور بالعجيب الخارق، وإنما عن الشعور بالغريب الشاذ؛[21] وشتان بين الشعورين، فالأول مداره على كمال الخلقة الذي في الأشياء، بينما مدار الثاني على نقص الخلقة الذي فيها؛ والدليل على ذلك أن الفلسفة لا تتأمل المألوفات، بل تحسب كل مألوف معلوما، بل إن أكثر معلوماتها مبنية على المألوف والعادي، وليس على المعجز والخارق.[22]

وأما عن مبدإ الاستشكال الفلسفي، فالصواب أنه غير مضبوط في مقاصده المتعلقة بالكائنات، فيقع في الخبط والانتشار في كل اتجاه؛ كما أنه غير مشفوع بالجواب المطلوب، فيقع صاحبه في الحيرة البالغة، بل في العذاب الشديد[23].

وأما عن مبدإ الاستدلال الفلسفي، فالصواب أنه سلسلة من القضايا التي يتهددها الوهم على الدوام؛ فلو فرضنا أننا نريد أن ندفع عنها هذا التهديد، فحينئذ يلزم أن نستدل على كل قضية من هذه القضايا بسلسلة أخرى من القضايا يتهددها بدورها الوهم، وهكذا دواليك؛ فلا نكاد ندفع الوهم عن سلسلة حتى نجلبه إلى سلاسل من دونها بلا انقطاع.[24]

ب. **النقد الأخلاقي:** لما كان الاندهاش الفلسفي في أصله استغرابا، ولم يكن أبدا استعجابا، أوقع المتفلسف في محذورين:

أحدهما، **سد طريق الاعتبار**: إذا كانت الفلسفة لا تتعجب من العاديات والمألوفات، فإنها لا تمكِّن صاحبها من استخراج العِبر والعظات منها.

والثاني، **فتح طريق النكران:** إذا كانت الفلسفة تُلقي بغطاء الألفة على الأشياء، فإنها تحول دون معرفة القدرة الإلهية والإقرار بأفضالها غير المتناهية.

ولما كان الاستشكال الفلسفي تساؤلا غير منضبط، أفضى إلى أمرين كلاهما حرمان هالك:

أحدهما، **فقدان سر التوحيد**: إن كثرة الأسئلة بدون مقاصد موجِّهة (بكسر الجيم المشددة) ولا أجوبة مُرْضية تدل على أن صاحبها محروم من سر التوحيد، إذ أنه لو كان متحققا بهذا السر، لدارت أسئلته على مقاصد محددة، وظفر بالأجوبة عليها ضمن هذه المقاصد التوحيدية.[25]

والثاني، **فقدان الشعور بالسعادة:** إذا لم يجد المتفلسف أجوبة على أسئلته المتفرقة ولا استجابة لمطالبه المتباينة، فلا بد من أن يشقى شقاء عظيما.[26]

ثم لما كان الاستدلال الفلسفي سلسلة مهددة بالوهم، أفضى إلى أمرين كلاهما شر بالغ:

أحدهما، **التعلق بالأسباب دون المسبِّب:** تقتصر الفلسفة في استدلالاتها على الكائنات دون المكوِّن سبحانه، أي باصطلاح بديع الزمان تأخذ بالنظر الاسمي، لا الحرفي؛[27] يلزم على ذلك أنها تُوقِع المشتغل بها في عبادة الأسباب.[28]

والثاني، **التعلق بالذات دون غيرها:** كما ينظر المتفلسف من الكائنات إلى أسبابها الطبيعية، فكذلك ينظر إلى نفسه نفس النظر الاسمي؛[29] يلزم من ذلك أنه يقع في عبادة النفس.[30]

ج. **النقد الإشاري**: إن مَثَل الفيلسوف القائل بالتصاحب بين الفلسفة والحكمة عند بديع الزمان كمَثَل من يسلك طريقا على وجه الأرض في صحراء شاسعة، فتأتيه الأهوال من كل جانب بين غضب البحر وتهديد العاصفة وظلمة السماء، فتصيِّره أشلاء مبعثرة على حافة الطريق، وتكون منزلته في القرآن الحكيم منزلة المغضوب عليه.[31]

وإذا قارنا بين هذا النقد الإشاري للتصاحب والنقد الإشاري السابق للتداخل، تبيَّن

أن القائل بالتصاحب أسوأ حالا من القائل بالتداخل، ذلك أن في سلوك الأول لطريق فوق الأرض، أي طريق تحت السماء – التي هي رمز الوحي – وتحت الشمس – التي هي رمز النور–، إشارةً إلى أن تحديه لربوبية الحكيم يزيد درجات عن غرور الثاني، فهذا لا يسلك إلا طريقا تحت الأرض، لا يرى فيه شمسا ولا سماء؛ كما أن في إلقاء البحر أشلاء الأول على جانب الطريق إشارةً إلى أن عمله أشبه بعمل فرعون، فاستحق أن يلقى نفس المصير موتا واعتبارا،[32] بينما لا نظفر من الثاني إلا بشبح، فلا يكون عبرة للناس ببدنه، وإنما بآثاره وحدها.

من ثمَّ، يصبح الفيلسوف المشائي الكبير الذي لم يرد اسمه على لسان بديع الزمان إلا قليلا، وهو: ابن رشد، معدودا عنده في زمرة المغضوب عليهم،[33] إذ كان يقول بالتصاحب بين الفلسفة والحكمة ويعمل على مقتضاه، وهو عمَلٌ فَسق به فسوقا أشبه بتمرد اليهود[34]؛ ولما كان بديع الزمان قد انخدع بدهائه هو الآخر واعتقد الصحة في رأيه، كاد أن يتعرض هو نفسه لغضب الله لولا أنّ الله تجلى عليه باسمه ''الرحيم''، فهداه الصراط المستقيم.

وعلى هذا، فإنّ العمل بمبدإ تصاحب الفلسفة والحكمة يُنتج إنسانا غير بصير ولا معتبِر ولا معترف ولا سعيد ولا ناج.

وبعد أن أنهينا الكلام عن الجانب النقدي في الموقف الانقلابي الذي اتخذه بديع الزمان من العلاقة بين الفلسفة والحكمة، نمضي إلى بيان عناصر الجانب البنائي في هذا الموقف الجديد.

٢,٢. انقلاب بديع الزمان والقول بالفصل بين الفلسفة والحكمة؛ يتمثل الجانب البنائي من هذا الانقلاب الفكري في كون بديع الزمان يستبعد كلا الجمعين المذكورين بين الفلسفة والحكمة – أي جمع التداخل وجمع التصاحب – ويأخذ **بضده**، أي يأخذ بفصل أو تفريق مخصوص بينهما، متوسلا في ذلك بآلية خطابية محددة.

١,٢,٢. الفصل الاستتباعي بين الفلسفة والحكمة: يستبعد بديع الزمان جمع التداخل الذي يُنزل الفلسفة والحكمة رتبةً واحدة ما لم تتعارضا، ويأخذ **بتمييز وتفريق**– أو **فصل– في الرتبة** بينهما ولو لم تتعارضا، ممارسا آلية القلب على المبدأين اللذين يتقوَّم بهما هذا الجمع، أي ''مبدأ التأسيس العقلي للنقل'' و''مبدأ التوسل بالعقل في النقل''؛ ومقتضى القلب، كما هو معروف، تغيير الرتبة، فإن كان الشيء مقدَّما، صيَّره مؤخرا، وإن كان مؤخرا، صيّره مقدما؛ وحينئذ، يصبح المبدءان اللذان ينبني عليهما هذا الفصل

هما بالذات: ''مبدأ التأسيس النقلي للعقل'' و''مبدأ التوسل بالنقل في العقل''؛ وبيان ذلك كما يلي:

أ. مبدأ تأسيس العقل على النقل: يذهب بديع الزمان إلى أن العقل – أي العقل الدائر بين الناس – والنقلَ – أي النقل في معناه الأعم – كليهما يحتاج إلى التأسيس، ولا يمكن أن يأتي التأسيس من هذا العقل الناقص كما لا يمكن أن يأتي من النقل العام، بل لا بد من طريق ثالث لا يكون فيه نقصان العقل ولا عموم النقل، بل يجمع إلى العقل الأكمل النقل الأخص؛ وليس هذا الطريق الثالث إلا القرآن الحكيم، ففيه من أسباب كمال العقل ما يؤهله لتأسيس العقل الدائر بين الناس، وفيه من أسباب خصوصية النقل ما يؤهله لتأسيس النقل عامة.[35]

ب. **مبدأ التوسل بالنقل في العقل**: يذهب بديع الزمان إلى أن العقل – وتمثله الفلسفة البشرية خير تمثيل – لا يقدر على أن ينفع الناس وأن يحقق لهم السعادة حتى يتوسط بالنقل – ويمثله الوحي الإلهي أفضل تمثيل –؛ وبدون هذا التوسط، لا يخلو العقل من أسباب النفع والإسعاد فحسب، بل ينقلب بالضرر على الإنسان ويبلغ فيه هذا الضرر أقصاه،[36] لأنه لا مفر من أن يضل الطريق ويتعرض لغضب الله.

وبهذا، يصير النقل – ممثَّلا بحكمة القرآن – هو الأصل والعقل – ممثَّلا بفلسفة البشر – هو الفرع متى ثبتت موافقته لما جاء به النقل؛ لذا، جاز أن نسمي التفريق – أو الفصل – في الدرجة بين الحكمة والفلسفة الذي قابل به بديع الزمان الوصل التداخلي بينهما باسم ''**التفريق**– أو **الفصل** – **الاستتباعي**''، حيث إن الفلسفة تصبح تابعة للحكمة وخادمة لها؛[37] وهذا بالذات ما يستفاد من تمييز بديع الزمان بين الفلسفة النافعة والفلسفة الضارة في رسالة موجهة إلى طلاب الفلسفة الحديثة[38] الذين أقبلوا على رسائل النور؛ فبصرف النظر عن الاعتبارات الظرفية التي قد تدعوه إلى مثل هذا التمييز كرغبته في استمالة هؤلاء الطلاب المتفلسفة وتشجيعهم على المضي في قراءة هذه الرسائل واتقاءِ شر الخصوم، فإنه يجعل الفلسفة النافعة خادمة لحكمة القرآن كما لو كانت متفرعة عليها، نظرا لأنها ''تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد السبل للرقي الصناعي.''[39]

ومن شأن العمل بهذا الفصل الاستتباعي أن يخرج لنا إنسانا راسخ الإيمان قوي الحجة ناكرا لذاته غير متعلق بالظاهر ولا تائها عن الطريق، أو قل بإيجاز **إنسانا مَهديا**.

٢,٢,٢. الفصل الاستبدالي بين الفلسفة والحكمة: يستبعد بديع الزمان أيضا جمع

التصاحب بين الفلسفة والحكمة، ويأخذ **بتفريق** – أو **فصل** – **في النوع** (أو الطبيعة) بينهما، ممارسا **لآلية الاستبدال** عليهما؛ ومقتضى الاستبدال هنا هو جعل الشيء بدلا من غيره، بحيث يصير البدل قائما بوظائف المُبدَل منه على أحسن وجه؛ وحينئذ، تصبح الحكمة عند بديع الزمان بديلا عن الفلسفة، ناهضة على أفضل وجه بالمبادئ الثلاثة التي تدعي الفلسفة الاختصاص بها، أي ''مبدأ الاندهاش'' و''مبدأ الاستشكال'' و''مبدأ الاستدلال''؛ وتوضيح ذلك كما يلي:

أ. **مبدأ الاندهاش**: يرى بديع الزمان أن الصورة الأبلغ والأكمل لمبدإ الاندهاش تتحقق في حكمة القرآن المبين، وذلك من وجهين:

• إن القرآن يخرق ستار العادة المسدول على الأشياء في أنفسنا وفي الآفاق من حولنا، فيجعلنا نتعجب من الأسرار المودعة فيها ونكتشف ما تنطوي عليه من خوارق القدرة الإلهية وعجائبها العظيمة.

• إن القرآن كلام معجز، ومعلوم أنه لا صفة أبلغ من ''الإعجاز'' في إثارة الاندهاش، فما بالك إذا كان إعجازا من قبيل الإعجاز القرآني! فعندئذ، لا بد أن يبلغ اندهاش المرء نهايته.

وعلى هذا، فإذا كان التفلسف، كما قيل، يبدأ بالاندهاش، فإن الاندهاش الذي هو بداية الحكمة ليس فوقه اندهاش، حيث إنها تحظى به في تأمل إعجاز القرآن الداعي إلى منتهى الاندهاش، بما أنه هو مجلي اسم الحكيم من أسماء الله الحسنى؛ ومن هنا، ندرك لِمَ بدأ بديع الزمان مساره في الحكمة بالاشتغال ببيان إعجاز القرآن، عملا بالرؤية الصادقة التي رآها، وهي رؤية انفلاق الجبل المذكورة أعلاه، إذ جاءه فيها شخص عظيم بِأمر مخصوص، قائلا: ''بيِّن إعجاز القرآن.''[40]

ب. **مبدأ الاستشكال**: يرى بديع الزمان أن الصورة الأصح والأتم لمبدإ الاستشكال تتحقق هي الأخرى في حكمة القرآن، وذلك من وجهين هما:

• إن القرآن يحدد أفضل نطاق يمكن أن توضع فيه الأسئلة، ذلك أن السؤال لا يستقيم إلا إذا دار على مقصد مخصوص، والقرآن له مقاصد أصلية هي: ''التوحيد'' و''الوحي'' و''الآخرة'' و''الاستقامة'' أو، بتعبير بديع الزمان، ''إثبات الصانع'' و''النبوة'' و''الحشر'' و''العدالة''[41]؛ فما من آية من آياته البينات إلا وتتعلق بمقصد واحد أو أكثر من هذه المقاصد الأربعة، بل إن الآية الواحدة، على قِصَرها، قد تشتمل

عليها جميعها، نازلة بذلك منزلة القرآن كله؛ وأما ما جاء فيه من مقاصد أخرى تتصل بالكائنات وخصائصها، فهو تابع لهذه المقاصد الأربعة وخادم لها؛ وعلى هذا، ينبغي أن تدور أسئلة الحكيم على هذه المقاصد وحدها، ولا تخرج إلى التساؤل عن الخواص الطبيعية للموجودات إلا أن يكون ذلك بغرض تبيُّن هذه المقاصد الأصلية من ورائها.

• إنّ القرآن يجيب على أفضل وجه عن الأسئلة الموضوعة، فقد تقدم أن هذه الأسئلة ينبغي أن تتعلق بالمقاصد الأربعة المذكورة، أي أن تكون كالتالي: "من أين؟ وبأمر من تأتون؟ من سلطانكم ودليلكم وخطيبكم؟ وما تصنعون؟ وإلى أين تصيرون؟"[42] والقرآن هو وحده القادر على إيراد الأجوبة الصحيحة على مثل هذه الأسئلة والتي تكون شفاء لما في الصدور.

ج. **مبدأ الاستدلال**: يرى بديع الزمان أن الصورة الأشمل والأيقن لمبدإ الاستدلال تتحقق هي الأخرى في القياس التمثيلي الذي تأخذ به حكمة القرآن، وذلك من الوجوه الآتية:

• إن هذا القياس يفيد في إقناع كافة الناس ولا يقتصر على فئة معدودة منهم، كما أنه يتسع لفنون مختلفة ولا ينحصر في فن واحد منها،[43] نظرا لأنه يُلْبس الحقائق المخبَر بها لباس مألوفات الجمهور ومتخيلاته، ولا يكلفه إدراكها على صورتها المجردة.[44]

• إنه يُمكِّن من تحصيل منظور تقريبي لِما يجاوز طور العقل المجرد من الحقائق الإلهية وشؤون الربوبية،[45] فيكون أقدر من هذا العقل.

• إنه يؤمِّن طاعة الخيال للعقل، فيحُدُّ من تشكيكاته وتهويماته التي تتهدد عادة استدلالاته غير التمثيلية،[46] فيكون أقوى من هذه الاستدلالات.

• إنه يجمع بين الطريقين الإدراكيين المتقابلين للإنسان، وهما: طريق العقل وطريق الوجدان[47]، فيكون استدلالا متكاملا.

• إنه يُثبِت قانونا كليا بإظهار حالة خاصة منه في صورة مثال جزئي[48]؛ ومعنى هذا أن المثال عند بديع الزمان ليس مجرد شيء مشابه للشيء المُمَثَّل، بل يحكمه نفس القانون الذي يحكم هذا الشيء، بحيث يكون التمثيل عنده أقرب إلى الاستقراء منه إلى الاستنباط (أو القياس الجامع).[49]

ومما تقدم، يتبين أن الحكمة لا يمكن أن تجتمع مع الفلسفة، لأن الخير والحق يصيران كلاهما في جانب الحكمة والشرَّ والباطلَ يصيران كلَّهما في جانب الفلسفة، فتكونا متباينتين تباين النوعين؛ لذا، صح أن نسمي هذا الفصل النوعي بينهما باسم ''الفصل الاستبدالي''،[50] إذ تصبح الحكمة البديل الذي لا غنى عنه.

ومن شأن العمل بهذا الفصل الثاني أن يُخرج لنا إنسانا متبصرا ومعتبرا ومعترفا وسعيدا وناجيا، أو قل **إنسانا مَرْضيا عليه**.

وإذا اجتمعت للإنسان الهداية والرضى، كان إنسانا منعَما عليه؛ فإذن الحكيم الذي يختص بكونه يجعل الحكمة تسود الفلسفة، بل يجعلها تستغني كليا عن خدمة الفلسفة يكون حقّا من أولئك الذين أنعم الله عليهم.

وخلاصة القول من هذا التحليل لموقف بديع الزمان من العلاقة بين الفلسفة والحكمة هي أن بديع الزمان **انقلب** من **حال الفيلسوف** الذي يوافق فلاسفة الإسلام في القول بالوصل بين الفلسفة والحكمة، إما وصل تداخل يجلب الضلالة أو وصل تصاحب يجلب غضب الله، إلى **حال الحكيم** الذي يقول بضرورة الفصل بينهما، إما فصلا استتباعيا يجلب الهداية، فتكون الفلسفة في خدمة الحكمة، أو فصلا استبداليا يجلب رضى الله، فتكون الحكمة بديلا عن الفلسفة.

وواضح أن هذا الانقلاب انقلاب ''كوبيرنيكي'' بحق؛ فبعد أن كانت الفلسفة تُعَدّ موصولة بالحكمة، صارت تُعَدّ مفصولة عنها؛ وبعد أن كانت الفلسفة تستتبع الحكمة في حالة الاختلاف بينهما، أصبحت الحكمة هي التي تستتبع الفلسفة في حالة الاتفاق بينهما؛ وبعد أن كانت الفلسفة تضاهي الحكمة وجودا، أضحت لا تضاهيها في هذا الوجود، بل أضحت تفقده بوجود الحكمة.

وحينئذ، لا نستغرب أن يلح بديع الزمان أيما إلحاح على وجود طورين متضادين في حياته: سعيد القديم وسعيد الجديد؛ ولذا، نعتقد أن العناصر التي تفرِّق بين هذين الطورين ينبغي البحث عنها في الموقفين المتعارضين اللذين وقفهما من العلاقة بين الفلسفة والحكمة، بحيث يكون الوصل بينهما هو المعيار الذي نحدد به فكر سعيد القديم ويكون الفصل بينهما هو المعيار الذي نحدد به فكر سعيد الجديد.

لكن هذا الانقلاب ''الكوبيرنيكي'' هو نقيض للانقلاب ''الكوبيرنيكي'' الذي قام به ''كانط''؛ فإذا كان ''كانط'' قد جعل الحكمة تابعة للفلسفة في حال اتفاقهما، فإن

بديع الزمان، على العكس من ذلك، يجعل الفلسفة تابعة للحكمة في الحال ذاته؛ وإذا كان ''كانط'' قد جعل الفلسفة بديلا عن الحكمة في حال تعارضهما، فإن بديع الزمان، على العكس من ذلك، يجعل الحكمة بديلا عن الفلسفة في الحال ذاته.

ومن هنا، يظهر جليا أن البُعْد الذي يكتسبه إنتاج بديع الزمان لا ينحصر في تركيا حيث آثار الفلسفة ''الكانطية'' قد فعلت فعلها وبدَّلت قِيَم أهلها تبديلا، ولا هو ينحصر في الأمة الإسلامية التي تفككت أوصالها وفقدت وِجهتها، وإنما يتعدى ذلك إلى العالم بأسْره لِيُنقذ الإنسان، خاصِيّه وعامِيّه، من سلطان فكر فلسفي أضر بوجوده في هذا العالم؛ ومن كان هذا عمله، فما أجدر به أن يُعدَّ في حكماء العالم الذين رفعوا همة الإنسان إلى الاضطلاع بأمور روحه كاضطلاعه بأمور جسمه، ومهدوا الطريق إلى تجديده، **فاستوى إنسانا آخر في عالم آخر**.

* * *

الهوامش:

[1] كلية الآداب – جامعة محمد الخامس – المغرب.

[2] الشاهد على أن بديع الزمان يميل إلى مثل هذا التخصيص تقييده في أكثر من موضع اسم "الفلسفة" بوصف "البشرية" كما في قوله: "إن سعيدا القديم والمفكرين قد ارتضوا بقسم من دساتير الفلسفة البشرية"، المكتوبات، ص. ٥٦٩؛ وأيضا حِرصُه على الإشارة إلى أن إطلاق لفظ "الحكمة" على الفلسفة هو من عمل غيره أي الفلاسفة كما جاء ذلك في قوله: "أما ما يسمونه بعلم الحكمة، وهي الفلسفة، فقد غرقت في تزيينات حروف الموجودات وظلت مبهوتة أمام علاقات بعضها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقة"، الكلمات، ص. ١٤٣؛ مما يشعر بأن ورود هذا الإطلاق في نصوصه هو من باب التساهل في الاستعمال ومجاراة الغير، لا من باب صحة هذا الاستعمال أو الاقتناع به؛ (نشير هنا إلى أن تسويد الكلمات في النصوص المنقولة هو من فعلنا).

[3] "نيقولاوس كوبيرنيك" فلكي بولوني (١٤٧٣–١٥٤٣)، اشتهر ببرهنته على دوران الأرض على نفسها وحول الشمس، مبطلا بذلك الرأي القديم الذي يجعل الأرض ثابتة والشمس دائبة الدوران حولها.

[4] "إيمانوئيل كانط" فيلسوف ألماني (١٧٢٤–١٨٠٤)، أثبت دور الذات الفاعل في تشكيل المعرفة الإنسانية، مفندا بذلك النظرية القديمة التي تجعل للموضوع الدور الفاعل في تشكيل هذه المعرفة.

[5] يقول: "كان سعيد القديم قبل حوالي خمسين سنة لزيادة اشتغاله بالعلوم العقلية والفلسفية يتحرى مسلكا ومدخلا للوصول إلى حقيقة الحقائق، داخلا في عداد الجامعين بين الطريقة والحقيقة"، ص. المثنوي العربي النوري، ٢٩؛ انظر أيضا المكتوبات، ص. ٥٦٩–٥٧٠.

[6] الملاحظ أن بديع الزمان لا يذكر الكندي كما يبدو أنه لم يذكر فيلسوف المغرب ابن رشد إلا قليلا جدا، قد لا يتعدى ذلك المرتين: المكتوبات، ص. ٢٤٩؛ وأيضا الشعاعات، ص. ٦٦٣.

[7] يقول: "لما كان اشتغال سعيد القديم بعلمي الحكمة [أي الفلسفة] والحقيقة [أي التصوف] ويناظر عظماء العلماء ويناقشهم في أدق المسائل وأعمقها [...]، قد لا يُدرَك قسم منها [أي من ترقياته الفكرية وفيوضاته القلبية] بعد جهد جهيد إلا الراسخون في العلم"، المثنوي العربي النوري، ص. ٣٢

[8] إشارات الإعجاز، ص. ٢٣–٣٣.

[9] يعتبر بديع الزمان هذه الولادة الجديدة بمثابة تجل لاسم "الحكيم" من أسماء الله عليه، إذ يقول: "كذلك أخوكم هذا الذي لا يُعد شيئا يذكر، وهو لا شيء، قد وُهب له وضع يجعله يحظى باسم الله 'الرحيم' واسم الله 'الحكيم' من الأسماء الحسنى [...]؛ فجميع "الكلمات" إنما هي جلوات تلك الحظوة؛ نرجو من الله تعالى أن تكون نائلة لمضمون الآية الكريمة ﴿ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾"، المكتوبات، ص. ٢٣–٢٤؛ كما أنه يؤرخ لهذه الولادة برؤيا صادقة رآها قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، قائلا: "رأيت نفسي تحت جبل آرات، وإذا بالجبل ينفلق انفلاقا هائلا فيقذف صخورا عظيمة كالجبال إلى أنحاء الأرض كافة، وأنا في هذه الرهبة التي غشيتني رأيت والدتي رحمة الله عليها بقربي، قلت لها: "لا تخافي يا أماه! إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه حكيم"، نفس المصدر، ص. ٤٧٥؛ وفي كلامه عن "التجلي" و"الجبل" إشارة خفية إلى قصة موسى عليه السلام، إذ سأل ربَّه الرؤية القدسية، فتجلى ربه للجبل وجعله دكا وخر موسى صعقا، القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

[10] اللمعات، ص. ٣٦٧–٣٦٨؛ ويقول أيضا في موضع سابق: "فما كان من 'سعيد الجديد' إلا القيام بتمخيض

فكره والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفيهة''، نفس المصدر، ص. ١٧٦.

[11] جاء هذا الوصف في قوله: ''وشاهدت السُّنن كالحبال المتدلية من السماء، من استمسك ولو بجزئي استصعد واستسعد، ورأيت من خالفها واعتمد على العقل الدائر بين الناس كمن يريد أن يبلغ أسباب السماوات بالوسائل الأرضية فيتحمق كما تحمق فرعون بـ﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾''، المثنوي العربي النوري، ص. ١٦٥.

[12] إذ يقول: ''من الأصول المقررة أنه إذا تعارض العقل والنقل، يُعد العقل أصلا ويؤوَّل النقل، ولكن ينبغي لذلك أن يكون عقلا حقا''، صيقل الإسلام، ص. ٢٩؛ ويقول أيضا في موضع آخر: ''إذا تعارض العقل والنقل، يكون الاعتبار للعقل والتأويل للفكر، لكن يجب أن يكون هذا العقل عقلا''.

[13] يقول: ''اعلم أيها المتفلسف المرجح للعقل على النقل، فتؤول النقل، بل تحرف؛ إذ لم يسعه عقلك المتفسخ بالغرور والتغلغل في الفلسفيات'' [...]؛ فعقلك عقالك وبالنقل نقلتك''، المثنوي العربي النوري، ص. ١٩٠.

[14] يقول: ''ولهذا، لا يتمكنون من إعطاء الصورة الحقيقية للإسلام على تلك الصورة من العمل، إذ يطعمون شجرة الإسلام بأغصان الحكمة التي يظنونها عميقة الجذور، وكأنهم بهذا يقوون الإسلام؛ ولكن لما كان الظهور على الأعداء بهذا النمط من العمل قليل، ولأن فيه شيئا من التهوين لشأن الإسلام، فقد تركت ذلك المسلك وأظهرت فعلا أن أسس الإسلام عريقة وغائرة إلى درجة لا تبلغها أبدا أعمق أسس الفلسفة، بل تظل سطحية تجاهها...''، المكتوبات، ص. ٥٦٩–٥٧٠؛ ويقول أيضا: ''فلا تجعل مقاييس العلوم الإنسانية محكا لحقائقهما [أي القرآن والمنزل عليه القرآن]، ولا تزنهما بميزانها [...]؛ ولا تطلب تزكيتهما بها بجعل دساتيرها الأرضية مصداقا على تلك النواميس السماوية. ''، المثنوي العربي النوري، ص. ٣٤٨.

[15] صيقل الإسلام، ص. ٣٥–٣٦.

[16] يقول: ''فما أجهل من اغتر بالفنون الفلسفية وصيرها محكا لمباحث القرآن القدسية! ''، المثنوي العربي النوري: ص. ٧٧؛ ويقول في موضع آخر: ''قد شاهدت ازدياد العلم الفلسفي في ازدياد المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي؛ فالأمراض المعنوية توصل إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولد أمراضا قلبية''، نفس المصدر، ص. ١٥٨.

[17] انظر كيف أن لِرمز ''الكهف'' عند بديع الزمان الحكيم مدلولا هو عكس مدلول ''المغارة'' عند ''أفلاطون'' ومدلول ''القبو'' عند ''ديكارت''؛ فالنازل في المغارة عند ''أفلاطون'' هو الإنسان الجاهل الذي لا يعرف من الأشياء إلا ظلالها في مقابل الفيلسوف الذي يعرف أعيان الأشياء ذاتها (محاورة الجمهورية، الكتاب السابع)، وهو عند ''ديكارت'' الإنسان الأعمى الذي يعيش في الظلام الدامس في مقابل الفيلسوف الذي يعيش في النور الساطع (مقال في المنهج، الجزء السادس)، بينما هو عند بديع الزمان الإنسان الفيلسوف نفسه، هذا الذي يَعده ''أفلاطون'' العارف بحق ويعده ''ديكارت'' البصير بحق.

[18] يقول: ''وهكذا، فالطريق الأول هو طريق الضالين المشار إليه بـ﴿ الضَّالِّين ﴾، وهو مسلك الذين زلوا إلى مفهوم ''الطبيعة'' وتبنوا أفكار الطبيعيين...''، الكلمات، ص. ٦٥٠.

[19] يقول: ''إن تلك الأرض هي ''الطبيعة'' و''الفلسفة الطبيعية''. أما النفق فهو المسلك الذي شقه أهل الفلسفة بأفكارهم لبلوغ الحقيقة؛ أما آثار الأقدام التي رأيتها فهي لمشاهير الفلاسفة كأفلاطون وأرسطو؛ وما سمعته من أصوات هو أصوات الدهاة كابن سينا والفارابي... نعم كنت أجد أقوالا لابن سينا وقوانين له في عدد من الأماكن، ولكن كانت الأصوات تنقطع كليا، بمعنى أنه لم يستطع أن يتقدم، أي أنه اختنق''، الكلمات، ص. ٦٤٨.

[20] إشارات الإعجاز، ص. ٣٦.

[21] يقول: ''إن الفلسفة التي توصَّل إليها الإنسان تحجب معجزات القدرة الإلهية وخوارق رحمته تعالى بستار العادات، فلا ترى دلائل الوحدانية المضمرة تحت تلك العاديات وتلك النعم الجليلة، ولا تبينها ولا تدل عليها، بينما إذا ما رأت ما هو خارج عن العادة من جزئيات خاصة، تتوجه إليه وتهتم به''، الملاحق، ٣٥٨.

[22] يقول: ''أما حكمة الفلسفة، فهي تخفي جميع معجزات القدرة الإلهية وتسترها تحت غطاء الألفة والعادة''، الكلمات، ص. ١٥٠.

[23] يقول: ''إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر، فإنه يصبح آلة تعذيب ووسيلة إزعاج، بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة''، الشعاعات، ص. ١٩.

[24] يقول: ''إن الفرق بين طريقي في ''قطرة'' المستفادة من القرآن وطريق أهل النظر والفلاسفة هو أني أحفر أينما كنت، فيخرج الماء وهم تشبّثوا بوضع ميازيب وأنابيب لمجيء الماء من طرف العالم ويُسلسلون سلاسل وسلالم إلى ما فوق العرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب شياطين الأوهام''، المثنوي العربي النوري، ص. ١٧٠.

[25] يقول: ''وبسر التوحيد [...]، ينكشف السر المغلق للأسئلة المحيرة: من أين يأتي سيل الموجودات وقافلة المخلوقات؟ وإلى أين المصير؟ ولم جاء؟ وماذا يعمل؟ ...''، الشعاعات، ص. ١٤.

[26] ''فلولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات وأدنى الموجودات وأضعف الحيوانات وأشد ذوي المشاعر حزنا وأكثرهم عذابا وألما. ''، الشعاعات، ص. ١٨.

[27] يقول: ''فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل الموجودات حروفا، أي أنها تعبر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية في الموجودات؛ أما نظرة الفلسفة المادية الميتة تنظر في الأغلب بالنظر الاسمي إلى الموجودات، فتزل قدمها إلى مستنقع الطبيعة. ''، الملاحق، ص. ٩٠.

[28] ''أما الفلسفة، فإنما تنظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى أنفسها وأسبابها''، المثنوي العربي النوري، ص. ٧٧.

[29] الكلمات، ص. ٦٤٦.

[30] ''إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا 'أنا'، فهو يجوب بهم في وديان الضلالة؛ فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك 'أنا'، وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم 'أنا'، فعليهم تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم أنهم مثلهم يعبدون النفس''، المكتوبات، ص. ٥٤٩.

[31] ''والطريق الثاني المشار إليه بـ﴿المَغْضُوب عَلَيْهِمْ﴾، فهو مسلك عبدة الأسباب والذين يحيلون الخلق والإيجاد إلى الوسائط ويسندون إليها التأثير، ويريدون بلوغ حقيقة الحقائق ومعرفة الله جل جلاله عن طريق العقل والفكر وحده كالحكماء المشائين''، الكلمات، ص. ٦٥٠.

[32] وذلك مصداقا للآية الكريمة: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجّيك بِبَدَنِكَ لِتَكون لِمَنْ خَلْفَك آيَةً. وَإِنَّ كثِيرًا مِنَ النّاس عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُون﴾، سورة يونس، الآية ٢٩.

[33] تحاشى بديع الزمان أن يذكر ابن رشد باسمه على خلاف ما فعل مع الفارابي وابن سينا ولكنّه نبّه عليه بالصفة التي اشتهر بها، وهي ''المشائي''، إذ هو شارح ''أرسطو'' الأكبر؛ ولا نريد أن نخوض هنا في الأسباب التي تكون قد دعته إلى هذا التكتم، وإنما يكفي أن نقول بأنه يجوز أن يفعل ذلك، إشفاقا عليه ورفقا بأتباعه المعاصرين.

[34] إشارات الإعجاز، ص. ٣٦.

[35] يقول: ''القرآن المبين أسمى وأغنى من أن يفتقر إلى تزكية العقل والنقل اللذين ألقيا إليه المقاليد، لأنه إن لم يزكهما، فشهادتهما لا تُسمَع''، صيقل الإسلام، ص. ٣٦.

[36] يقول: ''فمتى استجارت الفلسفة بالدين وانقادت إليه وأصبحت في طاعته، انتعشت الإنسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة؛ ومتى انفرجت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة''، الكلمات، ص. ٦٣٩.

[37] لِتلاحظ أن الفصل الاستتباعي بين الحكمة والفلسفة، لما كان فصلا في الدرجة فحسب، جاز أن تجتمع فيه الحكمة والفلسفة اجتماع التابع مع المتبوع، بحيث يكون وضعه المنطقي أشبه بوضع ما يُسمى ب''رابط الفصل الجامع''، وهو الفصل الذي يمكن أن يصدق فيه الطرفان المفصولان معا؛ ولا ينفع الاعتراض بأنه نوع من الوصل التداخلي، ذلك لأنه لا يشارك هذا الوصل إلا في هذه الحال من حالات الصدق، ويختلف عنه في إمكان أن يصدق بصدق أحد المفصولين دون الآخر، أو قل بإيجاز إن الجمع الذي يكون مع تخيير ليس كالجمع الذي لا تخيير معه.

[38] يرى بديع الزمان أن الفلسفة الحديثة أقل ضررا من الفلسفة القديمة، لأنها أكثر منها أخذا بأسباب العقل والنقد والعلم؛ انظر صيقل الإسلام، ص. ٤١ وأيضا ص. ٣٥–٣٦.

[39] الملاحق، ص. ٢٨٦–٢٨٧.

[40] المكتوبات، ص. ٤٧٥؛ وأيضا الملاحق، ص. ١٨٣.

[41] إشارات الإعجاز، ص. ٢٤؛ صيقل الإسلام، ص. ١٢٠.

[42] صيقل الإسلام، ص. ٢٩؛ وأيضا، إشارات الإعجاز، ص. ٢٣.

[43] نفس المصدر، ص. ٣٢٠.

[44] صيقل الإسلام، ص. ٥٩.

[45] المكتوبات، ص. ٣٧٦.

[46] يقول: ''ولقد أكثر القرآن الكريم من التمثيلات إلى أن بلغت الألف، لأن في التمثيل سرا لطيفا وحكمة عالية، إذ به يصير الوهم مغلوبا للعقل والخيال مجبورا للانقياد للفكر.. . ''، إشارات الإعجاز، ص. ١١٣.

[47] نفس المصدر، ص. ١٢٦.

[48] الكلمات، ص. ٧٣٥–٧٣٦.

[49] معلوم أن فقهاء العلم اختلفوا كثيرا في تحديد البنية المنطقية لقياس التمثيل، فبعضهم جعلها بنية مستقلة وبعضهم جعلها أشبه ببنية الاستقراء في حين جعلها غيرهم أشبه ببنية الاستنباط، ورأينا أنها بنية كبرى مركبة من بنيتين فرعيتين: بنية استقرائية وبنية استنباطية، انظر التفاصيل في كتابنا: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص. ٦٥–٦٦.

[50] لِتلاحظ أن الوضع المنطقي للفصل الاستبدالي أشبه بوضع ما يُسمى ب''رابط الفصل المانع'' (أو ''الفصل الاستبعادي'')، ومعلوم أن هذا الرابط لا يصدق إلا بصدق أحد المفصولين دون الآخر.

ملف العدد

منهج النورسي في إحصاء أسماء اللّه الحسنى

د. عبد الكريم عكيوي[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين، وعلى آله وأزواجه وذريته وأهل بيته، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن الأسماء الحسنى ثابتة لله تعالى قطعا، وذلك بنص القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد جعل الله تعالى معرفة أسمائه طريقا إلى معرفته، لأن معرفة الله بحقيقة ذاته متعذر في الحياة الدنيا لأن رؤية ذاته تعالى هي الجزاء الأوفى الذي أعده لمن فاز برضوانه، فرؤية وجه الله تعالى تحصل به لأهل الجنة قمة السعادة وغاية اللذة وتمام النعمة، فلا يناسب الدنيا التي هي دار اختبار وتكليف. ثم لأن الإنسان على ظهر الأرض موسوم بالعجز والضعف بحكم قيد الزمان والمكان، فلا تقع رؤيته إلا على ما يحويه المكان ويجري عليه الزمان، والله تعالى فوق الزمان والمكان، فكيف يحويه المكان وهو الذي خلق المكان، وكيف يجري عليه الزمان وهو الذي خلق الزمان. ثم إن الله تعالى قد احتجب عن الظهور للأبصار في الدنيا من فرط ظهوره وشدة نوره، فهو الظاهر بآياته وآثاره الباطن من شدة ظهوره وإشراق نوره. ولهذا لم يبق في قدرة المُكَلَّفين من طريق لمعرفة ربهم تعالى إلا بأسمائه وصفاته وأفعاله وتصرفاته التي تجري عليهم. فأنزل تعالى أسماء في كتابه، وذكره بها رسوله ﷺ، ونصب في الكون علامات تعرف بها وتفهم معانيها، وأمر بمعرفته من خلال أسمائه الدالة على أفعاله وتصرفاته.

و أصح ما ورد في السنة النبوية في إثبات أسماء الله تعالى الحسنى والأمر بمعرفتها ما اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "**إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة**."[2] وعند

البخاري أيضا بلفظ: ''**لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**''. وعند مسلم بلفظ: ''**من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر**.'' ولم يقع في شيء من طرقه سرد الأسماء التسعة والتسعين إلا في رواية عند الترمذي والراجح أنه إدراج من بعض الرواة اجتهادا منهم، وليس مما رفع من الحديث. ومعنى هذا أن معرفة أسماء الله الحسنى على جهة الإجمال واجب على كل مكلف، وأما معرفتها على جهة التفصيل فإنه مجال مفتوح للنظر كل بحسبه.

ولهذا ألف علماء الإسلام في بيان أسماء الله الحسنى وبيان معانيها، فاتفقوا في كثير منها واختلفوا في بعضها، واختلفوا أيضا في طريقة إحصائها ومنهج ذلك بحسب فهمهم لقول الرسول ﷺ: ''من أحصاها'' أو ''حفظها''. ويعتبر النورسي أبرز من اعتنى بأسماء الله الحسنى في العصر الحاضر. فهو، وإن لم يخص الأسماء الحسنى بتأليف مستقل متمحض لها، فقد قصد إلى إحصائها وتتبعها وبيان معانيها وآثارها وفوائد الإيمان بها مما يتم به إحصاؤها عنده رحمه الله، وفرق ذلك في رسائل النور. ومنطلق النورسي - كغيره من علماء الإسلام - هو ما ورد في القرآن الكريم من إثبات الأسماء الحسنى إجمالا مع بيان بعضها، ثم الحديث النبوي في الترغيب في إحصائها مع ما ورد في السنة من أسماء الله مثل ''الجميل'' ثم الاستئناس بما قاله علماء الإسلام المتقدمون خاصة أبو حامد الغزالي. وقد كان النورسي منهجيا في ذلك كله فلم يعتمد كليا على عالم أو كتاب وإنما اختط لنفسه منهجا خاصا سار عليه وبقي ملازما له ولم يتخلف عنه رحمه الله. وإن معالم هذا المنهج – وإن كان النورسي لم يفصح عنها صراحة في شكلها النظري ـ فإنها تستخرج بالتأمل والتتبع والاستقراء العلمي لرسائل النور.

وأول ما ينبغي تقريره هنا أن إحصاء أسماء الله الحسنى عند النورسي يمثّل مشروع الحياة وقضية من قضاياها الكبرى، يلازم العبد من يوم بلوغه التكليف إلى أن يبلغ غاية أمره في دار المقام حيث النعيم الغامر والسعادة الكاملة، حيث يتحقق يقينا فائدة هذا الإحصاء وغايته المرجوة. إن عملا يترتب عليه دخول الجنة، لا يمكن أن يناله العبد بعمل لحظة أو لحظات. إن إحصاء أسماء الله الحسنى مسلك للرقي في سلّم القُرْبى، وطريق للسمو في مراتب العرفان في كل لحظة من لحظات الحياة على ظهر الأرض، وفي كل ما يحف بالمكلف من الحوادث وأحوال الحياة وتقلبات الزمان.

وقبل التفصيل في منهج النورسي أرى من المناسب ذكر خلاصة جامعة لما قاله

علماء الإسلام في معنى إحصاء الأسماء الحسنى. وجماع ذلك على جهة الإجمال أن قوله ﷺ: ''من أحصاها'' أو ''من حفظها'' يتحقق على الخطوات الآتية:

١ – تتبعها من القرآن الكريم والسنة النبوية واستخراجها منهما مع عدها حتى تستوفى كاملة.

٢ – الإحاطة بمعانيها مع اعتقادها والإيمان بها. وذلك يحصل بمداومة التفكر في مدلولها، واستحضار معانيها في القلب بعد ضبطها بالعقل.

٣ – أداء حقها والعمل بها. فله أسماء ينبغي الاقتداء بها في معانيها كالرحيم والكريم والعدل ونحوها، فينبغي للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل، فبهذا يحصل الإحصاء العملي. وأما الإحصاء القولي فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها. وقيل حسن المراعاة لها والمحافظة على حدودها في معاملة الرب بها.[3]

٤ – ثم تأتي بعد هذا كله الغاية المرجوة والفائدة المقصودة وهي العيش في كنف هذه الأسماء من خلال رؤية جمالها في الكون، واكتشاف تجلياتها في الوجود، ونسبة كل أحوال الكون إليها، ورد كل حدث إلى الاسم الذي نتج عنه. وهذا ما عبر عنه أبو عمر الطلمنكي بقوله: ''من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته.. المعرفة بالأسماء والصفات وما تتضمن من الفوائد وتدل عليه من الحقائق.''[4] وحكى الحافظ ابن حجر هذه المرتبة وهي المسماة ''الإحصاء النظري'' وهو أن يعلم معنى كل اسم بالنظر في الصيغة ويستدل عليه بأثره الساري في الوجود، فلا تمر على موجود إلا ويظهر لك فيه معنى من معاني الأسماء وتعرف خواص بعضها وموقع القيد ومقتضى كل اسم. قالوا: وهذا أعلى مراتب الإحصاء.

وكل هذه الخطوات حاضرة عند النورسي، إلا أنه قصد خاصة إلى الغاية المرجوة، التي هي أرفع مراتب الإحصاء، وهي تتبع آثار الأسماء الحسنى في الكون والوجود في كل لحظة من لحظاته، ثم توطين النفس والقلب والعقل على العيش في كنفها، والتخلق بمقتضياتها حتى يتجلى الحظ البشري منها في الحياة كما تظهر تجلياتها في الوجود. أي إن إحصاء أسماء الله الحسنى عقيدة تفهم بالعقل، وترسخ في القلب، وتجري آثارها على الأعمال والتصرفات، وتتحقق بها سعادة المكلف في الحياة لما يشاهد بعين القلب والوجدان من إشراقاتها الجميلة في حياته في ما يحيط به من الموجودات والعوالم. إن حقيقة الحياة والكون وسر مسيرة الإنسان إنما يحصل

بالتحقق بأسماء الله الحسنى. فإحصاؤها إذن ليس في الوقوف عند الدراسة العلمية لها والشروح اللغوية والتعاريف النظرية، إنما هو استمتاع بالتأمل في آثارها، وارتشاف لذة جمالها المبثوث في الكون في كل لحظة، والاندماج الروحي والمعنوي في الحوادث التي تنزل بالمكلف ليرتشف من بين أستارها لمعات جمال اسم الله تعالى الذي تجلى به من خلال هذا الحادث أو ذاك.

هذا منهج النورسي على جهة الإجمال، ونأتي الآن إلى تفصيله، مع معالم أخرى منهجية تميز بها ومسالك ينص عليها ويعيد التأكيد والتنصيص.

الكون دليل قاطع على أسماء الله الحسنى، وقرآن مشاهد بدليل الوحي والعقل، والحس والكشف ومقتضى الإيمان:

إن المقصد الأسنى والمعنى الحقيقي الأسمى لإحصاء أسماء الله الحسنى عند النورسي، هو مشاهدة أنوار تجليات تلك الأسماء في الكون كله، فتكون الموجودات والحوادث كلها، عند المكلف، مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى، فيمارس تفاعلا ذوقيا وفكريا مع الكون من حوله من خلال عملية الاستكشاف المتواصلة في كل لحظة لأنوار الأسماء وما يترتب عنها من آثار وتصرفات. ومعنى هذا أن القرآن الكريم والسنة النبوية إنما هما مصدران للتنبيه إلى منهج إحصاء الأسماء الحسنى، وليس الغرض حصرها ومنع الاهتداء إلى غير ما ذكر فيهما من الأسماء. ومما يدل على ذلك أيضا أن أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ذكرها الرسول ﷺ على جهة الإجمال ليحث على البحث عنها والاجتهاد في طلبها. وعلى هذا فإن ما ورد في القرآن الكريم والسنة والنبوية من الأسماء الحسنى وجب معرفته وإحصاؤه قطعا، لأنهما مصدران يتلقى منهما أمر الله تعالى وشرعه. ثم يأتي الكون ليتبوأ المنزلة الثالثة في المصادر المعتمدة في معرفة الأسماء الحسنى، في ضوء معاني الوحي وتحت أصول الشريعة وقواعدها وكلياتها.

فما أفصح عنه الكون بلسان حاله من الأسماء، من خلال الآثار والأفعال الجارية فيه، فهو معتبر مثل ما يعتبر ما أفصح عنه القرآن الكريم والسنة النبوية. فالذي أنزل القرآن وتكلم به هو الذي خلق الكون وجعله ينطق بلسان حاله، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، الإسراء:٤٤ ومعنى هذا أن الكون يعرف بأسماء الله الحسنى ويدل عليها، بل ينطق بها بلسان الحال.

ولا يخفى على النورسي أنّ هذا المسلك قد يثير اعتراض الكثير من أصحاب

مسلك الظاهر فراح يقدم الأدلة على حجية الكون في التعريف بالأسماء الحسنى. والتمس لذلك خمسة أدلة وهي: الوحي، والعقل، والحس، والذوق، ومقتضى الإيمان.

– **دليل الوحي** ومعناه أن الكون إنما اكتسب حجيته القاطعة من دلالة القرآن الكريم القطعية عليه، فهو في الحقيقة دليل قرآني، لأن القرآن الكريم حافل بالأمر، صراحة وضمنا، بالتدبر في الكون والتفكر في الوجود. ولو لم يكن الكون موضع حجة وموطن عبرة ومجال علم ومعرفة، لما أمر الله تعالى بذلك. ولهذا فالآيات القرآنية في موضوع الكون وفائدة النظر فيه والتدبر في أحواله والتفكر في خصائصه، حاضرة عند النورسي في رسائله.

ثم إن تجلي الأسماء في الكون واستخلاصها من الوجود منهج معتبر في القرآن الكريم. فواضح مثلا من قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾،[الروم:٥٠] وغيرها من الآيات في توجيه النظر إلى حركة التجدد في الموجودات، إن القصد هو إيقاف المكلف على عملية الإحياء والإماتة الجارية في الكون من أجل الاهتداء إلى اسم ''المحيي'' واسم ''المميت''. وهذا ما عبر عنه النورسي بقوله: ''إن القرآن الكريم – ببياناته المعجزة – يبسط أفعال الصانع الجليل ويفرش آثاره أمام النظر، ثم يستخرج من تلك الأفعال والآثار، الأسماء الإلهية.. ثم مَثَّلَ بقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.[البقرة:٢٩] ثم قال: يعرض القرآن الآثار الإلهية العظيمة التي تدل بغاياتها ونظمها على علم الله وقدرته، يذكرها مقدّمة لنتيجة مهمة وقصد جليل ثم يستخرج اسم الله ''العليم''.. إن القرآن الكريم ينشر منسوجات الصنعة الإلهية ويعرضها على نُظَّار البشر ثم يلفّها ويطويها في الخلاصة ضمن الأسماء الإلهية، أو يحيلها إلى العقل.''[5] ومعنى يحيلها إلى العقل يَكِلُ مهمة اكتشافها واستخلاصها إليه.

وكذلك الإشارات المتجددة في القرآن الكريم إلى الخلاقية الإلهية والفعالية الربانية في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.[الرحمن:٢٩] وقوله عز وجل: ﴿فَعَّال لِمَا يُرِيدُ﴾.[البروج:١٦] وقوله عزّ من قائل: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاء﴾.[الروم:٥٤] وغيرها، إنما هي أمر ضمني بمعرفة آثار هذه الفعالية ولفت الأنظار إلى الأسماء الحسنى المقتضية لها.[6] فعلى هذا يعتبر النورسي التماس تجليات أسماء الله الحسنى في الكون مما أمر الله عز وجل به وحث عليه وضرب الأمثلة له للقياس عليها والاقتداء.

– **دليل العقل** وهو ما يدركه العقل من **التجليات الظاهرة لأسماء الله الحسنى،** حتى إن أحدا من العقلاء لا يمكنه تجاهلها. وبسبب شدّة ظهور هذه التجليات في الطبيعة أسند أهل الفلسفة المادية الفعل والقوة والخلق للطبيعة نفسها فعرفوا التجلي وتجاهلوا مصدره، فتوهموا أن تجلياته سبحانه المتجلية في صفحات الكون وطبقات الموجودات هي الذات الخلاقة، ففوض قسم من هؤلاء بعض آثار تجلياته سبحانه إلى الطبيعة. ولولا معقولية هذه التجليات ما أدركها هؤلاء، لكنهم وقفوا عند الآثار فجعلوها خلاقة، فهم ''يشعرون بالتجلي الأعظم للخلاقية الإلهية والقدرة الربانية، ولكنهم يجهلون مصدر ذلك التجلي، ويعجزون عن أن يدركوا من أين تُدار تلك القوة العامة النابعة من تجلي القدرة الصمدانية.. فلأنهم يجهلون كل ذلك فقد شرعوا بإسناد آثار الألوهية إلى الذرات نفسها والى حركاتها عينها، فتوهموا أزلية المادة والقوة.''[7] وإدراك الأثر والتجلي بالعقل يقتضي أيضا الأفعال التي تنتج عنها الآثار، والأفعال تقتضي العناوين المعبرة عنها، والعناوين تقتضي الأسماء المفصحة عنها.

ومن مقتضيات دليل العقل أيضا ما يتهيأ للإنسان عبر الزمان من معارف الحياة، وما يتراكم من العلوم الكونية بتراكم الخبرة بمقتضى قوانين العقل. فعلوم الكون كلها – في جوهرها – إنما هي نظر وبحث في الإنسان والكون ونظر في الآفاق بمطالعة كتاب الكون الجميل لاكتشاف خصائصه وصفاته وقوانينه التي هي تسبيحاته. فهذه العلوم، على اختلافها وتنوعها بتنوع مجالاتها من الكون، بمنزلة لغات مختلفة وألسنة متنوعة، تعبر عن معنى واحد هو جمال الله وجلاله، وتفصح عن آثار أفعاله، فهي بذلك تعرف بأسمائه. ''إن لكل كمال، ولكل علم، ولكل تقدم، ولكل فن – أياً كان – حقيقة سامية عالية. وتلك الحقيقة تستند إلى اسم من الأسماء الحسنى.. فالهندسة – مثلاً – علم من العلوم، وحقيقتُها وغاية مُنتهاها هي الوصول إلى اسم (العدل والمقدِّر) من الأسماء الحسنى، وبلوغ مشاهدة التجليات الحكيمة لذلك الاسم بكل عظمتها وهيبتها في مرآة علم (الهندسة).

و الطب – مثلاً – علم ومهارة ومهنة في الوقت نفسه، فمنتهاه وحقيقته يستند أيضاً إلى اسم من الأسماء الحسنى وهو (الشافي)..''[8] وهكذا ''كل علم من العلوم يستند إلى اسم من الأسماء الحسنى وينتهي إليه''[9] لأنه يترجم بلسانه الخاص تسبيحات الموجودات التي هي إعلانات عن اسم أو عدة أسماء.

فالعقل إذن يقضي أن الكون مصدر مُظهِر لمعرفة الأسماء الحسنى من خلال تجلياتها وآثارها.

– **دليل الحس**: فما دام الكون موجوداً بالفعل ولا يمكن إنكاره، فلا يمكن أن يُنكَر كذلك ما هو بمثابة ألوانِه وزينته، وضيائه وإتقانه، وأنواع حياته، وأشكال روابطه من الحقائق المشهودة، كالحكمة، والعناية، والرحمة، والجمال، والنظام، والميزان، والزينة، وأمثالها من الحقائق.. فمادام لا يمكن إنكار هذه الصفات والأفعال، فلا يمكن إنكار موصوف تلك الصفات، ولا يمكن إنكار فاعل تلك الأفعال.. الذي هو الحكيم، الرحيم، الجميل، الحكم، العدل.''[10] فالكون مقطوع بوجوده، والأفعال والتصرفات التي يدبر بها ظاهرة، فكذلك الأسماء ظاهرة متجلية. وإن هذه الحقيقة من الظهور عند النورسي حتى إنه لا يملّ من تقريرها وإعادتها بصيغ متنوعة، حتى جعل الكون بمنزلة كتاب معروض للمشاهدة مثل عرض القرآن الكريم للتلاوة. وكل جزء من الكون بمنزلة كلمة تفصح عن اسم أو أسماء من أسماء الله الحسنى. يقول رحمه الله: ''هذا الكون بمثابة كتاب عظيم كُتبتْ في كل صحيفة من صحائفه مئات الكتب، وأدرجت في كل سطر منه مئات الصفحات، وخُطَّتْ في كل كلمة منه مئات الأسطر، وتُقرأ تحت كل حرف فيه مئات الكلمات، وحُفِظَ في كل نقطة من نقاطه فهرسٌ مختصر صغير يلخص محتويات الكتاب كله.. فهذا الكتاب بصفحاته وأسطره بل بنقاطه يدل دلالة واضحة ساطعة – بمئات الأوجه – على مصوِّرِه وكاتبه، حتى أن مشاهدة الكتاب الكوني العظيم هذا وحدها كافية للدلالة على وجود كاتبه، بل تسوقنا إلى معرفة وجوده ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه أضعافاً مضاعفة.''[11] ويقول أيضا: ''نعم، إن كل آية كونية من آيات قرآن الكون العظيم المنظور، تَعْرِض للأنظار معجزاتٍ نيّرات هي بعدد نقاطها وحروفها.''[12] فالكون إذن يدل على أسماء الله الحسنى مثل دلالة الضوء على الشمس، فالاسم الواحد يتجلى من خلال ما لا يعد من الأفعال والتصرفات، ويشاهد في آفاق الكون كله وليس في جزء واحد. ''إن كل شيء في الوجود بمثابة آية جليلة، ومكتوب رباني، وكتاب بليغ، وقصيدة رائعة، يستطيع كلُّ ذي شعور أن يطالعها ويتعرّف من خلالها على تجلّى أسماء الفاطر الجليل. أي إن كل شيء يعبّر عن معانيه الغزيرة لقرائه الذين لا يحصيهم العد.''[13] وبناء على دليل الحس هذا يقرر النورسي أن الحواس والجوارح والغرائز إنما خلقها الله عز وجل ووهبها للإنسان لتكون أداة للتواصل مع الكون فيحس، ويلمس، ويذوق،

ويسمع، ويشاهد بقصد إدراك التجليات ومعرفة الأسماء المقتضية لها. وهذا واضح من قوله: ''إن الله سبحانه وتعالى، بألوهيته الجليلة، ورحمته الجميلة، وربوبيته الكبيرة، ورأفته الكريمة، وقدرته العظيمة، وحكمته اللطيفة، قد زيّن هذا الإنسان الصغير بحواسَ ومشاعر كثيرة جداً، وجمّله بجوارح وأجهزة وأعضاء مختلفة عديدة؛ ليُشعره طبقات رحمته الواسعة، ويذيقه أنواع آلائه التي لا تعد، ويعرّفه أقسام إحساناته التي لا تحصى، ويُطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلياته التي لا تُحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها.''[14]

– **دليل مقتضى الإيمان** ومعناه أن من لوازم أركان الإيمان أن الحياة الدنيا ليست إلاّ صحائف متجددة بتجدد الأفعال والتصرفات التي تعبر عنها الأسماء. يقول رحمه الله: ''ثم إن الإيمان أراني بفضل أسرار القرآن الكريم أن أحوال الدنيا وأوضاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدحرج هكذا في غياهب العدم – كما ظنّ في بادئ الأمر – بل إنها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للأسماء السبحانية قد أتمّت مهامها، وأفادت معانيها، وأخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الإيمان بذلك ماهية الدنيا علم اليقين.''[15] ومن ذلك أيضا تمييزه بين أوجه ثلاثة للدنيا متداخلة. وجه الدنيا المتوجهة إلى الأسماء الإلهية الحسنى، فهي مرآة لها، ووجه الدنيا المتوجهة نحو الآخرة، فهي مزرعتها، ووجه الدنيا المتوجهة إلى أرباب الدنيا وأهل الضلالة، فهي لعبة أهل الغفلة ولهوهم. وإنما مدح الله منها الوجه الأول والثاني فدلَّ على أنه جعلها مرآة لأسمائه، فهي بذلك ''كتاب مفتوح يتجدد للباري المصور، فيمحو فيه ما يشاء ويثبته بحكمة. وكل ربيع فيها رسالة مرصعة مذهّبة، وكل صيف فيها قصيدة منظومة رائعة، وهي مرايا تتجدد مظهرة تجليات الأسماء الحسنى للصانع الجليل.''[16] ويتفرع عن الإيمان دليل الكشف والذوق.

– **دليل الكشف والذوق،** ومعناه أن تمكن الإيمان في القلب ورقي صاحبه في مدارج السلوك يفتح نوافذ الإشراق، فيطل السالك على الكون، فلا يحس سوى بوجدان واحد وهو أن الكون مرآة لتمام الجلال وكمال الجمال. وفي هذا يقرر النورسي أن أئمة أهل الحقيقة كلهم – مع الاختلاف في مشاربهم والبعد في مسالكهم – يعتقدون مستندين إلى الذوق والكشف ويقررون بالإجماع والاتفاق أن الحسن والجمال الموجود في الموجودات كلها إنما هو ظل جمالٍ مقدس لواجب الوجود

وحسنه المنزّه، ولمعاته من وراء حجب وأستار.[17] فكمال هذه الآثار المشهودة في هذه الكائنات بلا قصور ولا فطور، يشهد بالمشاهدة الحدْسية على كمال أفعالٍ مستترة خلفها، وكمال هذه الأفعال التي هي كالمشهودة، ''يشهد بالبداهة على كمال أسماء ذلك الفاعل؛ وكمال تلك الأسماء، يشهد بالضرورة على كمال الصفات؛ إذ الأسماءُ ناشئة من نِسَب الصفات، وكمالُ الصفات يكشف باليقين عن كمال الشؤون الذاتية التي هي مبادئ الصفات القدسية، وكمالُ الشؤون يشهد بحق اليقين على كمال الذات بما يليق بجنابه سبحانه.''[18]

وعن هذا المعنى أيضا عبّر ابن عطاء الله السكندري في حكمه بقوله: ''دَلَّ بِوجودِ آثَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسمَائِهِ، وَبِوُجُودِ أَسمَائِهِ عَلى ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ، وَبِوُجُودِ أَوْصَافِهِ عَلَى وُجُودِ ذَاتِهِ، إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ الوَصْفُ بِنَفْسِهِ. فَأَهْلُ الجَذْبِ يَكْشِفُ لهمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ صِفَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى التَّعَلُّقِ بِأَسمَائِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ آثَارِهِ. وَالسَّالِكُونَ عَلى عَكْسِ هَذَا، فَبِهَايَةُ السَّالِكِينَ بِدَايَةُ المَجْذُوبِينَ لكِنْ لا بِمَعْنَىً وَاحِدٍ، فَرُبمَّا التَقَيَا في الطَّرِيقِ، هٰذَا فِي تَرَقّيهِ وَهٰذا فِي تَدَلّيهِ.''[19] وقد ميّز هنا بين منهجين عند أهل الكشف وهما طريق التدلي وطريق الترقي، وكلاهما يقرر أن التصرفات الجارية في الكون تعرف بالأسماء الحسنى ببداهة الوجدان الصافي الصادق.

وعبَّر بديع الزمان النورسي عن الترقي والتدلي بالسَيْرِ الأنفسي والسير الآفاقي: ''فالسير الأنفسي يبدأ من النفس ويصرف صاحبُ هذا السير نظرَه عن الخارج ويحدّق في القلب مخترقًا أنانيته. ثم ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلا إلى الحقيقة.. ومن هناك ينفذ إلى الآفاق الكونية فيجدها منوَّرةً بنور قلبه، فيصل سريعًا إلى أن الحقيقة التي شاهدها في دائرة النفس يراها بمقياس أكبر في الآفاق، وأغلب طرق المجاهدة الخفية يسير وفق هذه السبيل. وأهم مقاصد هذا السلوك هو كسْرُ شوكة الأنانية وتحطيمها، وترك الهوى وإماتة النفس.

أما الطريق الثاني فيبدأ من الآفاق ويشاهد صاحبُ هذا النهج تجلياتِ أسماء الله الحسنى وصفاتهِ الجليلة في مظاهر تلك الدائرة الآفاقية الكونية الواسعة، ثم ينفذ إلى دائرة النفس فيرى أنوار تلك التجليات بمقاييس مصغَّرةٍ في آفاق كونه القلبي، فيفتح في هذا القلب أقربَ طريق إليه تعالى، فيصل إلى مقصوده ومنتهى أمله.[20]

ثم يقرر النورسي دليلا آخر، شهوديا ومنطقيا في الوقت نفسه، كلا المسلكين ينتهي إليه، المسلك الأنفسي والآفاقي وهو الحدس القلبي الصادق، والشعور الوجداني القوي، والإدراك العقلي لوجود القصد إلى إشهاد الكمال والتعريف بالجمال فيقول: ''إن الجمال الذي هو في منتهى الكمال لابد أن يَشهَد ويُشهِدَ جمالَه. وإن الكمال الذي هو في منتهى الجمال لابد أن يَشهَد ويُشهِد كمالَه. فبناء على هذا الدستور العام فإن البارئ المصور سبحانه الذي أبدع كتاب الكون العظيم هذا، يعرِّف جمالَ كمالِه ويحبّبه بألسنةِ مخلوقاته – ابتداءً من أصغر جزئي إلى أكبر كلي – فيعرِّف سبحانه ذاتَه المقدسَّة، ويفهم كمالَه السامي، ويُظهر جمالَه البديع، بهذا الكون الرائع، وبكل صحيفة فيه، وبكل سطر فيه، وبكل كلمة فيه، بل حتى بكل حرف وبكل نقطة من كتابه العظيم هذا.''[21]

فعلى هذه الأدلة، وبناء على هذه الأسس، انطلق النورسي بيقين صادق، ومنهج واضح سالك يكتشف أسماء الله الحسنى من خلال الأفعال الجارية في الكون، والتصرفات المعلنة في الوجود، فلا تمر عليه حالة نفسية شخصية، ولا واقعة من وقائع الحياة الدنيا، أو مشهد من مشاهد حياة الموجودات الكبيرة والصغيرة إلا نفذ منه إلى الاسم أو الأسماء التي يستند إليها هذا الحدث أو تلك الواقعة. ولهذا فالكون والطبيعة في رسائل النور بمنزلة معرض يعرض فيه الخالق الجليل الجميل آثار أوامره التكوينية، ويعلن عليهم أسماءه في كل لحظة.

وأسوق هنا مثالا يقاس عليه غيره، وهو مثال عرضه النورسي في أكثر من مناسبة. فأول ما ينطلق منه هو القراءة في صحائف الكون، فيأخذ بعقل القارئ وقلبه في سياحة فكرية وروحية، يوقفه على مظاهر الإتقان في الخلق والدقة في التدبير. فيتوقف مثلا عند ما يشاهد في الكون من التبدل والتجدد لعملية الإحياء والإماتة. إنها عملية تجدد مستمر للموجودات من غير توقف وتصريف الأحوال بين الحياة والموت في كل حين. إن عملية الإحياء والإماتة لا تتوقف في الكون، ففي كل لحظة أحياء يولدون، وأموات يزولون في عالم الإنسان وفي عالم الحيوان وفي عالم النبات وفي عالم الجماد وفي سائر الموجودات مهما اختلفت خصائصها. في كل ثانية من الزمن تشهد الأرض موكب جنازة كبيرة لمن أنهوا مهامهم من الموجودات، وفي الحين نفسه تشهد موسما كبيرا لمواليد جديدة تتسلم مهامها. ففي لحظتنا هذه كم من الموجودات تدخل الأرض في عالم الإنسان والحيوان والنبات، وكم منها تخرج منها وتغادرها. إنها

تجليات لآثار اسم ''المحيي'' واسم ''المميت'' التي تمنح للحياة والكون حيوية من خلال التجدد. ولو توقف اسم منهما عن التجلي لوقع الخلل. فليتصور مثلا لو لم يكن لاسم المميت تجل، وكل من ولد بقي على الأرض، وليتصور الفرد الواحد لو أن جميع أجداده بين يديه مع الهرم والشيخوخة والمرض والحاجة إلى التكسب، كيف تتعسر حياته. وكذلك لو تصور توقف تجلي اسم المحيي، فتزول الموجودات من غير أن تتجدد. فلتذهب العقول في تصور النتائج، ولتفتح مراكز الدراسات المستقبلية ولتستعن بأدق مناهج الإحصاء والتقدير لتصور نتائج توقف الإحياء أو الإماتة لفترة ولو قصيرة من الزمن!!! إن تجلي اسم المحيي واسم المميت يمنح الكون جمالا لأن الموت والحياة ليسا سوى ستائر للتجديد. إن حركة تجاذب دواعي الموت والحياة المشهودة أمامنا، والتي تتكرر في كل لحظة على مدى الدهور والأزمان – في قوة وضوحها – مثل لوحة إعلان تشير إلى حي قيوم فوق الموت والحياة لأنه خالق الموت والحياة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾الملك:١-٢ وهكذا تتآلف حقائق الكون بحقائق الوحي.

والقاعدة النظرية لهذا المنهج هي التي عَبَّر عنها بقوله: ''فكتاب الكون الكبير هذا إذ تعلمنا آياته التكوينية الدالة على وجوده سبحانه وعلى وحدانيته، يشهد كذلك على جميع صفات الكمال والجمال والجلال للذات الجليلة.. لأن ظهور الكمال في أثر ما يدل على كمال الفعل الذي هو مصدره.. وكمال الفعل هذا يدل على كمال الاسم، وكمال الاسم يدل على كمال الصفات، وكمال الصفات يدل على كمال الشأن الذاتي، وكمال الشأن الذاتي يدل على كمال الذات – ذات الشؤون – حدسا وضرورة وبداهة.''[22]

ولهذا وجد عند النورسي أسماء لم ترد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية صراحة على أنها من أسماء الله، وليست عند غيره ممن قصد إلى إحصاء أسماء الله الحسنى. وسبب ذلك أنه يرى أنها ليست محصورة فيما ذكر صراحة في القرآن الكريم والسنة، ثم لأن الرسول ﷺ رغب في إحصاء تسعة وتسعين منها ولم يبينها، وورد عنه ﷺ في الدعاء ما يدل على إمكان أن يفتح الله على عبد من عباده فيعرفه اسما من أسمائه وهو: ''أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك..''[23] فدلّ هذا على أن

المجال مفتوح للنظر كل بحسبه. ولهذا اختلف علماء الإسلام في بعض الأسماء فمنهم من أثبتها ومنهم من لم يثبتها. ولما كان منهج النورسي في إحصاء الأسماء الحسنى يقوم على قراءة الكون وتدبر الخلق، فما أفصح عنه الكون من خلال الأفعال والتصرفات الجارية فيه، وله في نصوص الوحي من المعاني ما يشهد له ويدل عليه ولو بالمفهوم العام، فإنه يدل على اسم من الأسماء الحسنى، لأن كل فعل وتصرف يستند إلى اسم أو أسماء. فمن الأسماء التي لم أقف عليها إلا عنده: المطلوب، والمحبوب، والمقصود، والمزين، والصانع، والمذكور، والمعروف، والمعبود والعطوف والفياض. وسبب ذلك أنه اتخذ الكون دليلا واستمع إلى تسبيحات الموجودات وهي تعرف بخالقها لأنه ''وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ'' فاسم ''المزين'' مثلا لم يرد صراحة في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية، لكن تسبيحات الكون تدل عليه من خلال ما يشاهد من أعمال التجميل والتزيين، ثم إن هذا المعنى المقروء في الكون يشهد له القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾.الملك:٥ وفي معرفة اسم ''المعروف'' واسم ''المذكور'' في تسبيحات الموجودات وارتشاف تجلياتهما في الكون يقول رحمه الله: ''سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، يا معروف بمعجزات جميع مصنوعاتك، وبتوصيفات جميع مخلوقاتك، وبتعريفات جميع موجوداتك. سبحانك ما ذكرناك حق ذكرك، يا مذكور بألسنة جميع مخلوقاتك، وبأنفس جميع كلمات كتاب كائناتك، وبتحيات جميع ذوي الحياة من مخلوقاتك لك، وبموزونات جميع الأوراق المهتزة الذاكرة في جميع أشجارك ونباتاتك.''[24] ثم إن أسماء الله لا يمكن الإحاطة بها، وغاية الممكن بالنسبة للمكلف معرفة ما يدل عليه الكون المخلوق لأنه إنما يعرف خالقه من خلال خلقه، لأنه تعالى احتجب من شدّة ظهوره، وظهر من فرط نوره الذي يتجلى به على المخلوقات. فله ضمن مراتب ربوبيته شؤون وعناوين وأسماء مختلفة، وكل اسم له يتجلى في ما يناسبه من عوالم الكون، فكل حقائق الأشياء وأمور العالم وحوادث الوجود تستند إلى أسمائه.

ومن مُلَح العلم التي يحسن ذكرها في هذا المقام أن ولوع النورسي بتجليات أنوار أسماء الله الحسنى في الكون أنه سمى رسائله بما يدل على النور والضياء من باب التخلق بالحظ البشري من اسم الله تعالى ''النور'' فسمى رسائله ''رسائل النور'' وفيها ''اللمعات''، و''الشعاعات''. وحتى ''الكلمات'' و''المكتوبات'' فإنها غير خارجة عن

هذا السر لأن الكون عنده مكتوبات ربانية وكلمات تسبيح بلسان حال الموجودات.

وفي معرفة الأسماء الحسنى من خلال تجلياتها في الكون يقف النورسي وقفات خاصة عند تجليات الاسم الأعظم، وهذا ما نبينه في المسألة الآتية.

اسم الله الأعظم وأنواره الستة:

اختلف العلماء في تعيين اسم الله الأعظم لاختلاف الآثار الواردة في ذلك. وأقوى ما ورد فيه حديث بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيّ قَالَ سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: ''اللَّهُم إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلٰهَ إِلاّ أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. فَقَالَ ﷺ: ''وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطٰى.''[25] والراجح أن الله تعالى أخفاه كما أخفى ساعة الجمعة وليلة القدر، رحمة بهم حتى يجتهدوا في دعائه بجميع أسمائه. وقيل إن الحكمة أن يسألوه بحسب الحال، فمن أذنب سأل باسم الغفور، ومن ضاق عليه الرزق دعاه باسم الرزاق وهكذا.

وذهب النورسي مذهب القائلين بأن الاسم الأعظم مؤلف من عدة أسماء، وحكى الخلاف في تعيينه عن العلماء ومنها قول الإمام علي رضي الله عنه وهو أن الاسم الأعظم تجمعه الأسماء: الفرد، والحي، والقيوم، والحكم، والعدل، والقدوس.[26] واختار النورسي هذا الذي ورد عن علي رضي الله عنه فجعل الاسم الأعظم مجموعا في ستة أسماء وهي: الحي، والقيوم، والفرد، والحكم، والعدل، والقدوس. وفي سبب ذلك يقول: ''إن هذه الأسماء والأنوار الستة للاسم الأعظم، قد عمّت الكون كله وغطت الموجودات قاطبة ولَفَعَتْها بأستار مزركشة ملونة بأزهى الألوان المتنوعة وأبدع النقوش المختلفة وأروع الزينات المتباينة.''[27] فالحي منح الموجودات الحياة. والقيوم منحها القيام والبقاء والدوام. والفرد ضم جميع الكائنات بأنواعها وأجزائها واستوعبها ضمن وحدة واحدة. والحكم منح كل موجود ما يستحق من نظام وانسجام. والعدل يدير جميع الكائنات بموجوداتها ضمن فعالية دائمة بموازينه الدقيقة ومقاييسه الحساسة ومكاييله العادلة، فلو انفلت من تجلي اسم (العدل) لحل الهرجُ والمرج في الكون. وأما القدوس فقد جعل موجودات الكائنات نظيفة طاهرة، صافية زكية، مزينة وجميلة.[28] وذكر النورسي هذه الأسماء المكونة للاسم الأعظم في اللمعة الثلاثين من رسائله، وبين وجه كونها الاسم العظم، وبين تجلياتها في الوجود، وذكر الآيات القرآنية التي اهتدى من خلال أنوارها إلى هذه الأسماء وتجلياتها.

نخلص من كل ما سبق أن إحصاء أسماء الله الحسنى عند النورسي يتم أولا بمشاهدة تجلياتها في الكون ونسبة كل أثر في الوجود إلى الاسم الذي يستند إليه. ثم تأتي الغاية المرجوة والفائدة المقصودة وهي التحقق بهذه الأسماء والتخلق بالحظ البشري منها وهذا ما نُبَيِّنهُ في المسألة الآتية.

_ مقتضيات الأسماء الحسنى:

يقصد في هذا السياق بالمقتضيات ما يلزم من الآثار والفوائد التي تحصل لمن سلك مسلك التجلي، والتي يتم بها التحقق بأسماء الله الحسنى ويكتمل معنى إحصائها. وهذه المقتضيات هي لزوم الدار الآخرة، والعيش في كنف تجليات الأسماء الحسنى والتخلق بها، وارتشاف جمالها.

– **لزوم الدار الآخرة**: إن ''تجليات جميع الأسماء الحسنى لخالق الكون المتجلّية في أرجاء العالم كله، تقتضي بالبداهة وجود عالم آخر خالد، وتدل دلالة واضحة على وجود الآخرة.''[29] فكل اسم من الأسماء الحسنى الظاهرة آثاره في عوالم الدنيا يقتضي الآخرة ويستلزمها. فمن يعرف الأسماء بمنهج التجلي يحس بوجدان صادق وبعقل معتبر بأن ما يظهر على الكون من علامات الجلال وآيات الجمال، وما يجري فيه من الأفعال والتصرفات ليست سوى ستائر تخفي وراءها عالما آخر هو موطن الحسن الحقيقي، وأن كل شيء في الدنيا يتطلع إلى ذلك العالم ويستشرفه. وقد فصل النورسي هذه الحقيقة في الكلمة العاشرة وقدم أمثلة من بعض الأسماء الحسنى وكيف تعرف تجلياتها بالحشر والآخرة والجنة والنار.[30] واعتبر هذه الحقيقة ''الدستور الأعظم'' الذي أنزله الله في كتابه ونبّه العقول والقلوب إليه في قوله عز وجل: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.الروم:٥٠ وهي إشارة وتنبيه إلى أن تجليات اسم ''المحيي'' في الكون وتجدد هذه التجليات يقتضي بداهة يسر البعث والإحياء للكون كلّه بعد موته. وعلى هذا الدستور تعامل النورسي مع باقي الأسماء الحسنى، واعتبر هذه الآية إنما تعلم منهجا للقياس عليه ولم تأت لحصر المسألة في اسم المحيي فقط. فاسم الله ''الجميل'' يتجلى في الكون فيقتضي الدار الآخرة ويستلزمها. ووجه ذلك أن جمال الكون الظاهر، يدل على جمال خالقه لأنه لا يؤخذ الجمال إلا من الجميل. وواضح أن جميع الناس كما قال النورسي ''يغادرون دور الضيافة (أي الحياة الدنيا) هذه بسرعة

ويغيبون عنها بلا ارتواء من نور ذلك الجمال والكمال، بل قد لا يرون إلا ظلالا خافتة منه عبر لمحات سريعة. فالرحلة إذن منطلقة إلى مشهد دائم خالد.''[31] ولأنه ''نحن نشاهد رحلة كل شخص واختفاءه بسرعة في دار ضيافة الدنيا هذه، دون أن يستمتع بإحسان ذلك السخاء إلا نزرا يسيرا بما يفتح شهيته فقط، ودون أن يرى من نور ذلك الجمال والكمال إلا لمحة خاطفة. إذن الرحلة منطلقة نحو متنزهات خالدة ومشاهد أبدية.''[32] فاستحضار جمال الخالق عز وجل من خلال تجلياته في الكون، والنظر إلى كل الجمال المبثوث في الوجود وكونه ظلا يسيرا من سنا جماله تعالى، يورث الشوق إلى أصل الجمال وكماله ويحمل على التشوّق في كل حين إلى لقاء الجليل الجميل للتنعم بالجمال الحق. ''فكل إنسان يشعر في وجدانه بلهفة شديدة لرؤية سيدنا سليمان عليه السلام الذي أوتي الكمال ويشعر أيضاً بشوقٍ عظيم نحو رؤية سيدنا يوسف عليه السلام الذي أوتي شطر الجمال، فيا ترى كم يكون مدى الشوق واللهفة لدى الإنسان لرؤية جمال مقدس وكمال منزّه، الذي من تجليات ذلك الجمال والكمال، الجنة الخالدة بجميع محاسنها ونعيمها وكمالاتها التي تفوق بما لا يحد من المرات جميع محاسن الدنيا وكمالاتها..''[33] فلا يمكن لصاحب الجمال المطلق، الذي يُعَرِّف نفسه إلى عباده ويحبب نفسه إليهم، من خلال ما يعرض أمامهم من قبسات نوره وظلال جماله في الدنيا، ألا يكون له لقاء مع عباده المحسنين المحبين له يوقفهم فيه على تمام الارتواء من جماله عز وجل. وهكذا فإن تجليات اسم الجميل في الحياة الدنيا تثبت نعيم الجنة وسعادتها الغامرة بالنظر إلى وجه الجليل الجميل.

وبتعدد الأسماء تتعدد الأدلة على ضرورة الآخرة والجنة والنار. فليذهب العقل في تصور عدد التجليات لأسماء الله الحسنى في الدنيا كل مذهب، وليتصور قدر حماقة من ينكر الدار الآخرة. فالآخرة إذن موجودة قطعا. ''وحيث إن الدنيا موجودة فعلا، وفيها من الآثار الظاهرة للحكمة والعناية والرحمة والعدالة، فالآخرة موجودة حتما وثابتة بقطعية ثبوت هذه الدنيا. ولما كان كل شيء في الدنيا يتطلع من جهة إلى ذلك العالم، فالسير إذن والرحلة إلى هناك، لذا فإن إنكار الآخرة هو إنكار للدنيا وما فيها''[34] لأن جميعَ الأسماء الحسنى المتجلية في تدبير الكون تقتضي الآخرة وتستلزمها.

_ **العيش في كنف تجليات الأسماء الحسنى والتخلق بها وارتشاف جمالها**: لقد كان للنورسي ولوع خاص باسم الله ''الجميل'' لأنه السكة المضروبة على غيره من

الأسماء، فكل اسم يستمد منه ويمتزج به في معناه ومغزاه، وفي آثاره وفوائده العملية. فالله جميل في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. وهذا وجه وصف أسمائه بالحسنى. والحسنى مؤنث الأحسن. ومعنى كونها حسنى أنها جمعت من الحسن كماله وبلغت من الجمال تمامه. فكل اسم من أسماء الله جميل، وآثاره جميلة ولو كانت شرا في ظاهرها مثل المصائب والموت، فهي ليست سوى أستار لجمال أفعال الله الحكيم الجليل الجميل تبارك وتعالى.[35]

إن من يصدر عن تجلي الأسماء يساق تلقائيا إلى العيش في كنف جمالها وتتبع بهائها في الكون والتخلق بالحظ البشري منها. ومعناه اتخاذ الحياة الدنيا بجميع مظاهرها سلوكا إلى الله تعالى. فإذا كان الكون كله معرضا لتجليات أسماء الله الحسنى ومرآة لجماله تعالى وبهائه وجلاله، وكانت كل تجليات الأسماء تستلزم الآخرة، فإن الكون يغدو كله مسجدا يلهج كل ما فيه من الموجودات بذكر الله ويعرف بجماله ويعلن عن بهائه تعالى، فيكون الإنسان العارف بأسماء الله الحسنى، في جميع أوقاته وعلى جميع أحواله وفي كل مواطن وجوده، في كنف جمال معنوي غامر، ولذة روحية سامية لا تنقطع وإنما تتجدد بتجدد لمعات أسماء الله الجميلة. وهكذا يربط هذا السالك التواصل الدائم مع الكون من حوله يرى تجليات جمال ربه تعالى تتجدد أمامه، فيتوجه إلى الكون بالمحبة لأنه يرى فيه معرضا لجمال الله وبهائه. وبهذا تكون الدنيا بلذاتها ونعيمها وبهائها طريقا سالكا إلى الله تعالى، فتجتمع للعارف لذتان، اللذة المادية الشهوية، لذة الحياة الدنيا، واللذة المعنوية بالارتقاء الروحي والسمو المعنوي برؤية تجليات جمال الله تعالى والشوق إليه.

ثم إن من يستحضر هذه المعاني ينظر بعين التحسين والتقدير لكل ما خلق الله، لأنه مرايا جماله، فلا يستجيز لنفسه أبدا أن يدنس ما جمل الله أو يقبح ما حسنه، فيعظم الحرمات، ومنها حرمة الإنسان لأنه يرى فيه تجليات جمال أسماء الله تعالى ''الخالق'' ''البارئ'' ''الرزاق'' ''المصور'' المحيي'' ''المميت''. ولا يمكن لمن ينظر بمنظار تجليات أسماء الله الحسنى، أن يفسد جمال شجر أو نبات أو ماء لأنه يرى فيه فعل التحسين والتجميل من الخالق العظيم الجميل. ولهذا فإن فقه أسماء الله الحسنى وتجلياتها أصل عظيم لحماية البيئة التي هي من المعضلات في العصر الحاضر. فمن يتخذ الكون مذكرا بجمال الله وعاكسا لجلاله وبهائه لا يحتمل أن يرى فيه قبحا. ولهذا الوجه جعل الرسول حماية البيئة وحفظ جمالها من شعب الإيمان في قوله: ''الإيمان

بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عند الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.''[36]

ومن لوازم ذلك أيضا محبة الله تعالى والتشبه به في جماله، والتخلق بصفاته مثل جمال الصورة، والتخلق بالرحمة والعفو والعدل وغيرها من الصفات التي هي من جمال الله، فيكون العارف جميلا في صورته ومظهره وملبسه وفضائه، جميلا في أخلاقه وسلوكه لأن الأخلاق هي هندسة الجمال في السلوك والتصرف، جميلا في عقله وتفكيره لأنه لا يفكر سوى في الجمال والجلال، وهذا هو غاية الجمال وتمامه على ظهر الأرض، جمال الصورة وجمال العقل وجمال الأخلاق.

إن نظرية التجلي تحل ألغاز الحياة لأن بها تغدو الحياة الدنيا مزرعة للآخرة ومعرضا لتجليات أسماء الله الحسنى.

ولا تفوتني هذه الفرصة أن أذكر أنني، بحكم عنايتي بالسنة النبوية وعلومها وفقهها، توقفت طويلا عند حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ''خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ''[37] لأن كل ما قرأته في تفسيره عند شراح الحديث لم يشف الغليل في حل ما يبدو من الإشكال، حتى اطلعت على تناول النورسي له بمنهج نظرية تجلي أسماء الله الحسنى وهو قوله: ''ولهذا الحديث الشريف مقاصد جليلة كثيرة، منها: أن الإنسان مخلوق على صورة تُظهر تجلي اسم الله (الرحمن) إظهاراً تاماً.''[38] ومعناه أن الإنسان جزء من الموجودات، يتجلى فيه ما يتجلى فيها من آثار أسماء الله الحسنى. فالله تعالى وهو الحكيم العليم خلق الإنسان على صورة تعرفه بربه وتدله على أسمائه وترشده إلى صفاته عز وجل. فوحدانية الله تعالى مثلا التي يعبر عنها اسم الله ''الفرد'' جعل الله تعالى لها إعلانا في صورة الإنسان وخلقه، من خلال ما منح الله تعالى لكل فرد من البشر من السمات والخصائص التي ينفرد بها ولا يشاركه فيها غيره، مثل صورة وجهه وخصائصه ومميزات شخصيته. إن ختم التوحيد يتجلى في وجه كل إنسان لأن ''لكل إنسان علامة فارقة في وجهه تميزه عن غيره. فالذي لا يستطيع أن يضع تلك العلامات في كل وجه، ولا يكون مطلعا على جميع الوجوه السابقة واللاحقة منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، لا يمكنه أن يمد يده من حيث الخلق والإيجاد ليضع تلك الفوارق المميزة الهائلة في ذلك الوجه الصغير لإنسان واحد. نعم إن الذي وضع في وجه الإنسان ذلك الطابع المميز.. لا بد أن أفراد البشر كافة هم تحت نظره وشهوده

وضمن دائرة علمه حتى يضع ذلك الختم للتوحيد في ذلك الوجه.. وكما أن تشابه الأعضاء.. في وجوه البشر كافة دليل قاطع على وحدانية خالق البشر سبحانه وتعالى، كذلك فإن العلامات الفارقة الموضوعة على كل وجه– لصيانة حقوق كل فرد في المجتمع، ولمنع الالتباس، وللتمييز.. – هي الأخرى دليل واضح على الإرادة المطلقة والمشيئة الكاملة لذلك الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وآية بديعة جلية أيضا للأحدية، بحيث إن الذي لا يقدر على خلق جميع البشر والحيوانات والنباتات بل جميع الكون لا يمكنه أن يضع تلك السمة المميزة في أحد.''[39]

فبهذه الخطوات كلها وعَبْرَ هذا المسلك الذي يمتد عبر حياة الإنسان في الدنيا ويَعْبُرُ منه إلى الآخرة، يتم إحصاء أسماء الله الحسنى في نظر النورسي. وكل هذا الذي ذكرناه قد أقام عليه النورسي الحجة مرات ومرات في رسائله، وذلك من فرط يقينه بسلامة هذا المسلك، وقوة اللذة والجمال الذي وجده فيه، فأحب بكل قواه أن يجد غيره مثل ما وجد. ولهذا فإن هذا العرض السريع إنما هو مفتاح من مفاتح رسائل النور، ومدخل لمنهج إحصاء أسماء الله الحسنى فيها، فلا يغني بحال عن قراءة رسائل النور ليقف القارئ بنفسه على دفاع النورسي القوي المستميت عن هذا المسلك، وتفننه في عرضه وإقامة الحجج والأدلة عليه على امتداد رسائله، وكثرة الأحداث التي مر منها في حياته.

أختم هذا البحث بكلام أستاذنا الفاضل إحسان قاسم الصالحي، وهو ممن ذاق هذه التجربة وعاش آثارها في حياته فقال، وهو يبين خصائص هذا المسلك وفوائده وآثاره العملية في صميم الحياة الإنسانية الفردية والجماعية، وهو في ذلك ينطق باسم كثير من طلبة النور، فيقول وهو يذكر الفوائد التي تورثها رسائل النور: ''فعلمتنا (أي رسائل النور).. كيف نتعامل مع تجليات الأسماء الإلهية الحسنى المتجلية في الوجود كله، منبهة إيانا أن الإنسان ابتداء من أسرار نفسه وأعماق حياته إلى جزئيات الكون الواسع، إن لم يتلق معاني تلك الأسماء الجليلة في حياته لتنورها، سوف لا يرى الجمال في الوجود ولا يتعظ بالعبر والحكم في الحوادث. حيث لفتت أنظارنا إلى أن الموجودات كلها تفتقر إلى معنى في ذاتها، وتحتاج لمعرفة ماهيتها إلى اسم من الأسماء الحسنى، فشعرنا أننا نزاول تفاعلا ذوقيا وقلبيا وروحيا وفكريا مع معاني الأسماء الحسنى، لا تعاملا نظريا، بل استكشافيا، حتى أصبحت هذه النظرة لدينا ملكة وجزء من فطرتنا، فشاهدنا أنوار تجليات تلك الأسماء الحسنى فيما حولنا من

موجودات وفيما يجري من حوادث يومية حولنا، بل في كل جزئية من جزئيات الحياة.. وبهذا أصبحت الموجودات والحوادث في رؤيتنا مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى ومكاتب ربانية مفتوحة أمامنا نفهم منها معانيها الحقيقية.. وعندها تحولت أنواع العلوم والمعارف التي قرأناها.. إلى أدوات لمعرفة الله ونوافذ تطل على وحدانيته ومسارب للعيش في أجواء تجليات الأسماء الحسنى..''[40]

اللّهم وفقنا بفضلك لمعرفة أسمائك، وامنحنا برحمتك جميل محبتك، واكتبنا مع الذين أنعمت عليهم بجناتك، وزدتهم من إحسانك بالنظر إلى وجهك الجميل، نحن ووالدينا وأهلينا، وذرياتنا وإخواننا، وقرابتنا وأحبتنا، وجميع المؤمنين والمؤمنات، يا حنان يا منان، يا جليل يا جميل..

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

الهوامش:

[1] د. عبد الكريم عكيوي: كلية الآداب، أكادير، المغرب.

[2] ''صحيح البخاري''، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا. ''صحيح مسلم''، كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها.

[3] ينظر في هذه المعاني: ''الأسماء والصفات'' للبيهقي، ص ٢٤. ''فتح الباري'' ١٣ ص ٢٢٥– ٢٢٧ – ٣٧٨.

[4] ''فتح الباري'' ١٣ ص ٢٢٦.

[5] ''الكلمات'' ص ٤٨٤.

[6] ينظر: ''اللمعات'' ص ٥٨٤.

[7] ''اللمعات'' ص ٥٧٠.

[8] ''المكتوبات'' ص ٢٩٠.

[9] ''الكلمات'' ص ٧٤٩.

[10] ''اللمعات'' ص ٥٣٨.

[11] ''اللمعات'' ص ٥٢٨.

[12] ''اللمعات'' ص ٥٣٠.

[13] ''اللمعات'' ص ٥٨٠ – ٥٨١.

[14] ''الكلمات'' ص ٧٧٤.

[15] ''اللمعات'' ص ٣٥٣.

[16] ''اللمعات'' ص ٣٥٨.

[17] ينظر: ''الشعاعات'' ص ٨٧.

[18] ''المثنوي العربي النوري ص ٥٢.

[19] الحِكم العطائية بشرح أبي العباس أحمد بن عجيبة المسمى ''إيقاظ الهمم في شرح الحكم'' ص ١٦ (المكتبة التوفيقية).

[20] ينظر: ''المكتوبات'' ص ٥٧٥.

[21] ''اللمعات'' ص ٥٣٠.

[22] ''الكلمات'' ص ٣٤٢.

[23] ينظر ''الأسماء والصفات'' للبيهقي، ص ٢٤ – ٢٧. (ط ١ – ١٤١٧ – ١٩٩٧. دار الجيل).

[24] ''اللمعات'' ص ٤٦٠. وينظر ''المثنوي العربي النوري'' ص ١٣٤.

[25] ''جامع الترمذي'' كتاب الدعوات، باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ.

[26] ينظر: ''اللمعات'' ص ٥٧١.

[27] ''اللمعات'' ص ٥٩٣.

[28] ينظر ''اللمعات'' ص ٥٩١ – ٥٩٢.

[29] ''اللمعات'' ص ٣٤٨.

[30] ينظر ''الكلمات'' ص ٦٥ – ٩٥.

[31] ''المكتوبات'' ص ٥١.

[32] ''الكلمات'' ص ٧٢.

[33] ''الكلمات'' ص ٧٧٩.

[34] ''الكلمات'' ص ٩٣.

[35] ينظر: ''نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور'' ضمن أعمال ندوة ''الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر'' ص ٧٤ – ٧٦، (ط١– ١٤٢٧ – ٢٠٠٦، سوز للطباعة والنشر– إستانبول).

[36] ''صحيح مسلم'' كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان.

[37] ''صحيح البخاري'' كتاب الاستئذان، باب بدء السلام.

[38] ''اللمعات'' ص ١٥٣.

[39] ''اللمعات'' ص ٥٤١ – ٥٤٢.

[40] ''أبعاد جمالية في دعوة الإيمان والقرآن'' ضمن أعمال ندرة ''ندوة الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر'' ص ٨٢ – ٨٣.

عالم الغيب في المنظور النورسي

أ. د. عماد الدين خليل[1]

[١]

ثمة ملمح جمالي يؤكد نفسه المرة تلو المرة في معطيات النورسي عن عالم الغيب، يعرضه بصيغ شتى، ومن زوايا مختلفة.. وهذا الملمح في حقيقة الأمر ليس سوى إحدى ثوابت الرؤية الإيمانية للكون والحياة والإنسان، ولمغزى الوجود والمصير.

إن ما يتشكل في عالم الشهادة قبالتنا.. إزاء أحاسيسنا ووعينا، من لمسات جمالية، لا يعدو أن يكون شاهداً مجتزء محدوداً من أصول كلية كاملة لا نهائية، توجد في عالم الغيب.. وانعكاساً للمطلق على مرآة الوجود التي لن يكون بمقدورها أن تستوعب الفيض الجميل، فلا تتلقى منه سوى الأشتات والتفاريق!

وهذا يكفي على أية حال لأنه يجيء موازياً لقدرات الإنسان واستعداداته للتلقي إن على مستوى الحس أو على مستوى العقل والروح والوجدان.. كما أنه –في هذه الحالة– يحمل بطانته الأخلاقية من حيث إنه لا يتيسر بهذا القدر المعلوم، إلا وفاقاً للجهد المبذول في هذا العالم. فبقدر ما ازدادت نسبة الجهد في النوع والكم، أتيح للإنسان منحة أكبر من جماليات عالم الغيب التي لا تعد ولا تحصى.

والأمر قبل هذا وبعده ليس سوى شاهد فحسب على ما ينطوي عليه الوجود غير المنظور من كنوز مخبوءة ما سمعتها أذن ولا رأتها عين، ولا خطرت على قلب بشر.. هذه الكنوز التي تومض دراريها من بعيد بهذا اللون الجميل أو تلك الإشارة الضوئية المدهشة.. تماماً كما تومض الجواهر والأحجار الثمينة وهي تتلألأ من بعيد وسط مهرجان من الأضواء والألوان والظلال.

إن المرء ليتذكر هنا رحلة رسول الله ﷺ في معراجه القدسي إلى سدرة المنتهى.. يقول ﷺ وهو يتحدث عن بعض ما شهده هناك: ''فغشيها ألوان لا أدري ما هي'' (أخرجه البخاري) إذن فإننا لا نعرف من عالم اللون الجميل سوى نماذج محدودة فحسب، بينما هناك في العمق الكوني ألوان أخرى لن يكون بمقدور لغات العالم كلها أن تصفها أو تنقل انعكاساتها إلينا.. وغير الألوان هناك ألوف المفردات الجميلة، بل ملايينها، تنتشر في منجم الغيب السخي في الكم والنوع، بما تغدو إزاءها كل جماليات العالم المشهود قطرات في بحر لجي مثقل بالجواهر واللآلئ واليواقيت والانعكاسات اللونية والخفقان الجميل الذي لم يتهيأ للإنسان أن يتلقى شحناته الكاملة بعد.

كأن الله جل في علاه يريد لنا أن نتذوق جانباً من عطائه الكريم الموعود.. حيث تصير الجنة الفرصة الكاملة للتكشف الجمالي الباهر.. الحلم الذي يملأ قلوب المؤمنين بالعشق، ويدفعهم إلى تقديم كل ما يقدرون عليه من أجل الفوز بالنعيم الكبير ذاك.

إن عالمنا المشهود إذن ينبئ بمراياه عن إشارات فحسب مما يكون هناك.. وما يكون هناك لا تكاد تصفه لغة أو يحيط به خيال.

ولكون النورسي واحداً من أكثر عشاق الجمال في هذا العالم لهفة وانبهاراً وإعجاباً وتواجداً، فإنه طالما حدثنا في كلماته عن جوانب ولمحات مما يجري هناك.. إنها ساحته الأثيرة وسياحته التي يحبها حتى أعمق طبقة في روحه.. وهو يعرف كيف يأخذ بأيدينا –بمحبة– إلى هناك، ويشعل في قلوب قرائه الشوق ليوم تتمزق فيه حجب الدنيا وتتكشف الأستار.. معتمداً دائماً مأثورات القرآن الكريم والسنة الشريفة، مضيفاً إليها قدراته المبدعة على التحليل والاستنتاج، وترتيب التفاصيل والجزئيات.

[٢]

في مساحات واسعة من ''كلماته'' يتحدث النورسي عن جماليات عالم الغيب: حيناً عن الموت والحياة، وحيناً عن البعث والنشور.. وحيناً عن الملائكة والأرواح، وحيناً عن الجنة والنعيم.. ثم هو قبل هذا ومعه وبعده، يقف طويلاً إزاء الذات الإلهية، جلت وتباركت في علاها، لكي يحكي لنا، استناداً إلى معطيات الكتاب والسنة، وتجليات أسماء الله الحسنى، عن القيم والمفردات الجميلة ؛ بل عن الفيض الجميل الذي يتدفق في قلب الكون بما لا أول له ولا آخر، ولا بدء له ولا انتهاء، عن الجزاء

الأوفى.. الدرجة القمة التي لا يبلغها إلا الأنبياء والشهداء والقديسون، إذ تؤثرهم رحمة الله سبحانه وعدله بالرضا الكامل، والنظر إلى الوجه الكريم جل في علاه، حيث لن يكون بمقدور لغة في العالم أن تحكي لنا ما تهبه هذه الرؤية للروح البشري وهو يتلقى المنحة الكبرى.

يختصر النورسي إشكالية القدرة النسبية المحدودة لعالم الشهادة على تلقي المعطى الغيبي بهذه الكلمات: ''الصور المنعكسة للأرواح النورانية، هذه الصور حية، وهي عين في الوقت نفسه، ولكن لأن ظهورها يكون وفق قابليات المرايا، فالمرآة لا تسع ماهية الروح بالذات.''[2]

تلك هي المسألة: المرايا التي لا تملك القدرة على استيعاب ماهية اللا مرئي، لذا فهي لا تعكس لنا منه سوى جزيئات وأشتات وتفاريق..

ومع ذلك فإن هذا يكفي، ما دام يمنحنا الدلالة المؤكدة، بشفرته المحدودة هذه، على عالم الغيب المترع صفاءً وعطاءً وجمالاً..

إلا أن النورسي لا يسلم بهذا، وإنما يمضي لكي يطرق أبواب الغيب مستعيناً بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ متذرعاً –أيضاً– برؤيته النقية كالبلور..

بقدرته على الإيغال في المجاهيل.. بنَفسه الطويل القدير على المقارنة والاستنتاج والتحليل والتركيب، لكن ما يلبث أن يحدثنا، وهو هناك، عن هذه المفردة أو تلك من جماليات عالم مغيب لا يكاد الشاهد المنظور أن يكون هباءة من خضمه الذي لا شطآن له..

وحديث النورسي ها هنا ينفسح ويطول.. وهو يتحرك لكي يتعامل مع حشود المعطيات الغيبية، على مساحات واسعة خصبة من ''كلماته''.. فليس –إذن– غير استدعاء بعض الشواهد فحسب، من أجل الإيجاز الذي يحتمه بحث كهذا.

يتحدث في ''الغصن الرابع'' من ''الكلمة الرابعة والعشرين'' عن الدور الذي تمارسه الملائكة في قصر الكون الكبير.. إنهم ''لا مراتب لهم في الرقي بالمجاهدة، إذ لكل منهم مقام ثابت ورتبة معينة، إلا أن لهم ذوقاً خاصاً في عملهم نفسه، وهم يستقبلون الفيوض الربانية –حسب درجاتهم– في عبادتهم نفسها، بمعنى أن أجرة خدماتهم مندرجة في عين أعمالهم. إذ كما يتلذذ الإنسان من الماء والهواء والضياء والغذاء، كذلك الملائكة، يتلذذون ويتغذون وينعمون بأنوار الذكر والتسبيح والحمد

والعبادة والمعرفة والمحبة، لأنهم مخلوقون من نور، فيكفيهم النور غذاءً، بل حتى الروائح الطيبة القريبة من النور، هي الأخرى نوع من غذائهم حيث يسرون بها.. ثم أن للملائكة سعادة عظمى إلى درجة لا يدركها عقل البشر، ولا يستطيع أن يعرفها إلا الملك نفسه، وذلك فيما يعملون من عمل بأمر معبودهم.. والإشراف الذي يزاولونه بنظره، والشرف الذي يغنمونه بانتسابهم إليه، والتفسح والتنزه الذي ينالونه بمطالعة ملكه وملكوته، والتنعم الذي يحصلون عليه بمشاهدة تجليات جماله وجلاله..''[3]

وفي مقدمة الكلمة ''التاسعة والعشرين'' يسوق هذه المقارنة عن عالم الملائكة: ''رغم ضآلة كرتنا الأرضية وصغرها قياساً إلى السماء، فإن ملأها بمخلوقات ذوات مشاعر –بين حين وآخر– وإخلاءها منهم، وتزيينها بآخرين جدد يشير، بل يصرح: أن السماوات ذات البروج المشيدة، وكأنها قصور مزينة، لابد أنها ملأى أيضاً بذوي حياة مدركين واعين، الذين هم نور الوجود، ومن ذوي الشعور الذين هم ضياء الأحياء، وأن تلك المخلوقات –كالإنس والجن– هم كذلك: مشاهدو قصر هذا العالم الفخم، ومطالعو كتاب الكون هذا، والداعون الأدلاء إلى سلطان الربوبية ويمثلون بعبوديتهم الكلية الشاملة: تسابيح الكائنات وأوراد الموجودات أجل إن تنوع هذه الكائنات يدل على وجود الملائكة، لأن تزيين الكائنات بدقائق الصنعة المبدعة التي لا تعد ولا تحصى، وبمحاسن ذات معان ونقوش حكيمة، يتطلب –بالبداهة– أنظار متفكرين، ومستحسنين، ومعجبين مقدرين، أي يستدعي وجودهم.

نعم! كما أن الجمال يطلب العاشق، والطعام يعطى للجائع، فلابد أن غذاء الأرواح وقوت القلوب في هذه الصنعة الإلهية الجميلة الرائعة، يدل على وجود الملائكة والعالم الروحاني ويتوجه إليهم. ولما كانت هذه التزيينات غير النهائية في الكون تتطلب تأملاً وعبودية غير محدودة.. فلابد أن تكون هناك أنواع غير نهائية من (الملائكة) وأجناس غير محدودة من (الروحانيات)، كي يعمروا بصفوفهم المتراصة ويملأوا هذا المسجد الكبير، هذا العالم، هذا الكون.''[4]

إننا في النصين السابقين اللذين يتحدثان عن الملائكة، نجد أنفسنا قبالة غنى ملحوظ في المفردات والتعابير الجمالية، أو المستمدة من عالم الجمال وظلاله وايحاءاته: الذوق، الفيوض الربانية، التلذذ، التنعم، الأنوار، المعرفة، المحبة، النور، الروائح الطيبة، المسرة، التفسح، التنزه، مطالعة الملك والملكوت، مشاهدة تجليات الجمال والجلال، التزيين، البروج المشيدة، القصور المزينة، مشاهدو قصر العالم

الفخم، مطالعو كتاب الكون، تزيين الكائنات بدقائق الصنعة المبدعة، محاسن ذات معان، ونقوش حكيمة، مستحسنون، معجبون، الجمال الذي يطلب العاشق، الصنعة الإلهية الرائعة، التزيينات غير النهائية في الكون.

فإذا كنا نجد في مقطعين فقط، مما يتحدث به النورسي عن عالم الغيب، ويخص بهما الملائكة، ما يقرب من الثلاثين مفردة وتعبير جمالي.. فلنا أن نتصور ما تنطوي عليه المقاطع الخصبة التي تتحدث عن معطيات الغيب عبر "الكلمات" من بدئها حتى منتهاها.. إن النورسي يستمد مفرداته من قاموس الجمال وهو يجول في عالم الغيب.. يستدعيها لكي تعينه على صياغة الخطاب عن دنيا تبث زينة وبهجة وشفافية ونوراً.. فليس ثمة غير المفردة الجمالية ما يعين على التواصل مع هذا العالم، أو مقاربته.

[٣]

والنورسي يجد في ظاهرة الموت والحياة "أسطع معجزة من معجزات القدرة الربانية وأجملها."[5] إنها رحلة الانبعاث والزوال.. هذا التفجر المترع حيوية وخفقاناً، والذي ينبثق من قلب السكون والهمود والتلاشي بإرادة الله، لهو واحد من أشد الظواهر الجمالية غرابة وإثارة.. وسواء عاينا الظاهرة الفذة في دنيا النبات والحيوان.. أو في عالم الإنسان.. أو عبر تقلب السدم والمجرات والذرات والجزئيات، ودوران الشمس والقمر، وتعاقب الغروب والشروق، ورحلة الليل والنهار.. فإننا نجد أنفسنا قبالة حالة مترعة بالقيم الجمالية.. ويزيدها غرابة وجمالاً أنها تقيم جسراً بين عالمي الغيب والشهادة، فتتخلق مفرداتها وتتشكل إزاء حواسنا.. قبالتنا تماماً.. لكن جذورها.. جذورها المغيبة.. توغل هناك في عالم الغيب، بحيث لا يعرف إلا الله سبحانه كيف يتأتى للظلمة أن تمنح النور، وللموت أن يهب الحياة ؟ ! إنها –إذن– وكما يقول النورسي "أسطع معجزة من معجزات القدرة الربانية وأجملها."

يمضي النورسي في معاينة الظاهرة وسبرها فيرى أن الحياة " كالبؤرة التي تجمع فيها الأشعة الضوئية المختلفة، فتتداخل الصفات المتنوعة في الحياة بعضها في بعض، تداخلاً يجعل كل صفة منها عين الأخرى. فكأن الحياة بكاملها (علم) كما أنها (قدرة) في الوقت نفسه، وهي (حكمة) أو (رحمة) سواء بسواء.. نعم.. إننا نرى أمامنا ماثلة للعيان أنواعاً لا تعد ولا تحصى من "الحياة" تخلق كل حين، وإن أرواحها –التي هي

أصولها وذواتها– تخلق دفعة واحدة من العدم، وترسل أنواعاً غفيرة من الأحياء إلى ميدان الحياة مباشرة..''[6]

والموت.. '' ليس عدماً ولا إعداماً، ولا فناءً، ولا لعبة العبث، ولا انقراضاً بالذات من غير فاعل، بل هو تسريح من العمل، من لدن فاعل حكيم، وهو استبدال مكان بمكان، وتبديل جسم بجسم، وانتهاء من وظيفة، وانطلاق من سجن الجسم، وخلق منتظم جديد وفق الحكمة الإلهية.''[7]

والموت برهان قاطع على وحدانية الله جل في علاه وعلى سرمديته، فكما أن الأحياء ''تدل بوجودها على الخالق الحي'' فإنها تشهد بموتها على ''سرمديته ووحدانيته.''

ويضرب النورسي على ذلك مثلاً: سطح الأرض، ونحن نلمح في ''شاهده'' وفي مفردات هذا الشاهد، معجزة الفناء والانبعاث، وإبداعية التقلب بين الموات والحياة، وهي تنطوي على جمالياتها الباهرة التي تأسر الألباب: ''إن النظام الرائع الباسط هيمنته على الأرض بأسرها، والذي يبدو لنا من خلال مظاهره عياناً، يشهد شهادة صادقة على الصانع القدير. فعندما يسدل الشتاء كفنه الثلجي الأبيض على وجه الأرض الربيعي، وتموت الأحياء التي كانت تزخر بالحياة فوقها، فإن منظر هذا الموت ينقل نظر الإنسان إلى أبعد من اللحظة الراهنة، فيركب متن الخيال ليذهب بعيداً إلى الماضي الذي درجت إليه جنائز كل ربيع راحل، فتتفتح عندئذ أمام النظر مشاهد من الموت والحياة أوسع من هذا المنظر المحصور في الحاضر الراهن. لأن كل ربيع راحل.. كان مشحوناً ملء الأرض بمعجزات القدرة الإلهية، وهو يشعر الإنسان بمجيء موجودات تتدفق بالحياة وتملأ الأرض كلها في ربيع مقبل..''[8]

إن هذا كله ليس سوى دلالة على ''الحشر'' الكبير الذي سيعقب دمار الحياة على الأرض.. وهو واحد من أكثر الحقائق الغيبية في المنظور الإسلامي ثقلاً وحضوراً.

وما يهمنا هنا ليس الجانب العقدي للظاهرة، وإنما بُعدها الجمالي في المنظور النورسي الذي يعرف كيف ينقب عن ملامح الجمال وخطوطه وحيثياته في كل حدث أو شيء أو ظاهرة أو موجود.. ويكفي أن يكون '' الحشر '' انبعاثاً بعد الخمود الأخير للعالم، لكي ينطوي على البعد الجميل.

والنورسي يرى كيف ''أن الجمال البديع الخالد الأبدي الذي ليس له مثيل يطلب

خلود مشتاقيه وبقاءهم وهم كالمرآة العاكسة لذلك الجمال. وإن الصنعة الكاملة الخالدة غير الناقصة تستدعي دوام مناديها المتفكرين.. لذا فالروح باقية بصحبة ذلك الجمال.. في طريق الخلود والأبدية.''[9] بل إن أبسط المخلوقات –كذلك– لم تخلق للفناء، بل لها نوع من البقاء. فالزهرة البسيطة مثلاً التي لا تملك روحاً مثلنا، هي أيضاً عندما ترحل ظاهراً من الوجود، تبقى صورتها محفوظة في كثير من الأذهان، كما يدوم قانون تراكيبها في مئات من بذيراتها المتناهية في الصغر، فتمثل بذلك نموذجاً لنوع من البقاء بآلاف من الأوجه.''[10]

وهو يجد أن جمالية التناسق الكوني للخلق تقوم على ''القصد''.. '' فإن لم تكن هناك حياة أخرى وسعادة خالدة، فماذا يعني هذا النظام الرصين ؟ إنه سيبقى مجرد صورة ضعيفة باهتة واهية.. وستذهب المعنويات والروابط والنسب –التي هي روح ذلك النظام والتناسق البديع– هباءً منثوراً.''[11] كما أنه طالما أكد على انتفاء العبثية في الخلق الذي صيغ على ''أرق صورة وأجمل كيفية'' والذي حمل فيه الإنسان استعداداً أصيلاً للكمال والخلود. ويجيء الحشر لكي يؤكد مصداقية هذا كله، وإلا فهو ''الإسراف والعبث'' وانتفاء الحكمة من الخلق.. وحاشا لله.[12]

وهو يعود لكي يؤكد المرة تلو المرة على ما تشهده الحياة الدنيا من '' تبدلات وتحولات في كثير من الأنواع، حتى في الليل والنهار، وفي الشتاء والربيع.. وهي تشابه الحشر والنشر، وهي نوع من القيامة لكل منها، تشعر بحدوث القيامة الكبرى وتخبر عنها رمزاً.''[13] وأن الذي ''زين بستان الربيع العظيم الواسع بمئات الآلاف من نقوش الحشر، يتوج بها هامة الكرة الأرضية كأنها زهرة واحدة، فيظهر لنا جمال صنعته وكمال حكمته.'' هل يجرؤ أحد ليقول لهذا القدير ذي الجلال ''كيف يحدث القيامة ؟ أو كيف يبدل هذه الدنيا بآخرة؟''[14]

والنورسي يعاين الحقيقة مقارنة بالصورة فيرى أنها مهما كانت ضعيفة فإنها لا تموت أبداً، ولا يمكن أن تمحى كالصورة، بل تسير وتجول في الصور والتشخصات والأشكال المختلفة، إذ تكبر وتظهر كلما تقدمت، بعكس الصورة فإنها تتهرأ وتهزل وتتمزق وتتجدد لتظهر بحلة جميلة جديدة تلائم قوام الحقيقة الثابتة الكبيرة. وهو يخلص إلى القول بأن ''الحقيقة والصورة تتناسبان عكسياً زيادة ونقصاناً، أي كلما أخشوشنت الصورة رقت الحقيقة، وكلما ضعفت الصورة تقوت الحقيقة بالنسبة نفسها، وهذا قانون شامل لجميع الأشياء الداخلة في قانون التكامل. فليأتين ذلك

الزمن الذي يتمزق فيه –بإذن الفاطر الجليل– عالم الشهادة الذي هو صورة لحقيقة الكائنات العظمى وحشر لها، ومن ثم يتجدد بصورة أجمل..''[15]

كما أنه يلاحظ اصطراع الأضداد في هذا العالم: كالخير والشر، والحسن والقبح، والنفع والضر، والكمال والنقص، والضياء والظلمة، والهداية والضلال، والنور والنار، والإيمان والكفر، والطاعة والعصيان، والخوف والمحبة.. وأنه لابد من نهاية لهذا الاصطراع الذي تتميز فيه الأضداد وتفترق، لكي تصب أخيراً في سياقين كبيرين: الجنة والنار.. ''ولما كان عالم البقاء سيبنى من عالم الفناء هذا، فالعناصر الأساسية لعالمنا – إذن– ستساق وترسل حتماً إلى البقاء والأبد.''[16] في أقصى صيغ التكشف والتنامي والاكتمال حيث لا يعتورها نقص أو غبش أو صيرورة أو تغير أو تحول أو فناء.. ويومها ستأخذ جهنم، باعتبارها المصير الأخير للقبح، صورتها الأبدية البشعة المريعة، وتتجلى الجنة بروعتها وأبهتها الجمالية الخالدة.. وسيمنح أهل هذين الدارين الخالدين وجوداً ثابتاً لا يعتريه تغير ولا انحلال..[17]

ثم هو يخلص بعد هذا كله إلى حتمية البعث.. ''نعم. إن الدنيا بعد دمارها ستبعث آخرة، وإن الخالق القدير الذي بناها لأول مرة، سيعمرها تعميراً أجمل من عمارتها الأولى.. فلأنه وعد فسيفي بالوعد حتماً.''[18]

[٤]

والنورسي يملك تذوقاً لجماليات الجنة يذكرنا بتذوقات المتصوفة والزهاد.. ولكنه قد يختلف عنهم برؤيته التوازنية التي ترفض الذهاب بعيداً باتجاه الثواب المعنوي على حساب '' الحسيات '' المؤكدة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. ولأنه الابن البار لهذين المصدرين التأسيسيين لعقيدة الآخرة بثوابها وعقابها.. وبنعيمها وعذابها.. فإنه يعرف كيف يظل وفياً لمعطياتها وهو يجول في المأثورات الخاصة بالجنة، دون أن ينحرف ذات اليمين أو ذات الشمال.. بل نلحظه، منذ البدء، ينطلق من آيات القرآن الكريم التي تخص الجنة واصفاً إياها بأنها ''أجمل من الجنة، وألطف من حورها، وأحلى من سلسبيلها'' وأن هذه الآيات البينات ''لم تدع مزيداً لكلام.''[19] لذا فإن كل ما سيفعله هو نوع من المقاربة ''لتلك الآيات الساطعة الأزلية الرفيعة الجميلة''، وأنه، انطلاقاً من هناك، سيقدم لقارئه ''باقة من مسائل لطيفة هي نماذج أزاهير من جنة القرآن''، معتمداً الترميز، مؤكداً منذ البدء، أن الجنة ''شاملة جميع اللذائذ المعنوية، كما هي شاملة جميع اللذائذ المادية، الجسمانية أيضاً.''[20] وهو من أجمل تأكيد المعطيات الإيمانية

بهذا الخصوص يثير –عادته– سؤالاً، أو اعتراضاً، لكن ما يلبث أن يجيب عليه، فيمنح مقولاته –بهذا التقابل– حيوية وإقناعاً، وينقذها من التجريد.. إنه يسأل: ‘‘ما علاقة الجسمانية (المادية) القاصرة الناقصة المتغيرة القلقة المؤلمة، بالأبدية والجنة ؟ فما دامت الروح تكتفي بلذائذها العلوية في الجنة، فلم يلزم حشر جسماني للتلذذ بلذائذ جسمانية؟’’

وما يلبث أن يجيب: ‘‘على الرغم من كثافة التراب وظلمته، نسبة إلى الماء والهواء والضياء، فهو منشأ لجميع أنواع المصنوعات الإلهية، لذا يسمو ويرتفع معنى فوق سائر العناصر.. وكذا النفس الإنسانية على الرغم من كثافتها، فإنها ترتفع وتسمو على جميع اللطائف الإنسانية بجامعيتها بشرط تزكيتها. فالجسمانية كذلك هي أجمع مرآة لتجليات الأسماء الإلهية، وأكثرها إحاطة وأغناها.. فالآلاف التي لها القدرة على وزن جميع مدخرات خزائن الرحمة الإلهية وتقديرها، إنما هي في الجسمانية، إذ لو لم تكن حاسة الذوق التي في اللسان مثلاً حاوية على آلات لتذوق الرزق بعدد أنواع المطعومات كلها، لما كانت تحس بكل منها، وتتعرف على الاختلاف فيما بينها، ولما كانت تستطيع أن تحس وتميز بعضها عن بعض، وكذا فإن أجهزة معرفة أغلب الأسماء الإلهية المتجلية، والشعور بها وتذوقها وإدراكها إنما هي في الجسمانية. وكذا فإن الاستعدادات والقابليات القادرة على الشعور والإحساس بلذائذ لا منتهى لها، وبأنواع لا حدود لها، إنما هي في الجسمانية.

‘‘يفهم من هذا أن صانع هذه الكائنات، قد أراد أن يعرف بهذه الكائنات جميع خزائن رحمته، ويعلم بها جميع تجليات أسمائه الحسنى، ويذيق بها جميع أنواع نعمه وآلائه، وذلك من خلال مجرى حوادث هذه الكائنات وأنماط التصرف فيها، ومن خلال جامعية استعدادات الإنسان.. فلابد إذن من حوض عظيم يصب فيه سيل الكائنات العظيم هذا.. ولابد من معرض عظيم يعرض فيه ما صنع في مصنع الكائنات هذا.. ولابد من مخزن أبدي تخزن فيه محاصيل مزرعة الدنيا هذه.. أي لابد من دار سعادة تشبه هذه الكائنات إلى حد ما، وتحافظ على جميع أسسها الجسمانية والروحانية.. ولابد أن ذلك الصانع الحكيم والعادل الرحيم، قد خص لذائذ تليق بتلك الآلات الجسمانية أجرة لوظائفها، ومثوبة لخدماتها، وأجراً لعبادتها الخاصة. وإلا تحصل حالة منافية تماماً لحكمته سبحانه وعدالته ورحمته، مما لا ينسجم ولا يليق بجمال رحمته وكمال عدالته مطلقاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.’’[21]

ليس هذا فحسب، بل إن اللذائذ والجماليات الحسية، ستتغاير في الكم والنوع، عما كانت عليه في الحياة الدنيا، وستتخذ ''صوراً رفيعة جداً، وسامية جداً'' وستصير أكثر لطافة وذوقاً، بما يليق بالجنة ويلائم الأبدية، بل إن المواد الجامدة التي لا شعور لها ولا حياة في دار الدنيا هذه، تصبح هناك ذات شعور وحياة[22].

والنورسي يؤكد في أكثر من موضع على ''أن التزيينات في هذه الدنيا ليست لأجل التلذذ والتمتع فحسب، إذ لو أذاقتك اللذة ساعة، أذاقتك الألم بفراقها ساعات وساعات، فهي تذيقك مثيرة شهيتك دون أن تشبعك، لقصر عمرها أو لقصر عمرك الذي لا يكفي للشبع.'' ثم هو يصل إلى القول بأن ''هذه الزينة الغالية الثمن والقصيرة العمر هي للعبرة والشكر، وللحض على الوصول إلى تناول أصولها الدائمة، ولغايات أخرى سامية.'' إن ''هذه الزينة في الدنيا بمثابة صور ونماذج للنعم المدخرة لدى الرحمة الإلهية في الجنة للمؤمنين.''[23]

والنورسي وهو يتحدث عن جماليات الجنة يوغل في التفاصيل والمقارنات والتشبيهات التي ينسجها –في الأساس– من حقائق القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ.. وهو يستجيش كل قدراته العقلية والحسية والروحية والذوقية والوجدانية، لمقاربة الصورة، وتعميق خطوطها ومساحاتها في الحس والخيال والوجدان.

إن قارئ النورسي يجد نفسه، المرة تلو المرة، وهو يسيح في رياض الجنة ونعيمها.. ليس بخياله، ولكن بكينونته، فكأنه يراها بأم عينيه، ويشمها ويتذوقها.

وهو يقدم تشبيهات بديعة من أجل التحقق بالمقاربة المطلوبة، لهذه المفردة أو تلك من مفردات الثواب الكبير والإنعام الإلهي الذي لا تحده حدود، وسنكتفي باثنتين منها حسبما يسمح به المجال.

إنه –مثلاً– يتحدث عن طبقات الجنة الثماني: كل منها أعلى من الأخرى إلا أن عرش الرحمن سقف الكل: ''الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وأوسطها وفوقه عرش الرحمن.''[24] إذ لو بنيت بيوت متداخلة حول جبل مخروطي، كل منها أعلى من الآخر، كالدوائر المحيطة بالجبل، فإن تلك الدوائر تعلو الواحدة على الأخرى، ولكن لا تمنع الواحدة الأخرى عن رؤية الشمس، فنور الشمس ينفذ في البيوت كلها، كذلك الجنان شبيهة بهذا المثال إلى حد، كما نفهم من الأحاديث الشريفة.[25]

ويقف بعض الوقت عند الأحاديث الشريفة التي تحكي عن المرأة من نساء أهل الجنة يرى مخ سوقها من وراء سبعين حلة، كما يرى الشراب الأحمر من الزجاجة البيضاء،[26] ويتساءل: كيف يعد هذا جمالاً؟ ثم ما يلبث أن يجيب: ''إن الحور العين جامعة لكل نوع من أنواع الزينة والحسن والجمال المادية والمعنوية، التي تشبع وترضي كل ما في الإنسان من مشاعر وحواس وقوى ولطائف عاشقة للحسن، ومحبة للذوق، ومفتونة بالزينة، ومشتاقة إلى الجمال. بمعنى أن الحور يلبسن سبعين طرزاً من أقسام زينة الجنة، دون أن يستر أحدها الآخر، إذ ليس من جنسه، بل يبدين جميع مراتب الحسن والجمال المتنوعة بأجسادهن وأنفسهن وأجسامهن بأكثر من سبعين مرتبة حتى يظهرن حقيقة إشارة الآية الكريمة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾[27]...''[28]

باختصار شديد، فإن ''الجنة بجميع لطائفها وجمالها ونعيمها إنما هي تجل لإظهار جمال رحمته –سبحانه– ورحمة جماله!!''[29]

[٥]

والنورسي يمضي مصعداً في قراءة آثار الجمال في كتاب الغيب الكبير التي لا تنقضي عجائبه.. حتى إذا بلغ الذات الإلهية وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى جل جلاله، وتقدست أسماؤه وأفعاله وصفاته.. حاول أن يمد يديه إلى تلامذته لكي يرفعهم معه إلى هناك من أجل أن تُمْلَى بعض انعكاسات الجمال الإلهي على صفحة الوجود المنظور، أو في أغوار الروح والوجود، بقدر ما يطيق الإنسان أن يتعامل معه، ويتملاه، وإلا فإنها الصعقة التي خر لها موسى مغشياً عليه، يوم أن دفعه الشوق العارم لرؤية الله سبحانه فنادى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فجاءه الجواب: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا﴾. الأعراف:١٤٣

لم يطق الجبل العظيم شحنة التجلي الكبرى، فصار هباءً.. فكيف بالإنسان، إنما هي القبسات التي تطيقها قدراته هنا في الأرض، والتي إن تمكنت من اجتياز الامتحان الصعب في حياتها الدنيا، وكتب لها النعيم المقيم في الآخرة، أعطيت استعداداً أكبر بكثير، وبالقدر الذي تستحقه، لتلقي سيال الجمال الإلهي.. قمة الرضوان، وهدف المؤمنين والصديقين والشهداء.. الغالي.. العزيز ''فاللذة والحسن والكمال والسعادة الحقيقية في الأوصاف الراقية الرفيعة –إذن– لا ترجع إلى الأقران ولا تنظر إلى

الأضداد، بل إلى مظاهرها ومتعلقاتها، فإن جمال رحمة ذي الجمال والكمال، الحي القيوم، الحنان المنان، الرحمن الرحيم، ينظر ويتوجه إلى المرحومين الذين نالوا رحمته، ولا سيما إلى أولئك الذين نالوا أنواع رحمته الواسعة وشفقته الرؤوفة في الجنة الخالدة. وله جل وعلا ما يشبه المحبة –تليق بذاته سبحانه– بمقدار سعادة مخلوقاته وبمدى تنعمهم وفرحهم، وله شؤون سامية مقدسة جميلة منزهة ذات معانٍ تليق به سبحانه وتعالى، ما لا نستطيع أن نذكرها –لعدم وجود إذن شرعي– من التعابير المنزهة للغاية، والمقدسة الجليلة، والتي يعبر عنها باللذة المقدسة والعشق المقدس والفرح المنزه والسرور القدسي، بحيث إن كلا منها هي أسمى وأرفع وأنزه، بما لا يتناهى من درجات العلو والسمو والنزاهة مما يظهر في الكائنات وما تشعر به من العشق والسرور بين الموجودات.''[30]

مهما يكن من أمر، فإن النورسي يفرش في '' كلماته '' لجماليات الذات الإلهية وكمالها، وتجليات أسمائها الحسنى.. مساحات واسعة، ما فرشها بهذا القدر، لحقيقة أخرى في الوجود.. ويصعب على المرء –والحالة هذه– أن يستقصي ما قدمه الرجل في هذا المجال، أو أن يقرأه من ألفه حتى يائه.. ولكنها الشواهد والإشارات، قد تقرب المسألة، وتغني عن الكثير.

ولعل نقطة الارتكاز في معطيات النورسي هنا، تبدو في المساحات الواسعة التي خصصها لأسماء الله الحسنى وتجلياتها في العالم، بالنسب والمواصفات التي يطيقها هذا العالم، وفي حدود الحكمة من الخلق ومعادلات الوجود والمصير: ''الحقائق الحقيقية للأشياء، إنما هي الأسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الأشياء فهي ظلال تلك الحقائق.''[31]

ويجب أن نلحظ –ابتداءً– أن وصف أسماء الله سبحانه ''بالحسنى''، يحمل مغزاه في هذا المجال. إن هذه الصفة مشتقة من قاموس الحسن والجمال، وأن أسماءه – سبحانه– تنطوي بالضرورة على البعد الجمالي، الذي هو خصيصة من خصائص الذات الكاملة المبدعة الخلاقة، جلت في علاها. وليس ثمة أكثر تبياناً وتأكيداً لهذه المسالة التاسيسية لجماليات الحضور الإلهي، من ذلك المثال الذي يضربه النورسي في الموقف الثالث من الكلمة الثانية والثلاثين، والذي نجدنا مضطرين لاقتطاع بعض فقراته، محيلين القارئ الكريم إلى تفاصيله الكاملة في ''الكلمات.''[32] ''إذا أراد فنان بارع في التصوير والنحت، رسم صورة زهرة فائقة الجمال، وعمل تمثال حسناء رائعة

الحسن، فإنه يبدأ أول ما يبدأ بتعيين بعض خطوط الشكل العام لكل منهما.. فتعيينه هذا إنما يتم بتنظيم ويعمله بتقدير يستند فيه إلى علم الهندسة فيعين الحدود وفقه.. فهذا التنظيم والتقدير يدلان على أنهما فعلاً بعلم وبحكمة.. وها قد بدأت قابلية الحسن والزينة في الظهور مما يدل على أن الذي يحرك الصنعة والعناية هو إرادة التجميل والتحسين وقصد التزيين.. ولما كان الجمال يحب نفسه، فلابد أنه يريد رؤية نفسه في المرايا، فالنعم الموضوعة على التمثال، والثمرات اللطيفة المعلقة على الصورة، تحمل لمعة براقة من ذلك الجمال المعنوي –كل حسب قابليته– فتظهر تلك اللمعات الساطعة نفسها إلى صاحب الجمال وإلى الآخرين معاً.. وعلى غرار هذا المثال ينظم الصانع الحكيم وَلِلّٰهِ الْمَثَلُ الْاَعْلٰى الجنة والدنيا والسماوات والأرض والنباتات والحيوانات والجن والأنس والملك والروحانيات، أي بتعبير موجز ينظم سبحانه جميع الأشياء كلها وجزئياتها، ينظمها جميعاً بتجليات أسمائه الحسنى، ويعطي لكل منها مقداراً معيناً حتى يجعله يستقرئ اسم ''المقدر، المنظم، المصور..'' وهكذا بتعيينه سبحانه وتعالى حدود الشكل العام لكل شيء تعييناً دقيقاً يظهر اسم ''العليم'' ''الحكيم''. ثم يرسم بمسطرة العلم والحكمة ذلك الشيء ضمن الحدود المعينة، رسماً متقناً إلى حد يظهر معاني الصنع والعناية، أي اسمي: الصانع، الكريم، ثم يضفي على تلك الصورة جمالاً وزينة، بفرشاة العناية وباليد الكريمة للصنعة، فإن كانت الصورة إنساناً أضفى على أعضائه كالعين والأنف والأذن ألواناً من الحسن والجمال، وإن كانت الصورة زهرة أضفى سبحانه إلى أوراقها وأعضائها وخيوطها الرقيقة ألواناً من الجمال والرواء والحسن، وإن كانت الصورة أرضاً منح معادنها ونباتاتها وحيواناتها ألواناً من الزينة وضروباً من الجمال والحسن، وإن كانت الصورة جنة النعيم أسبغ على قصورها ألواناً من الحسن وعلى حورها أنواعاً من الزينة.. وهكذا قس على هذا المنوال..''[33]

في حديثه عن تجليات اسم ''الجواد، الجميل'' يتساءل النورسي: ''اَمِنْ الممكن.. لجمال سرمدي لا مثيل له، وكمال أبدي لا نقص فيه أن لا يطلب دار سعادة ومحل ضيافة يخلد فيه.. المشتاقون إلى الجمال، المعجبون به؟'' وما يلبث أن يجيب: ''انظر إلى معارض أقطار العالم التي هي مشهد من مشاهد الصنعة الإلهية وتدبر في ما تحمله النباتات والحيوانات على وجه الأرض من إعلانات ربانية، وأنصت إلى الداعين الأدلاء إلى محاسن الربوبية وهم الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحون، كيف أنهم

يرشدون جميعاً الناس لمشاهدة كمال صنعة الصانع ذي الجلال بتشهيرهم صنعته البديعة ويلفتون أنظارهم إليها.

إذن، فلصانع هذا العالم كمال فائق عظيم مثير للإعجاب، خفي مستتر، فهو يريد إظهاره بهذه المصنوعات البديعة لأن الكمال الخفي الذي لا نقص فيه ينبغي الإعلان عنه على رؤوس أشهاد مقدرين مستحسنين معجبين به، وإن الكمال الدائم يقتضي ظهوراً دائماً، وهذا بدوره يستدعي دوام المستحسنين المعجبين، إذ المعجب الذي لا يدوم بقاؤه تسقط في نظره قيمة الكمال. ثم إن هذه الموجودات العجيبة البديعة الدقيقة الرائعة المنتشرة في هذا الكون تدل بوضوح على محاسن الجمال المعنوي الذي لا مثيل له، وتريك كذلك لطائف الحسن الخفي الذي لا نظير له. وان تجلي ذلك الحسن الباهر المنزه، وذلك الجمال الزاهر المقدس يشير إلى كنوز كثيرة خفية موجودة في الأسماء الحسنى، بل في كل اسم منها. ومثلما يطلب هذا الجمال الخفي السامي الذي لا مثيل له، أن يرى محاسنه في مرآة عاكسة، ويشاهدون قيم حسنه ومقاييس جماله في مرآة ذات مشاعر وأشواق إليه، فإنه يريد الظهور والتجلي ليرى جماله المحبوب أيضاً بأنظار الآخرين. أي أن النظر إلى جمال ذاته يستدعي أن يكون من جهتين:

"الأولى: مشاهدة الجمال بالذات في المرايا المختلفة المتعددة الألوان. والأخرى: مشاهدة الجمال بنظر المشاهدين المشتاقين المعجبين المستحسنين أي أن الجمال والحسن يقتضيان الشهود والأشهاد، وهذان يستلزمان وجود المشاهدين المشتاقين والمستحسنين المعجبين. ولما كان الجمال والحسن خالدين سرمديين فإنهما يقتضيان خلود المشتاقين وديمومتهم. لأن الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل الآفل.. ولما كان ذلك الجود في العطاء غير المحدود، وذلك الحسن في الجمال الذي لا مثيل له، وذلك الكمال الذي لا نقص فيه، يقتضي خلود الشاكرين، وبقاء المشتاقين المستحسنين، ونحن نشاهد رحلة كل شخص واختفاءه بسرعة في دار ضيافة الدنيا هذه، دون أن يستمتع بإحسان ذلك السخاء إلا نزراً يسيراً بما يفتح شهيته فقط، ودون أن يرى من نور ذلك الجمال والكمال إلا لمحة خاطفة. إذن الرحلة منطلقة نحو متنزهات خالدة ومشاهد أبدية."[34]

بهذا يضع النورسي قارئه ليس –فقط– أمام مقتضيات المنطق الذي يحتم مضي

الأسباب إلى نتائجها، وإنما أيضاً أمام قوة الواقعة المنظورة ودلالاتها التي يفضي بعضها إلى بعض، بدءً بتشكل الجزئيات والمشاهد الجمالية المحدودة في الحياة الدنيا، وانتهاء بالحالة الكاملة في " متنزهات " النعيم المقيم و"مشاهد الأبدية."

ما من شيء في هذا العالم.. ما من قيمة أو معطى جميل إلا وهو يومئ ويومض، من خلال نسبه المجزوءة، ووجوده المرسوم بمقدار، إلى الصيغة العليا التي يمضي فيها إلى مداه، ويتكشف عن أبعادها المدهشة المذهلة كلها.

إن النورسي، وهو يضع قُرَّاءهُ قبالة الواقعة الكونية، كأَنَّمَا يُقَدِّم لهم وسيلة إيضاح هي أقوى وأشد تأثيراً وإقناعاً من مئات من الصفحات تدور فيها الكلمات والمعاني في رحى التحليل والتعليل العقليين اللذين يعانيان من جفاء التجريد ووحشة الانفصال عن خفقان الحياة.. إنه هنا يذكر بمنهج القرآن الكريم نفسه، حيث يجد الإنسان نفسه قبالة الواقعة الكونية تماماً، بكل ثقلها وحضورها، وهنالك لا يمكن لكل ذي قلب ذكي وعقل سليم غير ملتوٍ ولا معاند، إلا أن يذعن للحق المشهود.

يعود النورسي في مقطع آخر للحديث عن تجلي اسم "الجميل والجليل" ويتساءل –كعادته– من أجل استفزاز قارئه، ووضعه في حالة الدهشة والإنكار!! "اَمِنْ الممكن لمبدع هذه الموجودات، وهو العليم المطلق، والقدير المطلق، أن لا يوفي بما أخبر به؟.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.. علماً أن الأمور التي وعد بها.. ليست عسيرة على قدرته قطعاً، بل هي يسيرة وهينة وسهلة، كسهولة إعادة الموجودات التي لا تحصل للربيع السابق، في الربيع المقبل.."[35]

[٦]

ويمضي النورسي يعرض قبالة الوجدان البشري حشوداً متلاحقة من الوقائع والمعطيات المشهودة، تأخذ بالحس والعقل والوجدان وتمنحها القناعة بمصداقية التحول المحتوم من المجزوء إلى الكلي ومن النسبي إلى المطلق . ومن الومضة والإيماءة إلى الحقيقة الأصلية بعيداً عن تكلف الجدل ومماحكته.. " فهل يعقل لحكيم ذي جلال اختار هذا الإنسان من بين المخلوقات، وجعله مخاطباً كلياً له، ومرآة جامعة لأسمائه الحسنى، ومقدراً لما في خزائن رحمته من ينابيع، ومتذوقاً لها ومتعرفاً إليها، والذي عرف –سبحانه– ذاته الجليلة له بجميع أسمائه الحسنى، فأحبه وحبّبه إليه.. أفمن المعقول بعد كل هذا أن لا يرسل ذلك (الحكيم) جل وعلا هذا

الإنسان المسكين إلى مملكته الخالدة تلك؟ ولا يسعده في تلك الدار السعيدة بعد أن دعاه إليها؟ أم هل يعقل أن يحمل كل موجود وظائف جمة –ولو كان بذرة– بثقل الشجرة، ويركب عليه حكماً بعدد أزهارها ويقلده مصالح بعدد ثمارها، ثم يجعل غاية وجود تلك الوظائف والحكم والمصالح جميعها مجرد ذلك الجزء الضئيل المتوجه إلى الدنيا. أي يجعل غاية الوجود هي البقاء في الدنيا فقط، الذي لا أهمية له حتى بمثقال حبة من خردل؟ ولا يجعل تلك الوظائف والحكم والمصالح بذوراً لعالم المعنى، ولا مزرعة لعالم الآخرة لتثمر غاياتها الحقيقية اللائقة بها؟ وهل يعقل أن تذهب جميع هذه المهرجانات الرائعة والاحتفالات العظيمة هباءً بلا غاية، وسدى بلا معنى، وعبثاً بلا حكمة ؟ أم هل يعقل أن لا يوجه كلها إلى عالم المعنى وعالم الآخرة لتظهر غاياتها الأصيلة وأثمارها الجديرة بها؟..''[36]

وكما ترى، فإن أسئلة النورسي تتلاحق كالسيل، فتحاصر القارئ وترغمه على قبول الحقيقة، والإذعان لمقولاتها المنظورة، وحيثياتها المتشكلة قبالة السمع والبصر والفؤاد.

وما يلبث النورسي، وهو يعاين أسماء الله الحسنى وتجلياتها في الوجود، أن يرفع هذا النداء المؤثر الذي ينطوي على حشد من الدلالات الجمالية: ''يا ربي الرحيم.. لقد أدركت.. أن تجليات الأسماء الحسنى –ذات الجلال والجمال– الظاهرة آثارها في هذه الدنيا، وفي العوالم كافة، ستدوم دواماً أسطع وأبهر في أبد الآباد، وأن تجلياتها –ذات الرحمة– وآلاءها المشاهدة نماذجها في هذا العالم الفاني، ستثمر بأبهى نور وأعظم تألق، وستبقى دوماً في دار السعادة. وأن أولئك المشتاقين الذين يحملونها –في هذه الدنيا القصيرة– بلهفة وشوق، سيرافقونها بالمحبة والود، ويصحبونها إلى الأبد، ويظلون معها خالدين..''[37]

والتجلي، بالنسبة التي يطيقها ويستحقها كل شيء في هذا الكون، يجيء بمثابة إضاءة لهذا الكون.. تمضي وتنتشر لكي تلف الكائنات والأماكن والأزمان كلها بألَقها الجميل: ''نعم، إن مثل هذا التجلي، تجلي الحياة الذي هو ضياء شمس الحياة الأولية، لن ينحصر في عالم الشهادة هذا فقط، ولا في هذا الزمان الحاضر، ولا في هذا الوجود الخارجي، بل لابد أن لكل عالم من العوالم مظهراً من مظاهر تجلي ذلك الضياء حسب قابليته. فالكون إذن بجميع عوالمه، حي ومشع مضيء بذلك التجلي، وإلا لأصبح كل من العوالم –كما تراه عين الضلالة– جنازة هائلة مخيفة تحت هذه

الدنيا المؤقتة الظاهرة، وعالماً خرباً مظلماً..''[38] لكن الذين ينظرون إلى هذا الكون بنظر العبرة، فإنهم سيستشعرون بوجدانهم وقلوبهم، وبحدس صادق، أن الذي يجمل هذه الكائنات ويزينها بأنواع المحاسن، لاشك أن له جمالاً وكمالاً لا منتهى لهما، ولهذا يظهر الجمال والكمال على فعله[39].

والنورسي يرى أن في فطرة كل واحد منا قد أودعت مفاتيح الأجهزة التي تفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، فتعرف الله –جل وعلا– بتلك الأسماء وأن هذه الأسماء ركبت في كل واحد منا، من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها، ما يوجب إظهاره أمام أنظار المخلوقات بجوانبه كافة في معرض الدنيا، وأن على الإنسان أن يتجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي منحته إياها تجليات الأسماء، وإبرازها أمام نظر الشاهد الأزلي جل وعلا ''مثله في هذا كمثل الجندي الذي يتقلد الشارات المتنوعة التي منحها السلطان في مناسبات رسمية، ويعرضها أمام نظره ليظهر آثار تكرمه عليه وعنايته به.''[40]

وهو يعود في (الكلمة الثالثة والعشرين) لكي يجمل الوظائف الإنسانية وأساسيات العبودية في منظومة من الممارسات التي تنطوي جميعاً على بُعد جمالي ملحوظ: التصديق بالطاعة لسلطان الربوبية الظاهر في الكون، والنظر إلى كماله سبحانه ومحاسنه بإعجاب وتعظيم. ثم استنباط العبرة والدروس من بدائع نقوش أسمائه الحسنى القدسية ونشرها وإشاعتها. ثم وزن جواهر الأسماء الربانية ودررها.. بميزان الإدراك والتبصر وتقييمها بأنوار التقدير والعظمة النابعة من القلب، ثم التفكر بإعجاب عند مطالعة أوراق الأرض والسماء وصحائف الموجودات التي هي بمثابة كتابات قلم القدرة. ثم النظر باستحسان بالغ إلى زينة الموجودات والصنائع الجميلة. اللطيفة التي فيها، والتحبب لمعرفة الفاطر ذي الجمال والتلهف إلى الصعود إلى مقام حضور عند الصانع ذي الكمال ونيل التفاته الرباني.''[41]

إن المؤمن الحق يرى كيف أن جليلاً جميلاً يظهر في مرآة الموجودات كبرياءه وعظمته وكماله، ويبرز جلاله وجماله، بحيث يجلب إليها الأنظار.. لن يكون أمامه سوى أن يردد ''الله أكبر، سبحان الله'' و''يسجد سجود من لا يمل، بكل حيرة وإعجاب، وبمحبة ذائبة في الفناء.''[42] إن الإنسان بمثل هذه العبادة والتفكر يصبح إنساناً حقاً.. ويصير لائقاً للأمانة الكبرى وخليفة أميناً على الأرض.[43]

بل إن النورسي يدعونا للإنصات إلى كل كائن في هذا الوجود ولسوف نسمعه يرفع النداء إلى الله سبحانه ذي الجلال والجمال.. البحر الهائج والأرض المهتزة بالزلازل تناديان: يا جليل يا جليل.. فراخ الحيوانات في البحر والأرض تترنم: يا جميل يا جميل.. السماء تنادي: يا جليل ذو الجمال.. الأرض تردد: يا جميل ذو الجلال.. الربيع وهو يجأر بالدعاء: يا مصور، يا منور، يا محسن، يا مزين ''وأسال إنساناً هو حقاً إنسان وشاهد كيف يقرأ جميع الأسماء الحسنى، فهي مكتوبة على جبهته، حتى إذا أنعمت النظر ستقرؤها أنت بنفسك. وكأن الكون كله موسيقى متناغمة الألحان لذكر عظيم. فامتزاج أصغر نغمة وأوطئها مع أعظم نغمة وأعلاها ينتج لحناً لطيفاً مهيباً.''[44]

كما أن النورسي يذكرنا في أكثر من موضع بحقيقة ''أن الصنائع الموزونة، المنتظمة الجميلة تستند إلى برنامج في غاية الحسن والإتقان، والبرنامج الكامل المتقن الجميل يستند إلى علم جميل، وإلى ذهن حسن، وإلى قابلية روحية كاملة وهذا يعني أن الجمال المعنوي للروح يظهر في الصنعة بالعلم. فهذه الكائنات وما فيها، مع جميع محاسنها المادية التي لا تعد ولا تحصى، ما هي إلا ترشحات محاسن معنوية وعلمية، وتلك المحاسن والكمال العلمي والمعنوي لاشك أنها جلوات حسن وجمال وكمال سرمدي. ومن المعلوم أن المشع للنور يستلزم أن يكون متنوراً، وكل مضيء يستلزم أن يكون ذا ضوء، والإحسان يرد من الغنى واللطف يظهر من اللطيف. لذا فإضفاء الحسن والجمال على الكائنات''، ''ومنح الموجودات أنواعاً من الكمالات المختلفة، يدل على جمال سرمدي كدلالة الضوء على الشمس. ولما كانت الموجودات تجري جريان النهر العظيم وتلتمع بالكمال ثم تمضي. فمثلما يلتمع ذلك النهر بجلوات الشمس، فإن سيل الموجودات هذا يلتمع مؤقتاً بلمعات الحسن والجمال والكمال ثم يمضي إلى شأنه. ويفهم من تعاقب اللمعات بأن جلوات حبابات النهر الجاري وجمالها ليست ذاتية، بل هو جمال ضياء شمس منورة وجلواتها. فالمحاسن والكمالات التي تلتمع مؤقتاً على سيل الكائنات، إنما هي لمعات جمال أسماء من هو نور سرمدي. نعم! تفاني المرآة زوال الموجودات مع التجلي الدائم مع الفيض الملازم، من أظهر الظواهر من أبهر البواهر على أن الجمال الظاهر، أن الكمال الزاهر ليسا ملك المظاهر، من أفصح تبيان من أوضح برهان للجمال المجرد للإحسان المحدد، للواجب الوجود للباقي الودود.''[45]

[٧]

ويرى النورسي ‘‘أن جميع ما في الوجود، والحياة كلها، وعالم الأرواح، وعالم المثال، مرايا شبه شفافة لإظهار جمال ذلك القدوس الجليل الذي صفاته محيطة بكل شيء، وشؤونه شاملة لكل شيء.’’[46] بل إن جميع أنواع الحسن والكمال والجمال الموجودة في الكون كله، ما هو إلا ظل ضعيف بالنسبة لكماله الحقيقي.[47] ويتساءل متحدياً: ‘‘ترى أي شيء يستطيع أن يتستر عن توجه أحديته التي هي ضمن تجلي صفاته المحيطة وتجلي أفعاله بإرادته الكلية وقدرته المطلقة وعلمه المحيط؟’’[48] ثم يخلص إلى القول بأن ‘‘الجليل ذا الجمال، والجميل ذا الكمال.. هو أقرب إليك من كل شيء، وأنت بعيد عنه سبحانه بعداً لا حد له’’ وأن التحقق بالمقاربة لن يتأتى إلا لمن يملك ‘‘قوة في القلب وعلواً في العقل.’’[49]

وتجيء العبادة لتكون معراج المؤمن إلى الله.. ‘‘والمثول أمام الجليل ذي الجمال والمعبود ذي الجلال. فأنت عندما تقول (الله أكبر) تمضي معنى وتقطع خيالاً، أو نية، الدنيا والآخرة، حتى تتجرد عن القيود المادية فتصعد مكتسباً مرتبة عبودية كلية.. وتتشرف بنوع من الحضور القلبي والمثول بين يديه تعالى فتنال الحظوة العظمى.’’[50]

إن معنى العبادة، كما يؤكد النورسي، ‘‘هو سجود العبد بمحبة خالصة وبتقدير وإعجاب في الحضرة الإلهية، وأمام كمال الربوبية والقدرة الصمدانية والرحمة الإلهية، مشاهداً بنفسه تقصيره وعجزه وفقره.’’[51] هذا المعنى الذي ينطوي على حشد من القيم الجمالية تعكسها المفردات التي يعتمدها النورسي . إننا –مثلاً– نجد أنفسنا قبالة ‘‘المحبة الخالصة’’ و‘‘التقدير’’ و‘‘الإعجاب’’ و‘‘الكمال’’، ما يجعل الممارسة التعبدية تعين على إغناء الخبرة الجمالية للإنسان في مستوياتها العليا.[52]

وتظل أسماء الله الحسنى.. ألف اسم ينطوي على ‘‘ طبقات حسن وجمال وفضل وكمال كثيرة جداً ‘‘ بمثابة الوقود الذي يعين على الصعود.. نار العشق التي تشتعل في الحنايا فتدفعها إلى طلب المزيد.. ويصير الكون.. جوهر الكون هو المحبة.. وتتحرك الموجودات بالمحبة.. وتفعل قوانين الانجذاب والجذب والجاذبية فعلها المدهش، فتغمر بالنشوة العليا، الذرات والأفلاك والنجوم والسماوات والشمس والقمر والنباتات والأشجار:

‘‘كل ذرات الوجود في نشوة المحبة.
الفلك نشوان والملك نشوان.

النجوم والسماوات نشاوى.
القمر والشمس نشوى.. والأرض نشوى.
والعناصر والنباتات والأشجار نشاوى..

بمعنى أن كل شيء نشوان من شراب المحبة بتجلي المحبة الإلهية، كل حسب استعداده. ومن المعلوم أن كل قلب يحب من يحسن إليه، ويحب الكمال الحقيقي، ويعشق الجمال السامي.. ترى ما مدى العشق والمحبة التي تليق بمن له في كل اسم من أسمائه ألف كنز وكنز من الإحسان والأنعام.. ومن هو مبعث ألوف طبقات الجمال..؟ ألا يفهم من هذا مدى الأحقية في نشوة الكون طراً بمحبته ؟ ولأجل ذلك ورد في الحديث الشريف ما معناه: أن رؤية جمال الله في الجنة تفوق جميع لذائذ الجنة.''[53]

ولا ينسى النورسي أن يشير إلى ما يبدو لأهل الضلال تناقضاً بين تحقير الدنيا وفسادها وقذارتها، وبين كونها مبعث كمال إلهي وحجة له. وبأسلوبه الذي يتقن إدارة المنظور، يتعامل مع المقولة الخاطئة فيلغيها من الحساب، ويؤكد أن الدنيا لها ثلاثة وجوه: ''الوجه الأول ينظر إلى أسماء الله الحسنى ويبين آثار تلك الأسماء ونقوشها، وتؤدي الدنيا –بهذا الوجه– وظيفة مرآة لتلك الأسماء بالمعنى الحرفي، فهذا الوجه مكاتيب صمدانية لا تحد، لذا يستحق العشق لا النفور لأنه في غاية الجمال. أما الوجه الثاني فينظر إلى الآخرة، فهو مزرعة الآخرة، مزرعة الجنة، موضع إزهار أزاهير الرحمة الإلهية. وهذا الوجه جميل كالوجه الأول يستحق المحبة لا التحقير. وأما الوجه الثالث فهو وجه ينظر إلى أهواء الإنسان، ويكون ستار الغافلين، وموضع لعب أهل الدنيا وأهوائهم. هذا الوجه قبيح دميم، لأنه فانٍ زائل، مؤلم، خداع، فالتحقير الوارد في الحديث الشريف، والنفور الذي لدى أهل الحقيقة هو من هذا الوجه. أما ذكر القرآن الكريم للموجودات بأهمية بالغة وإعجاب وإطراء فهو متوجه إلى الوجهين الأولين، وأن الدنيا المرغوب فيها لدى الصحابة الكرام وسائر أولياء الله في الوجهين الأولين.''[54]

وبالمقابل فإن أهل الإيمان –بخلاف أهل الضلالة– يعرفون جيداً وظائف السماوات والأرض، ومغزى خلقهما، ويقدرونهما حق قدرهما، ويصدقون حقائقهما، ويفهمون –بالإيمان– ما تفيدان من معانٍ، حيث أنهم كلما تأملوا فيهما قالوا بإعجاب: ''ما أجمل خلقهما وما أحسن ما تؤديان من وظائف!''[55]

وثمة فرق كبير بين أن تقول للشيء: ''ما أجمل هذا'' وبين أن تقول عنه: ''ما أجمله خلقاً'' أو ''ما أجمل خلقه.''[56] ففي الثانية يرد الجمال إلى مبدعه الحقيقي الأوحد، جل في علاه، وبهذا توضع الأشياء في مكانها الحق.. ''فتورث لذة حقيقية بلا ألم، وتكون وصالاً حقاً بلا زوال، فضلاً عن أنها محبة مشروعة وشكر لله في اللذة نفسها، وفكر في آلائه في المحبة عينها.''[57]

إن محبة كهذه لكل ما هو جميل، فضلاً عن أنها تمنح لذة ومتعة، فإنها تفتح السبيل أمام أذواق حب الجمال والشوق إلى الحسن لتتطلع إلى مراتب أذواق أسمى وأرفع: ''وتريه هناك كنوز تلك الخزائن النفيسة فيتملاها المرء في نشوة سامية عالية، ذلك لأن هذه المحبة تفتح آفاقاً أمام القلب ليحول نظره من آثار الصانع الجليل إلى جمال أفعاله البديعة، ومن جمال الأفعال إلى جمال أسمائه الحسنى، ومن جمال الأسماء الحسنى إلى جمال صفاته الجليلة، ومن جمال الصفات الجليلة إلى جمال ذاته المقدسة.''[58]

إنها، في ختام رحلة الصعود في المراقي العليا ''رؤية جمال مقدس، وكمال منزّه للذات الجليلة سبحانه وتعالى كما هي ثابتة بالحديث الصحيح: عن أبي هريرة ﷺ أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإلهكم ترونه كذا (والحديث بطوله)..[59] هذه الرؤية التي تساوي ساعة منها ألف ألف سنة من نعيم الجنة. فقد ورد في الحديث الشريف (... قال: فيكشف الله تبارك وتعالى تلك الحجب، ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره شيء لولا أنه قضي عليهم أن لا يحترقوا لاحترقوا مما غشيهم من نوره. قال: ثم يقال لهم: ارجعوا إلى منازلكم. قال: فيرجعون إلى منازلهم وقد خفوا على أزواجهم وخفين عليهم مما غشيهم من نوره تبارك وتعالى. فإذا صاروا إلى منازلهم ترادّ النور وأمكن حتى يرجعوا إلى صورهم التي كانوا عليها. قال: فتقول لهم أزواجهم: لقد خرجتم من عندنا على صورة، ورجعتم على غيرها؟ قال: فيقولون: ذلك بأن الله تبارك وتعالى تجلى لنا فنظرنا منه ما خفينا به عليكم).[60] ذلك هو النعيم الذي ساعة منه تفوق ألف ألف سنة من حياة الدنيا الهنيئة، كما هو ثابت لدى أهل العلم والكشف بالاتفاق.''[61]

''.. لقد أتى الجميع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك، إنهم بجمالك يتغنجون ويدللون

"يا رب! إن كل حي يتطلع من كل مكان، فينظرون معاً إلى حسنك، ويتأملون في روائع الأرض التي هي معرض صنعك..

فترقص تلك الأشجار.. جذلة من بهجة جمال نقوشك في الوجود..

لقد تسربلت كل شجرة بسربال العبودية، ومدت مئات أيديها ضارعة أمام عتبات الحضرة الإلهية..

"لكأن هذا الجمال يهز طبقات العشق، بل يمس أعمق الأوتار وأشدها حساسية..

"إن الأشياء تتوجه إلى تجليات أسماء الصانع الجليل بالتسبيح والتهليل..

أما القلب فإنه يقرأ من النظم الرفيع لهذا الإعجاز سر التوحيد في هذه الأشجار..

والعقل.. سيفهم أن كل شيء يسبح للصانع الجليل..

"وإذ صارت الأشجار أجساداً، فقد صارت الأوراق.. ألسنة، كل منها تردد.. ذكر الله بـ(هو.. هو..) بمجرد مس الهواء لها..

جميع الأشياء تقول: (لا إله إلا هو).."[62]

* * *

الهوامش:

[1] أ. د. عماد الدين خليل، جامعة الموصل – العراق.

[2] الكلمات: بديع الزمان النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، الطبعة الأولى، دار سوزلر، استانبول، ١٩٩٢ م، ص ٢١٣.

[3] نفسه ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

[4] نفسه ص ٥٩٤ – ٥٩٥.

[5] نفسه ص ٨١٢.

[6] نفسه ص ٨١٣.

[7] نفسه ص ٨١٤.

[8] نفسه ص ٨١٤ – ٨١٥.

[9] نفسه ص ٦٠٩.

[10] نفسه ص ٦١٠.

[11] نفسه ص ٦١٣.

[12] نفسه ص ٦١٤.

[13] نفسه ص ٦١٤ ٦١٥.

[14] نفسه ص ٦٢٢ – ٦٢٣.

[15] نفسه ص ٦٢٨ – ٦٢٩.
[16] نفسه ص ٦٣٠.
[17] انظر: المرجع نفسه ، ص ٦٣١ – ٦٣٢.
[18] نفسه ص ٦٣٢.
[19] نفسه ص ٥٨٥.
[20] نفسه ص ٥٨٥.
[21] نفسه ص ٥٨٥ ٥٨٦.
[22] نفسه ص ٥٨٧.
[23] نفسه ص ٧٨ ٧٩.
[24] نفسه ص ٥٨٨ ، هامش ١.
[25] نفسه ص ٥٨٨ ٥٨٩.
[26] نفسه ص ٥٨٩ ، هامش ١.
[27] نفسه ص ٥٨٩.
[28] نفسه ص ٥٨٩.
[29] نفسه ص ٧٦٢.
[30] نفسه ص ٧٤٤.
[31] نفسه ص ٧٤٩، وأنظر: المرجع نفسه ، الصفحات ٥١، ٧٨ – ٧٩ ، ٢١٥.
[32] أنظر: المرجع نفسه، ص ٧٤٩ ٧٥٤.
[33] نفسه ص ٧٤٩ – ٧٥١.
[34] نفسه ٧٠ – ٧٢.
[35] نفسه ص ٨٤.
[36] نفسه ص ٨٩.
[37] نفسه ص ١٠٨ – ١٠٩.
[38] نفسه ص ١٢٠.
[39] نفسه ص ٧٤٢.
[40] نفسه ص ١٣٨.
[41] نفسه ص ٣٧٢.
[42] نفسه ص ٣٧٣.
[43] نفسه ص ٣٧٣.
[44] نفسه ص ٣٧٨.
[45] نفسه ص ٧٤٢ – ٧٤٣.
[46] نفسه ص ٢١٤.
[47] نفسه ص ٧٤١.
[48] نفسه ص ٢١٤.
[49] نفسه ص ٢١٤.

[50] نفسه ص ٢١٩.
[51] نفسه ص ٣٩.
[52] للمزيد من التفاصيل أنظر: المرجع نفسه الصفحات ٤١ – ٤٤.
[53] نفسه ص ٧٤٦ ٧٤٧.
[54] نفسه ص ٧٤٧.
[55] نفسه ص ٧٦٣.
[56] نفسه ص ٧٦٦، وانظر المرجع نفسه ص ٨٢٠ – ٨٢١.
[57] نفسه ص ٧٦٦.
[58] نفسه ص ٧٧٢، وانظر المرجع نفسه ص ٧٧٧.
[59] رواه البخاري ومسلم.
[60] رواه البزار: انظر: الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ٤ / ٥٥٦
.. الكلمات ، ص ٧٧٩ هامش ١.
[61] الكلمات ص ٧٧٩.
[62] المرجع نفسه ، مختارات من الصفحات ٢٤٢ ٢٤٥.

منهج النورسي في التعامل مع الأسماء الإلهية الحسنى

أ.د. محمد خليل جيجك[1]

بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ

اللّٰهم إنا لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فلك الحمد والشكر حتى ترضاه وصل على سيدنا محمد كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

خلاصة البحث

إن الإمام النورسي له منهجية خاصة في قراءة تجليات الأسماء الإلهية نابعة من ثقافته الموسوعية وعلمه الغزير وصفائه الروحي وتزكيته العملية وحرصه البالغ على إثبات الحقائق الإسلامية. فهو ينطلق من محاور أربعة عبر قراءته في التجليات: ١– الترغيب/التحبيب، ٢– الترهيب/التنفير، ٣–الحكمة، ٤–التوصيل والربط.

إن الإمام النورسي حينما يسير في ظلال أسماء الله الحسنى من أمثال **"الرحمن"** و**"الرحيم"** و**"الرزاق"** و**"المنعم"** و**"البر"** وغيرها إنما ينطلق من محور الترغيب في رحمة الله حينا وتحبيب الألطاف الربانية إلى النفوس حينا آخر.

وحينما يمشي وحيدا في انعكاسات أسماء الله الحسنى من نحو **"المتكبر"** و**"الجبار"** و**"القهار"** فإنما يمشي على بساط الحذر من عظمة الخالق وكبريائه وجلاله وجبروته. ولكن حيث إن الأستاذ النورسي يعتني بالمحبة والجمال أكثر من غيرهما وحيث يحاول بجميع ما أوتي من جهد وقوة إظهار ما في الكون من آثار حسن صنع الله وجماله لا يتناول موضوع الترهيب إلا قليلا نادرا فلا ترى له اهتماما كبيرا واسعا بإظهار معاني القهر والسطوة المبثوثة في جميع أرجاء هذا الكون.

كما أن سيره الحثيث في أنوار أمثال أسمائه الحسنى **"القدوس"** و**"الحكم"**، و**"العدل"**، و**"اللطيف"**، و**الخبير"** يأتي لقارئ رسائله بكثير من المعاني الحكيمة التي تهدي القلوب وتشرح الصدور.

أما التوصيل فهو ما يشاهد بدون كثير تكلّف وتجشم المجاهدة الجمة والمحاولة الكثيرة في إظهار ما تجمع من تجليات أكثر من واحد من الأسماء الإلهية في صعيد واحد، وقد تتجلى في الواحد أو أكثر، ومع ذلك تظهر في ترابط دقيق، مما يدلّ على ثباتها ورسوخها، فيزداد الذين آمنوا إيمانا.

الكلمات الأساسية:المفتاحية في البحث:

الأسماء الإلهية، النورسي، التجليات، القراءة، الكون، الاستدلال، الظلال، الآثار، الترغيب، الترهيب، الحكمة، التوصيل، المعارف، العلم، صفات، أفعال، الجمال، الرحمة.

تمهيد

إذا مر القارئ مرورا سريعا بالإمام النورسي عبر رسائله الموسومة برسائل النور رأى بدون تكلف ولا تجشم، صلة وثيقة له بالأسماء الإلهية الحسنى فله عشق مقدس معها وهي من المصادر الأساسية والمنبع الثر لمعظم تلك المعاني والمعارف والحكم التي تفيض من لسانه وجنانه وبيراعه. وترى أن أكثر معطائية النورسي علما، وحكمة، وعرفانا، حينما يتفاعل مع الأجواء المقدسة لتلك الأسماء العظيمة الربانية فبينما يسير النورسي في ظلال تلك الأسماء المقدسة يَفيض المعارف اللدنية والمواهب الرحمانية من جميع جوانبه. فمثلا تأمل في هذه الفقرة من اثنتي عشرة فقرة فاضت بها حكمة النورسي في قراءته الرائعة المثيرة لاسم الله **"ذي الجلال"** إذ يقول:

"ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الكاملِ المُطْلَقِ في ذاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعالِهِ المُتَقَدِّسِ المُتَنَزِّهِ عَنِ القُصُورِ والنُّقْصَانِ، بِشَهَادَاتِ كَمَالاتِ الكائِنَاتِ. إذْ مَجْمُوعُ مَا في الكائِنَاتِ مِن الكَمالِ وَالجَمَالِ ظِلٌّ ضَعيفٌ بِالنّسْبَةِ الى كَمَالهِ سُبْحَانَهُ، بالحَدْسِ الصَّادِقِ وَبِالبُرْهَانِ القَاطِعِ وبالدَّليل الوَاضِحِ. إذِ التَّنْويرُ لا يَكُونُ إلاّ مِنَ النُّورانِيّ وبِدَوَامِ تَجَلّي الجَمَالِ وَالكَمَالِ مَعَ تَفَانِي المَرَايا وسَيَّاليَّةِ المَظَاهِرِ وبِاجْمَاعِ وَاتّفَاقِ جَمَاعَةٍ كَثيرَةٍ مِنَ الأعَاظِمِ المُخْتَلِفِينَ في المَشَارِبِ والكَشْفِيَّاتِ المُتَّفِقِينَ عَلى ظِلّيَّةِ كَمَالاتِ الكَائِنَاتِ لأنْوَارِ

كَمالِ الذَّاتِ الوَاجِبِ الوُجُودِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الاَزَلِيّ الأبَدِيّ السَّرْمَدِيّ المُتَقَدِّسِ المُتَنَزِّهِ عَنِ التَّغَيُّرِ والتَّبَدُّلِ اللاّزِمَيْنِ للمُحْدَثَاتِ المُتَجَدّدات المُتكامِلاتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله خَالِقِ الكَوْنِ وَالمَكَانِ المُتَقَدِّسِ المُتَنَزِّهِ عَنِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجَزُّءِ اللاَّزِمَيْنِ للمَادّيَّاتِ وَالمُمْكِنَاتِ الكَثِيفَاتِ الكَثِيراتِ المُقَيَّدَاتِ المَحْدُودَاتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله القَدِيمِ البَاقِي المُتَقَدِّسِ المُتَنَزِّهِ عَنِ الحُدُوثِ وَالزَّوَالِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الوَاجِبِ الوُجُودِ المُتَقَدِّسِ المُتَنَزِّهِ عَنِ الوَلَدِ وَالوَالِدِ وَعَنِ الحُلُول والإتّحَادِ وَعَنِ الحَصْرِ وَالتَّحْدِيدِ وَعَمَّا لا يَلِيقُ بِجَنَابِهِ وَمَا لايُنَاسِبُ وُجُوبَ وُجُودِهِ وَعَمَّا لا يُوَافِقُ اَزَلِيَّتَهُ وَاَبَدِيَّتَهُ جَلَّ جَلالُهُ وَلآ إلهَ إلاّ هُوَ.[2]

تراه كيف يتجوّل يمنة ويسرة وكيف ينتقل نزولا وصعودا فيتحرك إلى جهاته الست بجوالية فائقة وسرعة فكرية رائعة فيجمع استلهاما من تجليات ومعاني اسم **"ذي الجلال"** الكريم جوامع الأدلة النيرة والبراهين الناصعة التي تفحم أشد الكافرين عنادا وتلزم أعتى الجاحدين خصومة ويذكر مجامع الأوصاف المقدسة اللازمة للربوبية ومختلف أنواع التَّقَدُّس والتَّنَزُّه الرباني ويُؤَكِّد على حقيقة التوحيد بما تملأ المجلدات الصفحة.

ومن خلال هذه السياحة الروحية والفكرية للنورسي بين مختلف أنواع الكائنات التي هي مصنوعات القدرة الربانية ومرايا أسماءه الحكيمة تراه يختار من بينها أكثرها جمعا للأدلة وأبينها دلالة على القدرة الربانية كالإنسانية والجسمانية. فيرى أن ما يُطلق عليه: "الإنسانية" التي هي قصيدة حكيمةٌ منظومةٌ تعلن إعلانا لطيفاً جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية، وهي معجزةُ قدرةٍ باهرة جامعةٍ كالنواة لأجهزة شجرةٍ دائمةٍ باقية.[3] كما يرى أن الجسمانية كذلك هي أجمع مرآة لتجليات الأسماء الإلهية، وأكثرها إحاطة وأغناها.[4] ولا يلبث النورسي أن يرى أن جميع الكون مرآة لتجليات أسمائه تعالى: فكما أن للشمس وجودات هكذا في المثال كذلك الأمر في مرآة الكون ومرايا ماهية الاشياء. فان نقوش المصنوعات ظاهرة بتجليات الأسماء الإلهية الحسنى.[5]

ولا ريب أن من أهم خصائص النورسي في سيره في ظلال الأسماء الإلهية وقراءته للكون قراءة عرفانية حسبما يتجلى له من ظلال تلك الأسماء على شتى صفحات الكون:

لا يغيب عن وعيه وصحوه عبر ذلك المسير العظيم كما هو شأن بعض الصوفية.

ولا يغيب أبدا عبر تجواله العرفاني بقلبه وروحه في ظلال الأسماء وتجلياتها العظيمة عن وعيه وشعوره وإحساسه بما حوله من الكوائن والأحداث ولا يفقد تمييزه مدى ذلك التجوال فلا يقع فيما وقع فيه بعض الصوفية من الشطط والشطح.

يقدم لقارئ رسائله ما استفاد في ظلال الأسماء الإلهية من تلك الدروس القيمة الروحية العظيمة بصفاء عجيب ونقاء حبيب لا يدانى منه.

٣- يتنوع معارفه العرفانية ومعطياته العلمية حسب تنوع تلك الأسماء الإلهية مضمونا، ومشمولا، ومظهرية، وتجليا. وحينما يفصح عن تلك التجليات التي تنعكس من الأسماء الربانية تراه نسيجا وحده وفارس ميدانه ووحيد مجاله. ومن إلقاء أية نظرة سريعة على كتابات النورسي المستلهمة من الأسماء الإلهية يظهر أن له مقدرة خاصة وقابلية فذة في قراءة مظاهر تلك الأسماء قراءة تكون نبراسا للمهتدين والعارفين وسراجا للحكماء والصالحين كي يزداد الذين آمنوا إيمانا.

إن مما يستجلب نظر قارئ كتابات النورسي أن له رحمه الله ولوعا خاصا بتبيان مظاهر الجمال الإلهي في جميع صفحات الكون فله قراآت متعددة الجوانب في مظاهر ''الجمال'' المبثوثة عبر صحائف الكون وصفحاته كلها. فبعضا يقرأ مظاهرها في هذا العالم المشهود وبعضا يقرأ ما سيتحقق في الجنة وبعضا يذكر ويتذكر ما له سبحانه من الجمال الحقيقي. فانظر مثلا إلى هذا البيان السلس له في قراءة مظهر الجمال في الكون والجنة حيث يرى أن الكل من تجليات جماله تعالى واسمع له أيضا حتى ترى كيف يشرح الجمال السرمدي له سبحانه:

''إن جميع أنواع الجمال الموجود في هذا الكون وجميع أنواعه وأنماطه وألوانه إنما هو تجليات وإشارات وأمارات جمال مقدس عن القصور ومجرد عن المادة تتجلى من وراء عالم الغيب بوساطة أسماء الله الحسنى...

نعم إن كانت الجنة الباهرة الرائعة مع جميع مظاهر حسنها وروعتها من تجليات جماله سبحانه وأن رؤية أهل الجنة جماله تعالى لساعة من زمان ينسيهم حتى تلك الجنة الجميلة فلا شك أن هذا الجمال السرمدي لا نهاية له ولا شبيه له ولا نظير له ولا مثيل له قطعا.''[6] كما نراه يفصح في قراءة أخرى له عن سبب ظهور الجمال الإلهي بقوله: إن الجمال الإلهي والكمال الرباني يظهران في التوحيد وفي الوحدانية، ولولا التوحيد لظل ذلك الكنز الأزلي مخفياً. نعم، إن الجمال الإلهي وكماله الذي لا

يحد، والحسن الرباني ومحاسنه التي لانهاية لها، والبهاء الرحماني وآلاءه التي لا تعد ولا تحصى، والكمال الصمداني وجماله الذي لا منتهى له، لا يشاهد إلاّ في مرآة التوحيد؛ بوساطة التوحيد ونور تجليات الأسماء الإلهية المتمركزة في ملامح الجزئيات الموجودة في أقصى نهايات شجرة الكائنات.[7]

٤–إن إفصاح النورسي عن تلك التجليات المنعكسة عن الأسماء الإلهية إفصاح من نوع آخر فلا تشبه قراءته لظلال تلك الأسماء قراءة غيره من الحكماء والعارفين إذ قراءته قراءة صافية نقية لا تشوبها شائبة الفلسفة والحكمة المزخرفة ولا تتكدر تلك القراءة بالتعقيدات الفلسفية المنكدرة والتحليلات الغامضة والنقاشات النظرية المعضلة والخلافات الفكرية المشكلة بل تراه يحاول نهاية جهده أن يقدم لقارئه تلك المعاني والمعارف الفائضة من فكره وقلبه على لسانه وبنانه بطريقة سليمة من عيوب التكلف والتصنع، وخالصة من أدران السمعة والرياء، ونقية من شوائب الشطط والشطحات الصوفية، ومشبعة بمعاني الإخلاص، والشكر، والحب المطلق لله، والشهود الكامل التام المطلق لأفعال الله وتجليات أسمائه عبر تصاريفه وتدابيره. وهذه سمة عظيمة جعلت للرسائل ما لها من الحب العميق والقبول التام والجاذبية العجيبة والإقبال الكامل.

جعل النورسي ذلك الصفاء في البيان والعرض المبسط ديدنا له ودأبا في تأليفه أو عرض كشفياته القرآنية وطريقة له ومنهاجا في سلوكه الدعوي ربما لا ينفصل عنه قيد أنملة، وله جولات سريعة ذكية في استنباط كثير من المعاني العميقة والمعارف الحكيمة من ظلال تلك الأسماء الإلهية.

إلى جانب أننا نشاهد تنقلا مستمرا دءوبا للنورسي بين بساتين ورياض تجليات تلك الأسماء الإلهية عبر كتاباته. فهو يوصل ويربط بين معاني الأسماء الإلهية الكثيرة. ويستنبط مناسبات جمة ومعاني كلية وأصولا أصيلة وفروعا جزيلة مما يشاهده من تجليات الأسماء الإلهية على شتى صفحات الكون إذ يرى أن الحياة مثلا: مرآة لتجلي الأحدية، وجلوة الصمدية، أي أن حياتك كالمرآة تنعكس عليها تجلي الذات الأحد الصمد تجلياً جامعاً، وكأن حياتك نقطةٌ مركزيةٌ لجمع أنواع تجليات الأسماء الإلهية المتجلية على العالم أجمع[8].

فلعمري هو عندليب التوحيد ينتقل من هذه الوردة إلى تلك الوردة كي يأخذ من

كل شجرة جناها ويستفيد من كل ثمرة خلاصتها. فهيا بنا الآن ننتقل إلى المقصد الأصلي من هذا البحث وهو بيان تلك المحاور التي يسير فيها النورسي حينما يقرأ تجليات الأسماء الإلهية.

يعرض النورسي مظاهر الأسماء الإلهية وتجلياتها في أربعة محاور، كما يأتي:

المحور الأول الترغيب والتحبيب

حينما يسير النورسي في ظلال أسماء الله الحسنى، من أمثال **"الرحمن"** و**"الرحيم"** و**"الرزاق"** و**"المنعم"** و**"العدل"** و**"القدوس"** وغيرها من الأسماء الإلهية إنما ينطلق من محور الترغيب في رحمة الله حينا وتحبيب الألطاف الربانية إلى النفوس حينا آخر. كما يهدف من خلال كتاباته من حين لآخر بيان ذلك الجمال المطلق والحسن الدائب الذي يتحلى به الإسلام من خلال عقائده وأخلاقه وأحكامه وحكمه وبذلك يرغب الناس إلى أكبر حد في الإسلام والاستفادة من محاسنه العليا وحقائقه العظمى عبر مسير الحياة.

يتكون معاني هذا المحور في: ١- بيان الجمال المطلق في الكون، ٢- بيان إحسانات الصانع الحكيم التي توجب محبته وإطاعة أمره على جميع العقلاء، ٣- تحبيب الإيمان إلى القلوب.

١- بيان الجمال المطلق: إن النورسي حينما يذكر حِكَمَه العرفانية يسعى للإبانة بكل ما أوتي من جد وجهد عما يغمر هذا الكون الفسيح والعالم الوسيع من معاني الحسن والجمال اللذين هما من تجليات جمال الله المطلق ترغيبا في إنالة حظ إدراك طرف من ذلك الجمال. إذ يفصح عن ذلك في هذا البيان المفصل بقوله: إن جمال أثر مصنوع يدل دلالة قاطعة على جمال صنعه وإن جمال الصنع وإتقانه هذا يدل على جمال عنوان صانعه الناشئ من تلك الصنعة. وإن جمال عنوان الصانع المتقن يدل على جمال صفة ذلك الصانع التي تعود إلى تلك الصنعة وإن جمال صفته هذه يدل على جمال قابليته واستعداده وإن جمال قابليته يدل على جمال ذاته وجمال حقيقته. فكما أن هذه الدلالات قاطعة وبدهية كذلك الحسن والجمال الظاهر في المخلوقات الجميلة في هذا العالم كله والصنع البديع المشاهد في المصنوعات الجميلة كلها يشهد شهادة قاطعة على حسن أفعال الصانع الجليل وجمالها وإن الحسن في أفعاله تعالى وجمالها يدل بلا ريب على حسن العناوين المشرفة على تلك الأفعال وجمالها

أي على حسن الأسماء وجمالها. وإن حسن الأسماء وجمالها يشهد شهادة قاطعة على حسن الصفات المقدسة وجمالها التي هي منشأ تلك الأسماء. وإن حسن الصفات وجمالها يشهد شهادة قاطعة على حسن الشؤون الذاتية وجمالها التي هي مبدأ تلك تلك الصفات. وإن حسن الشؤون الذاتية وجمالها يدل بالبداهة ويشهد شهادة قاطعة على حسن الذات وجماله الذي هو الفاعل والمسمى والموصوف ويدل على الكمال المقدس لماهيته والجمال المنزه لحقيقته. بمعنى أن للصانع الجميل جمالا وحسنا لا حد له يليق بذاته المقدسة. بحيث أن ظلا من ظلاله قد جمل هذه الموجودات كلها وأن له سبحانه جمالا منزها مقدسا بحيث إن جلوة من جلواته قد أضفت الجمال على الكون كله ونورت دائرة الممكنات كلها بلمعات حسن وجمال زينتها أبهى زينة.[9]

فكما يبدو في هذا المقطع أن النورسي قرأ جمال الكون قراءة فذة لا مثيل لها حيث بيّن أنّ هناك ست مراتب من الجمال كل واحدة من تلك الجمالات يدل على الذي بعده. فإن الجمال في أي صنعة ما سواء كان من حيثية خصوصية الصنعة فقط – وهي الملحوظة في السلسلة الأولى– أو كان بصفة عامة مثل المخلوقية –وهي الملحوظة في السلسلة الثانية– يدل بتسلسل على جمال بعده إلى أن ينتهي بسلسلتين متوازيتين مراتب الجمال التي يكون كل مرتبة منها مدلولا لما قبلها ودالة على مابعدها إلى جمال ذات الصانع وجمال حقيقته المقدسة التي تأتي في المرتبة السادسة. ويصل النورسي في نهاية المطاف إلى أن كل ما يرى في الكون من أنواع الجمال وفنونه وصنوفه إن هو إلا أثر من آثار ذلك الجمال المقدس الذي لا نهاية له وظل من ظلاله العظيمة.

إنه رحمه الله يسير في جميع أنحاء الكون ويُحَلِّقُ على جميع الكائنات المشهودة ثم يتغلغل في خباياها كي يلتقط ما فيها من المعاني الجمالية التي كل واحد منها أثر لاسم من أسماء الله الحسنى ويرتسم ما لها من تلك الصور البديعة الرائعة التي كل واحدة منها ظل لاسم من أسماء الله العليا ويستنبط من شتى جوانبها ما فيها من أطراف الحسن وأنواع الجمال والروعة التي هى من تجليات أسماء الله العظمى ويقرأ الجمال قراءة متمهلة مرتبة بتسلسل حكيم وتدرج رائع بين شتى مظاهر الجمال ومشاهده ومراتبه مبتدأ بأولى مظاهره ومراتبه ومنتهيا إلى أعلى مراتبه وهو الجمال الحقيقي الذي يتصف به الجميل المطلق.

ونراه حينا آخر يستشهد في إثبات ذلك الجمال المتغلغل في أغوار الكون

والمحيط بجميع جوانبه بالعلوم الكونية المتطورة فيستنطقها إذ يقول: الخير والحسن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون وهو المقصود لذاته، أي هو المقاصد الحقيقية للصانع الجليل .بدليل أن كل علمٍ من العلوم المتعلّقة بالكون يطلعنا بقواعده الكلية على إن في كل نوع وفي كل طائفة انتظاماً وإبداعا بحيث لا يمكن للعقل أن يتصور أبدع وأكمل منه.[10] يفعل النورسي كل ذلك وكأنه خبير جمال الكون ومستوعب لهندسة حسنه.

ولما ترسخ في عقلية النورسي من قراءة جمال المصنوع كي يصل بها إلى تذوق جمال الصانع – وقد حصل له ذلك فعلا– يخطو إلى الأمام في التقاط معاني الحسن من جميع ما في الكون من كافة التصرفات الإلهية خطوة طريفة حيث **يستدل على الشيء بضده** إذ يرى أن ما في الكون من أنواع الشر إنما هو أيضا لإبراز طرف آخر من معاني الحسن والجمال قائلا: وأمثال هذه الشرور والقبائح الجزئية خُلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكليين. وهكذا يثبت بالاستقراء التام أن المقصد الحقيقي في الكون والغاية الأساسية في الخلق إنما هو: الخير والحسن والكمال.[11]

فنرى أن النورسي ارتقى من خلال هذه القراءة الجمالية السامية إلى درجة مستبينة من الشهود. حيث يشهد علم اليقين ويشاهد عين اليقين تلك الآيات الجمالية الموصلة إلى جمال الله الأقدس المبثوثة في جميع أرجاء الكون والتي يغفل عنها كثير من الأذكياء والعلماء والعارفين.

ثم إن النورسي كان على وعي تام وبصيرة متمكنة بأن شواهد تلك المحاسن الكونية المتلمعة من جميع جوانبه، وآيات ذلك الجمال الرائع المبثوث على جميع صفحاته إنما يمكن أن يرى ويقرأ بعقلية التوحيد وعقيدته الصافية. أما الملحد الجاحد والجاهل الغافل فهما بمعزل عن ذلك. فأنى له التناوش من مكان بعيد. يعلن هذه الحقيقة على رؤوس الأشهاد في تصريحه: ''أن الجمال الإلهي وكماله الذي لايحد، والحسن الرباني ومحاسنه التي لانهاية لها، والبهاء الرحماني وآلاءه التي لاتعد ولاتحصى، والكمال الصمداني وجماله الذي لامنتهى له، لايشاهد الاّ في مرآة التوحيد؛ بوساطة التوحيد ونور تجليات الاسماء الإلهية المتمركزة في ملامح الجزئيات الموجودة في أقصى نهايات شجرة الكائنات.''[12]

وكنتائج عملية واقعية عن هذه القراءة الجمالية في ظلال الأسماء الإلهية للنورسي يبدو هذه الأمور:

١– بيان الحسن المطلق في الكون: فحينما يعرض النورسي الإبانة عن تلك المعاني الجمالية مستلهما إياها من تجليات الأسماء الإلهية الحسنى لا يهمل لفت نظر القارئ إلى ما أحاط بجميع الشؤون الذاتية، والصفات الربانية، والأفعال الإلهية، والتصرفات السبحانية من حسن مطلق، وجمال مطلق، وكمال مطلق، ولطافة شيقة، وجاذبية أنيقة. فيستدل بذلك على الجمال المطلق المقدس، والحسن المطلق المنزه للخالق عز شأنه فيقول: ''إن الصانع الجليل متصف بجميع الأوصاف الكمالية لأنه من المقرر أن ما في المصنوع من فيض الكمال، مقتبس من ظل تجلي كمال صانعه. فبالضرورة يوجد في الصانع جل جلاله من الجمال، والكمال، والحسن ما هو أعلى بدرجات غير متناهية حتماً من عموم ما في الكائنات من الحسن، والكمال، والجلال.''[13] وكفى ذلك شاهدا على ما تربع عليه النورسي من عرش الشهود في قراءة ما في الكون من مشاهد جمال الصانع مما يرى من آثار قدرته الجميلة التي تدل على جماله العظيم وكماله العلي.

٢– الصلة القوية مع الأسماء الإلهية العظيمة: وهنا حقيقة أخرى جلية لكل من أجال النظر في مؤلفات النورسي وهي أنّ له رحمه الله صلة حميمة وآصرة قوية مع أسماء الله الحسنى كما أسلفنا الإيماء إلى ذلك وسيأتي أيضا. فتستيقن بذلك أن معظم حكمه العرفانية تنبع من تفكيره في أسماء الله الحسنى وقراءته الملحة لتجلياتها وسيره الحثيث في ظلالها وتفاعله الروحي معها.

٣– الفوائد العملية: يجني رحمه الله من ذلك –فضلا عمّا حصل عليه من الذوق الروحاني – فوائد علمية جمة وثمرات عرفانية عظيمة كما يكسب من ذلك نتائج واقعية عملية ظاهرة أيضا من أجلّها أنه يحاول جهده أن يحبّب بتلك القراءة الله إلى القلوب من خلال تجليات أسمائه الجمالية ومحاسن أفعاله الكمالية وحسن شؤونه الذاتية. ومن ثمَّ يستهدف تحبيب حقيقة الإيمان أيضا.

٤– **طرد القلق:** كما يزيح بتلك القراءة التجلياتية ما ينتاب القلوب الهلوعة من القلق والفزع من جراء خوف فناء الدنيا ونعيمها وموت المحبوبات بأسرها فيها. فأصغ إليه بأذن واعية إذ يقول:

''وهو الصانع الفاطر فلا حزن على زوال المصنوع لبقاء مدار المحبة في صانعه. وهو الملك المالك الباقي فلا تأسف على زوال الملك المتجدد في زوال وذهاب.

وهو الشاهدُ العالمُ الباقي فلا تحسّر على غيبوبة المحبوبات من الدنيا لبقائها في دائرة علم شاهدها وفي نظره. وهو الصاحب الفاطرُ الباقي فلا كدر على زوال المستحسنات لدوام منشأ محاسنها في اسماء فاطرها. وهو الوارثُ الباعثُ الباقي فلا تلهّف على فراق الاحباب لبقاء من يرثهم ويبعثهم. وهو الجميلُ الجليلُ الباقي فلا تحزّنَ على زوال الجميلات اللاتي هنَّ مرايا للاسماء الجميلات لبقاء الاسماء بجمالها بعد زوال المرايا. وهو المعبودُ المحبوبُ الباقي فلا تألّم من زوال المحبوبات المجازية لبقاء المحبوب الحقيقي. وهو الرحمنُ الرحيمُ الودودُ الرؤوفُ الباقي فلا غمّ ولامأيوسيةَ ولا اهميةَ من زوال المنعِمين المشفقين الظاهرين لبقاء مَن وسعتْ رحمتُه وشفقتهُ كلّ شئ. وهو الجميلُ اللطيفُ العطوفُ الباقي فلا حُرقة ولاعبرةَ بزوال اللطيفات المشفقات لبقاء مَن يقوم مقام كلها، ولايقوم الكلُّ مقام تجلٍ واحدٍ من تجلياته، فبقاؤه بهذه الاوصاف يقوم مقام كل ما فني وزال من انواع محبوبات كل احدٍ من الدنيا."[14]

فنرى في هذا العرض الرائع قراءة متنوعة الجوانب لشتى تجليات الأسماء الإلهية الحسنى في شتى المجالات ويرتكز على الخصوص على فناء الكائنات وبقاء المحبوب الأزلي بهدف تحبيب الإيمان من خلال التحقق بحقيقتي الفناء والبقاء إلى القلوب وتلقيح بذور الإيمان في العقول.

وحينما يقرأ النورسي من خلال تجليات الأسماء الإلهية الدالة على الجمال والكمال تلك المشاهد التي يسود عليها الجمال والكمال تراه يتقلب في جنان تجليات أسماء الجمال، والحسن، والكمال كي يستفيد من جناها. ويستهدف في الوقت نفسه شيئا آخر لا يقل أهمية عن ذي قبل وهو استجلاب أنظار العقول السليمة إلى ما غمر الكون كله من تجليات الرحمة الإلهية التي قلما تنبه لها الناس الغافلون. فَيُكْثِرُ الأستاذ النورسي من الاستدلال بما يظهر في جميع صفحات الكون من الفعاليات الجارية والأحداث المتكونة فيه لكل ذي بصر وبصيرة من معاني الرحمة الإلهية، والشفقة الربانية، والإكرام الصمداني، والإنعام السبحاني، ومن شواهد الكمال والجمال التي هي من تجليات تلك الأسماء الإلهية التي تدل بالدرجة الأولى على معاني الرحمة الربانية، والفيض الإلهي، والإحسان الرباني. تراه في ذلك السياق يفصح عن معاني رائعة تندهش منها النفس وتثلج الصدر بالحقائق العرفانية الكبرى، والدلائل العقلية العليا.

ويمكن أن يُقَسَّم ما أتى به الأستاذ النورسي في قراءته لأسماء الله الدالة على

الرحمة من مثل **الرحمن والرحيم** وغيرهما، ومن خلال سيره في ظلال تجلياتها، ترغيبا في رحمة الله وتحبيبا لحقائق الإيمان إلى القلوب، فضلا عن الإبانة عما أضمره الكون في طياته من جلائل الآلاء ودقائق النعم الدالة على الرحمة والشفقة الإلهية البارزة في مظاهر متعددة، وبإيجاز يمكن تقسيمها إلى ما يأتي:

١– الإبانة عن مظاهر الرحمة في البيئة والطبيعة.

٢– الكشف عما يحيط النفس الإنساني من تجليات اللطف الإلهي والشفقة الربانية.

٣– التبيين لما أخبر به القرآن من نعيم الجنان مستدلا على حتمية تلك النعم بتجليات صفات الرحمة والإحسان والإنعام في شتى صفحات الأكوان في هذه الدار قبل تلك.

سنعرض في الفقرة اللاحقة تفصيل هذه القضايا بما اقتبسناه من كتاباته:

١– الإبانة عن ما يتجلى في البيئة والطبيعة من مظاهر الرحمة الإلهية المحيطة بجميع ما فيها: إن في ذلك السياق للنورسي لمسات لطيفة، واستنتاجات طريفة، والتقاطات حكيمة لشتى معاني الرحمة والشفقة من متنوع المناظر الطبيعية، وشتى المشاهد البيئية ومختلف المجالات الكونية. فيبين أولا حقيقة الرحمة السائدة على عامة مناظر الكون ومشاهده مستلهما ذلك مما تغلغل في طيات الكون وخباياه من تجليات صفتي **الرحمن والرحيم** فيقول في هذا السياق: ''أن الكون كتاب الأحد الصمد كتبه لإشهار مصنوعاته:'' الكون'' الذي يراه الغافلون فضاء موحشاً بلا نهاية، وجمادات مضطربة بلا روح تتدحرج في دوامة الفراق والآلام، يبينه القرآن :كتاباً بليغاً، كتبه الأحد الصمد، ومدينة منسقة عمرها **الرحمن الرحيم،** ومعرضاً بديعاً أقامه الرب الكريم لإشهار مصنوعاته. فيبعث بهذا البيان حياة في تلك الجمادات، ويجعل بعضها يسعى لإمداد الآخر، وكل جزء يغيث الآخر ويعينه، كأنه يحاوره محاورة ودية صميمة، فكل شيء مسخر وكل شيء أنيط به وظيفة وواجب.''[15] ويعلن في سياق آخر ما ساد الكون كله من معاني الرحمة التي هي من تجليات **الرحمن الرحيم** إذ يقول: ''قسم آخر من هذه البلابل نهاري، يعلنون في وضح النهار رحمة الرحمن الرحيم على منابر الأشجار وعلى رؤوس الأشهاد، ويتغنون بها.''[16] ويستمرّ النورسي في بيان سيادة حقيقة الرحمة على الكون كله مستدلا في ذلك بتكرار صفتي الرحمة عبر الفرقان الحكيم بقوله: ''إنّ جملة بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ هي آية واحدة تتكرر مائة وأربع عشرة مرة في القرآن

الكريم ذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نوراً وضياء وتشد الفرش بالعرش برباط وثيق – كما بيناها في اللمعة الرابعة عشرة – فما من أحد إلاّ وهو بحاجة ماسة إلى هذه الحقيقة في كل حين.''[17]

نرى في هذا السياق أن العلامة النورسي يشد نظر القارئ والمؤمن الموحد إلى بعض مظاهر الرحمة الخاصة مما يجري في الكون من تلك الأحداث الرحيمة التي لا تعد ولا تحصى كالمطر فبعد ما أفاض في بيان تلك الحكم العظيمة الظاهرة في كثير من أحداث الكون يأخذ في بيان ما للمطر ويضع النقاط على الحروف: ''فهذا الغيث اذًا ما هو إلاّ رحمة متجسمة بعينها، ولا يتم صنعه إلاّ في خزينة الغيب لرحمة الرحمن الرحيم''، وهو بنزوله وانصبابه على الأرض يفسّر عملياً وبوضوح الآية الكريمة'':[18] ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.الشورى:٢٨

٢– **إبانة ما في خلق الإنسان وجسده** من تلك المظاهر الجمة للرحمة الإلهية. ولما كان الإنسان يتبوأ تلك المكانة العليا بما يمتلكه من العقل والإدراك والبصيرة فكان مطلبا أصليا ومقصدا أساسيا بين خلق الكائنات الأخرى. ومن هنا صار خليفة الله في أرضه ومخاطبا له بين خليقته وكان معكسا مجلوا ومرآة صقيلة لكثير من الأسماء الإلهية استحق من بين الكائنات الأخرى أن يخص بالذكر ويستجلب النظر إلى ما في خلقه ويسلط الضوء على ما في كيانه المادي والروحي والنفسي والعقلي من أسرار عظيمة وإجراآت عجيبة ينعكس منها كثير من تجليات الأسماء الإلهية وتصرفات حكيمة كل منها مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية والإكرام الرباني. ومن هنا ركّز النورسي نظره على خلق الإنسان وقابلياته واستعداداته وخواصه ومميزاته. ولعمري لقد أدرج في البنية الإنسانية وأدمج فيها حسب قراءة النورسي لها من الأعضاء العزيزة، والآلات اللطيفة، والأجهزة الغزيرة، والمواد الكثيرة بحيث استحق أن يسمى عالما صغيرا على حد تعبير النورسي، يؤكّد هذه الحقيقة، بقوله: ''نظرت إلى نفسي وتأملت فيها ورأيت أن الذي خلق الحيوانات من قطرة ماء خلقني منها أيضا. وبرأني معجزة من معجزاته، وشق سمعي وبصري، ووضع دماغا في رأسي، وقلبا في صدري، ولسانا في فمي بحيث خلق في ذلك الدماغ والقلب واللسان مئاتٍ من الموازين الدقيقة والمقاييس الرقيقة التي تتمكن من أن تزن وتعرف جميع هدايا **الرحمن** المدّخرة في خزائن الرحمة الإلهية وعطاياه الكريمة، وأدرج في تلك الأعضاء ألوفا من الآلات التي تتمكن من أن تفتح كنوز تجليات الأسماء الإلهية التي لا نهاية لها، وأمدّ تلك الآلات

والأجهزة معرّفات مُعينة مساعدة بعدد الروائح والطعوم والألوان.''[19] يحاول النورسي من خلال هذه القراءة الدقيقة الرائعة في جسد الإنسان الناشئة من إدراك تجليات الأسماء الإلهية فيها تسليط الضوء على ما يزخر به البنية الإنسانية من الفوائد الكبرى والمصالح العظمى والمنافع القصوى التي هي أبرز مظاهر اللطف الرباني والرحمة الإلهية.

٣– الإفصاح عما أخبر به القرآن من نعيم الجنان مستدلا على حتمية تلك النعم بتجليات صفات الرحمة، والإحسان، والإنعام في شتى صفحات الأكوان. إن المتتبع لمعارف النورسي عبر رسائله ولقراآته في تجليات ومظاهر الأسماء الإلهية العظيمة يقف بدون كبير عناء وتكلف أن له رحمه الله مظهرية خاصة لما في الحديث القدسي النبوي: **''سبقت رحمتى غضبي...''**[20] من مغالبة جانب الرحمة واللطف جانب الغضب والعنف. ومن هذا حينما يسير الشيخ في ظلال الأسماء الإلهية كي يعلن عن مظاهرها ويبين تجلياتها يؤثر بالقراءة والمناولة ويختار بالشرح والبيان تلك الأسماء التي تدل على الرحمة واللطف والإكرام والإحسان أكثر كاسم **الرحمن، والرحيم، والبر، والعدل، والجواد، والكريم، والقيوم، والمحسن، والحكيم**. وبذلك يحصل النورسي على نتيجة حاسمة وهو تحبيب الخالق بما خلق من جميع تلك المصالح، والمنافع، والفوائد إلى القلوب والعقول. وفي أثناء ذلك العرض يتعرض النورسي لشيء آخر وهو النص على موجبات ومستلزمات ذلك التحبيب المقدس فانظر مثلا إلى هذا السياق:

''وان محبوباً أزلياً اعدّ – باسمه **الرحمن الرحيم** – مسكناً جامعاً لجميع رغباتك المادية، وهو الجنّة المزينة بالحور العين، وهيأ بسائر أسمائه الحسنى آلاءه العميمة لإشباع رغبات روحك، وقلبك، وسرّك، وعقلك، وبقية لطائفك. بل له سبحانه في كل اسم من أسمائه الحسنى خزائن معنوية لا تنفد من الإحسان والإكرام. فلاشك أنّ ذرة من محبة ذلك المحبوب الأزلي تكفي بديلاً عن الكائنات كلها ولا يمكن ان تكون الكائنات برمتها بديلاً عن تجلٍ جزئي من تجليات محبته سبحانه.[21] فإتاحة جميع مستلزمات الحب الرباني المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة وفي ما يحيط بالإنسان من عامة مظاهر اللطف الإلهي والإكرام الرحماني توجب على الإنسان أن يحاول بجميع ما في وسعه وجهده لاكتساب شيء – ولو قليلا – من تلك المحبة الإلهية المقدسة. وذلك الحب الذي ينبغي أن يحب العبد به ربه إنما يتحقق بالإيمان بجميع ما دعى الله إلى الإيمان به، وبإطاعته في جميع مأموراته والانتهاء عن منهياته وهو

العبودية الصافية الخالصة التي يؤكد النورسي عليها بإيقاع شديد في الكثير من رسائله.

وهكذا نجد للنورسي رحمه الله ولعا خاصا وشغفا بالغا بالإبانة عما يوجب على العبد حب ذلك المحبوب الأزلي عبر قراآته العديدة المتنوعة لتجليات أسمائه العظيمة. ومن جراء ذلك يرتكز عبر كثير من كتاباته على الكشف عن تلك الألطاف العظيمة، والإحسانات العميمة، والإكرامات الجليلة في نفس الإنسان وبيئته وسائر الكائنات المسخرة له والمحيطة به حتى يحب العبد ربه كمال الحب.

ونَتِيجَةُ ذلك البيان المكثف عَبْر هذا المحور هو تحبيب الإيمان والإسلام وأصوله وأخلاقياته ومعاملاته وعباداته إلى القلوب وتقريبها إلى الأفهام والعقول من خلال شرح تجليات تلك الأسماء الإلهية الدالة على الرحمة واللطف والإحسان.

المحور الثاني الترهيب

يُبَيِّن الأستاذ النورسي في أكثر من موضع من كتاباته أنه ممثل المحبة فلا موضع للخصومة في قاموسه وانعكاسا لهذه الحقيقة، يغلب في معجمه توظيف صور واضحة للغة الحب والمحبّة والجمال، والرحمة والبر والترغيب والتحبيب وهو الصبغ الذي ينصبغ به أسلوبه عبر رسائله واللون الذي يسود معظم كتاباته وجل مقولاته. وهو الخصيصة التي يتميز بها عبر دعوته؛ لذا لقيت هذه الدعوة ترحيبا عجيبا من عامة الشعوب وتلبية كريمة من الإنسان المعاصر وإقبالا مدهشا من شباب العصر. وأما جانب الترهيب فإنما يلم به إلماما ولا يستفيض فيه ولا يطنب الكلام حوله ولا يسهب فيه ولا يأتي بأفانين البيان وأنواع الخطاب منه.و أكثر ما تراه يتناول الترهيب هو حينما يسير في ظلال أسماء الله الدالة على قهره، وكبريائه، وجبروته، وسطوته **كالمنتقم، والمتكبر، والجبار، والقهار**.

انطلاقا مما تطبع به طبيعة النورسي وترسَّخ في عقليته من حب الحب، والجمال، والكمال وتحبيب الصانع إلى المصنوع من نافذة الحب والجمال لا يصرف وقته في الإعراب عن معاني القهر الإلهي وبطشه وسطوته، ولا يرتكز على سرد معاني الترهيب كمسألة رئيسة. بل إنما يمس النورسي مسا لطيفا طرفا ضئيلا من الترهيب كمسألة استطرادية غير أصلية حينما يسرد أدلة التوحيد فيتعرض من خلالها لنفي الشرك ملوحا إلى شيء من الترهيب كما في قوله: ‘‘فما دامت هذه الكبرياء وهذه القدرة العظيمة موجودتين، وما دامت صفة الكبرياء هذه هي في منتهى الكمال والإحاطة التامة، فلا

يمكن أن تسمحا مطلقاً لأي نوع من أنواع الشرك؛ لأن الشرك يعني إسناد العجز والحاجة إلى تلك القدرة المطلقة، وإلصاق القصور بتلك الكبرياء، وعزو النقص بذلك الكمال، وتحديد تلك الإحاطة بالقيد، وإنهاء غير المتناهي المطلق. فلا يمكن أنْ يقبل ذلك كل من له عقل وشعور، وكل من له فطرة سليمة لم تتفسخ.''

''وهكذا فالشرك من حيث هو تحدٍ لتلك الكبرياء، وتطاول على عزة ذي الجلال، ومشاركة للعظمة، جريمة نكراء لا تدع مجالاً للعفو والصفح والمغفرة. وان القرآن – ذا البيان المعجز – يعبّر عن هذا ويبيّنه ويشفعه بذلك التهديد الصارخ والوعيد الرهيب[22] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾(النساء: ٤٨).''

كما يتناول الترهيب بكلمات قلائل حينما يتعرض لأدلة الحشر مستمدا في ذلك أيضا من بعض أسماء الله سبحانه من مثل قوله: ''إن الذي أنشأ هذه الأنواع من الحشر في كل ربيع، التي تربو على الألوف، وتفوق غرابة الحشر الأكبر هو الذي وعد أنبياءه كافة بآلاف الوعود والعهود أن سيأتي بالحشر والقيامة للثواب والعقاب، وهو أهون على قدرته من الربيع نفسه، وضمَّن آلاف الإشارات حول الحشر في القرآن الكريم، الذي يقرر صراحة في ألف من آياته الكريمة على وعوده سبحانه ووعيده ..فلاشك أن عذاب جهنم لهو عين العدالة بحق من يرتكب جحود الحشر أمام ذلك القدير **الجبار** والقهار ذي الجلال.''[23]

وحينما يتطرق النورسي لمثالب الكفر وعيوبه يذكر أن من أهم ما يستحق الكفر عقاب الله هو أنه تزييف لأسماء الله الحسنى: ''إن إدخال الكفار جهنم حق وعدالة، مثلما جاء في ''الإشارة الثالثة من الكلمة العاشرة''. إنّ الكافر وإن عمل ذنباً في عمر قصير، إلاّ أن ذلك الذنب ينطوي على جناية لا نهاية لها؛ ذلك لأن الكفر تحقير للكائنات جميعاً وتهوين من شأنها.. وتكذيب لشهادة المصنوعات كلها للوحدانية.. وتزييف للأسماء الحسنى المشهودة جلواتها في مرايا الموجودات.. ولهذا يلقي **القهار** الجليل، سلطان الموجودات، الكفارَ في جهنم ليخلدوا فيها، أخذاً لحقوق الموجودات كلها منهم.''[24]

وبينما كان النورسي يسير سيره الروحاني في ظلال اسم الله **''العدل''** وبينما كان يقرأ تجلياته تلك القراءة الرائعة المثيرة لدى العبد المؤمن لجميع أحاسيس اليقين

الصادق ومشاعر العقيدة الصافية يندد بقبائح الكفر الفكرية فيأتي بترهيب عقلي وينفر تنفيرا فكريا من الكفر والشرك إذ يقول:

"أيها الإنسان المسرف الظالم الوسخ.! اعلم، إنّ الاقتصاد والطهر والعدالة سنن إلهية جارية في الكون، ودساتير إلهية شاملة تدور رحى الموجودات عليها لا يفلت منها شيء إلاّ أنت أيها الشقي، وأنت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقى النفرة منها والغضب عليك وأنت تستحقها فعلامَ تستند وتثير غضبَ الموجودات كلها عليك فتقترف الظلم والإسراف ولا تكترث للموازنة والنظافة؟"[25]

إن أهم ما يندد به بديع الزمان ذوي الكفر ويرهبهم به هو أن المؤمن إذا لم يدخل حظيرة الإيمان دخل دائرة الكفر الفاسدة الخبيثة. ومن أبسط مظاهر ذلك الخبث الذي يتلوث به الإنسان أنه يكون ظالما متجاوزا على حقوق جميع الموجودات بإنكار، خالقها ويكون مسرفا بإسرافه حيث يسرف في كثير مما في الكون مما وهبه الله.

المحور الثالث الحكمة

يُعَدُ الأستاذ النورسي رحمه الله رحمة واسعة من أفذاذ العلماء الذين تضلعوا في أنواع عديدة من المعارف الإلهية والحكمة الربانية وكانت جوانبه تفيض بتلك الحكمة المطهرة التي توصل إلى الحقيقة وترشد إلى الهدى وتصوب إلى وجهة الحق. فمثلا انظر إلى هذه الكلمات المستنيرة للنورسي كي تقدر أبعاد حكمته المتغلغلة في جميع أرجاء هذا الكون المشهود والمحيطة به من كلّ جانب.

"الحمد لله الذي تحمِد له وتثني عليه بإظهار صفاته الكمالية هذه العوالمُ بجميع ألسنتها الحالية والقالية؛ اذ العوالم بأنواعها، وأركانها، وأعضائها، وأجزائها، وذراتها، وأثيرها؛ بألسنةِ حدوثها وإمكاناتها، واحتياجاتها، وافتقاراتها، وحكمتها، وصنعتها، ونظامها، وموازنتها، وإتقانها، وكمالاتها، وعباداتها، وتسبيحاتها ..ألسنات مسبّحات تاليات لأوصاف جلاله بأنه :هو الله الواجب الوجود القديم السرمدي الأبدي الواحد الاحد الفرد الصمد العزيز الجبار المتكبر القهار ..وكذا حامداتٌ تاليات لأوصاف جماله قائلات بان :خالقنا رحمن، رحيم، رزاق، كريم، جواد، ودود، فياض، لطيف، محسن، جميل ..وكذا ذاكرات تاليات لأوصاف كماله ناطقات – قالاً وحالاً – بان خالقنا ومالكنا :حيٌّ، قيوم، عليم، حكيم، قدير، مريد، سميع، بصير، متكلم، شهيد ..وكذا

ألسنات تاليات لأسمائه الحسنى المتجلية في الكائنات.''[26]

يبرز بصورة واضحة أن النورسي يستمد ويستلهم الغالبية العظمى من معارفه وحكمه من الأسماء الإلهية ويوصِّل دوما ما تلمع لديه وانقدح في ذهنه من الحكم والمعارف بشكل ما بواحد أو أكثر من الأسماء الإلهية لأن جميع ما في الكون من انتظام، وإتقان، وإبداع، وخلق، وإيجاد، وإنشاء، وتنسيق، وترتيب ليس إلا من تجليات تلك الأسماء الإلهية ومظاهرها حسب مذاق النورسي، وتذوقه الروحاني، وذوقه العرفاني يشهد لذلك ما قاله من أن كل الموجودات تاليات لأوصاف جماله قائلات بأن خالقنا رحمن رحيم رزاق...إلخ. وهذا هو أسمى المناصب وأعلى القمم التي يمكن أن يتسلق إليها العلماء والعارفون والأتقياء والأصفياء عبر مسيراتهم الروحانية. فيمكن استنتاجا من هذا أن نقول بدون تحرج: إن أكثر ما يتجلى ويبرز فيه جوانب حكمة النورسي النيرة هو قراءته للأسماء الإلهية الكريمة وسيره في ظلالها الناعمة فحينما يمشي وئيدا في مظاهرها ويبرز عديدا من تجلياتها تستيقن أنه ضليع تلك الحكمة وفارس ميدانها. إن ما يتمتع به النورسي من الحكمة الجمة حكمة نقية من أدران الفلسفة، وشطحات الصوفية، وشطط الحلولية، والتوآآت الكلامية الجديدة، وتعقيدات الحكمة القديمة. فهو لا يلوي عليها، ولا يلتفت إليها، ولا يلقي إليها بالا، بل ينبذها خلف ظهره نبذا لأنه يعتقد أنها لا تأتي للمسلمين بنقير ولا قطمير في هذا العصر المدلهم بظلمات الإلحاد والجحود. كما تراه يعترض عليها بقوة ويتعرض لها بشدة. وكان أعظم أهداف النورسي وأسمى مطالبه إيصال هذه الحكمة المستنيرة في هذا الثوب القشيب إلى الناس فرادى وجماعات.

ثم إنه يستبين من خلال مقولات النورسي وأساليبه العالية اتصاله الواقعي بهذه الحكمة المستنيرة فكرا وفهما وقراءة وشرحا. وخاصة حينما يدخل في رحاب اسمي **''الحكم والحكيم''** يبرز ذلك بصورة أكثر ظهورا ووضوحا فاستمع إلى رنينه الحكيم بحكمته العميقة في هذا المقطع حتى ترى بأم عينيك أبعاد ما للنورسي من حكمة واسعة الأرجاء: ''إن التجلي الأعظم لاسم ''الحَكَم'' جعل هذا الكون بمثابة كتاب عظيم كُتبتْ في كل صحيفة من صحائفه مئات الكتب، وأُدرجت في كل سطر منه مئات الصفحات، وخُطَّتْ في كل كلمة منه مئات السطور، وتُقرأ تحت كل حرف فيه مئات الكلمات، وحُفِظَ في كل نقطة من نقاطه فهرسٌ مختصر صغير يلخص محتويات الكتاب كله.. فهذا الكتاب بصفحاته وأسطره بل بنقاطه يدل دلالة واضحة ساطعة –

بمئات الأوجه – على مصوِّرِه وكاتبه، حتى أن مشاهدة الكتاب الكوني العظيم هذا وحدَها كافية للدلالة على وجود كاتبه، بل تسوقنا الى معرفة وجوده ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه أضعافا مضاعفة.''

''إذ بينما يدل الحرفُ الواحد على وجوده ويعبّر عن نفسه بمقدار حرف فأنه يعبّر عن أوصاف كاتبه بمقدار سطر..''

''نعم! إنّ سطح الأرض 'صحيفة' من هذا الكتاب الكبير، هذه الصحيفة تضم كتباً بعدد طوائف النباتات والحيوانات، وهي تُكتب أمام أنظارنا في موسم الربيع في غاية الكمال والإتقان من دون خطأٍ، كتابةً متداخلة، جنباً إلى جنب، في آن واحد.''[27] وهكذا يستمر النورسي في الإعراب عن جوانب عظيمة ضخمة مشحونة بكثير من الحقائق العلمية والدقائق المعرفية والمسائل العرفانية التي لم يصل إليها العلم القديم والجديد إلا بشق الأنفس. فله في الإفصاح عن تلك الحكمة النيرة بيان سحري وأسلوب سلس ينزل من أقاصي مخازن حكمته الثرية كالسيل المنحدر من علو إلى سفل في قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمتا.

ألق بصرك وبصيرتك باهتمام واعتناء على هذه المناجاة النابعة من قلب ملئ يقينا وإذعانا يفيض حكمة وعرفانا. فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير! أصغ إليه وهو يناجي ربه بكلمات في نهاية الحكمة والرزانة وغاية الثقة والرصانة:

''يَا فَاطِرُ يَا قَادِرُ! يَا مُدبِّرُ يَا حَكِيمُ! يَا مُرَبِّي! يَا رَحِيمُ! لقد علمت بتعليم الرَسُولِ الأكرَم ﷺ وبدرس القُرآن الحكيم وآمنت بأنه: كما أن النباتات والأشجار تعرفك وتُعلم صفاتك القدسية وأسماءك الحسنى، فليس في الأحياء المالكة للرُوح كالإنسان والحيوانات من فرد لا يشهد على وُجوبِ وُجُودِكَ، وعلى تحقق صفاتك؛ بأعضاء جسمه الداخِلية منها والخارجية، العاملة والمساقة الى العمل – كالساعَاتِ المنتظمة – وبآلاته وحواسه الموضوعة في بدنه بنظام في منتهى الدّقة وبميزان في مُنتهى الحَساسية وبفوائد ذات أهمية، وبأجهزته البدنية المخلوقة في غاية الإتقان، والمفروشة في غاية الحكمة والموضوعة في غاية الموازنة.. لان هذه الصنعة الدّقيقة ببصيرة، والحكمة اللطيفة بشعور، والموازنة التامّة بتدبير لا يمكن أن تتدخل فيها القوة العَمياء ولا الطبيعة الصماء ولا المُصادفة العشواء، فلا يمكِن أن تكون هذه الأمور من

أعمالها.. أما تشكلها بنفسها فهو محال في مائة محال؛ لأنه ينبغي أن تعرف كلُ ذرَة من ذراتها وترى وتعمل كل ما يخص تركيب جسَدِهَا، بل كل شيء يتعلق بها في الدنيا، فتملك علماً وقدرةً محيطين كأنها إله، ثم يمكن أن يحال تشكيل الجسد إليها ويقال إنها تشكلت بنفسها!!"

"وكذا ليست هناك كيفية للأحياء عامة؛ مِن وحدة التدبير، ووحدة الإدارة، ووحدة النوع، ووحدة الجنس، ووحدة سكة الفطرة – المشاهدة اتفاقها في أوجهها عامة من عين وأذن وفم وغيرها – ومن الإتحاد في سكة الحكمة – الظاهرة في سيماء كل فرد من أفراد النوع الواحد، ومن المعية في الإعاشة والإيجاد مع تداخل بعضها في بعض.. إلاَّ وتتضمن شهادة قاطعة على وحدتك، وإشارة إلى أحديتك في الواحدية، بما يملك كلُّ فرد من أفرادها من تجليات جميع الأسماء الناظرة الى الكون."[28] هل رأيت بيانا أنصع وكلمات أفصح من هذا الأنين الطالع من ذلك القلب الحزين؟

لا نلبث أن نرى الأستاذ النورسي يتطرق بذلك الأسلوب الواضح المرن الذي يخصه هو إلى أطراف طريفة من الحكمة مستلهما جميع تلك الأطراف من تجليات ذينك الاسمين الكريمين: "إنّ الصانع القدير باسمه "**الحَكَم والحكيم**" قد أدرج في هذا العالم ألوف العوالم المنتظمة البديعة، وبوأ الإنسان – الذي هو أكثر من يمثل الحِكَم المقصودة في الكون وأفضل مَن يظهرها – موقعَ الصدارة، وجعله بمثابة مركز تلك العوالم ومحورها؛ اذ يتطلع ما فيها من حِكَم ومصالح إلى الإنسان. وجعل الرزق بمثابة المركز في دائرة حياة الإنسان؛ فتجد أنّ معظم الحِكَم والغايات وأغلب المصالح والفوائد – ضمن عالم الإنسان – تتوجه إلى ذلك الرزق وتتضح به؛ لذا فان تجليات اسم "**الحكيم**" تبدو واضحة بأبهر صورها وأسطعها من خلال مشاعر الإنسان، ومن تضاعيف مذاقات الرزق، حتى غدا كل علم – من مئات العلوم التي توصّل الإنسان إلى كشفها بما يملك من شعور – يعرِّف تجلياً واحداً من تجليات اسم "**الحَكَم**" في نوع من الأنواع.

فمثلا: لو سُئل **علم الطب**: ما هذه الكائنات؟ لأجاب: إنّها صيدلية كبرى أحضرت فيها بإتقان جميع الأدوية وادّخرَت. وإذا ما سُئل **علم الكيمياء**: ما هذه الكرة الأرضية؟ لأجاب: إنّها مختبر كيمياء منتظم بديع كامل. على حين يجيب **علم المكانيكا (علم الآلات)**: إنها معمل منسَّق كامل لا ترى فيه نقصاً. كما يجيب **علم الزراعة**: إنها حديقة غنَّاء ومزرعة معطاء، تستنبت فيها أنواع المحاصيل، كلٌ في أوانه. ولأجاب **علم**

التجارة: إنها معرض تجاري فخم، وسوق في غاية الروعة والنظام، ومحل تجاري يحوي أنفس البضائع المصنوعة وأجودها. ولأجاب **علم الإعاشة**: إنها مستودع ضخم يضم الأرزاق كلها بأنواعها وأصنافها. ولأجاب **علم التغذية**: إنها مطبخ رباني تطبخ فيه مئات الألوف من الأطعمة الشهيَّة اللذيذة جنباً إلى جنب بنظام في غاية الإتقان والكمال. ولو سئل **علم العسكرية** عن الأرض! لأجاب: إنها معسكر مهيب يُساق إليه في كل ربيع جنودٌ مسلحون جُدد يؤلفون أمماً مختلفة من النباتات والحيوانات يبلغ تعدادها أكثر من أربعمائة ألف أمة، فتُنصَب خِيَمُهم في أرجاء سطح الأرض. وعلى الرغم من أن أرزاق كل أمَّة تختلف عن الأخرى، وملابسها متغايرة وأسلحتها متباينة، وتعليماتها مختلفة، ورُخَصها متفاوتة، إلا أن أمور الجميع تسير بانتظام رائع، ولوازم الجميع تُهيأ دون نسيان ولا التباس، وذلك بأمر من الله تعالى وبفضل رحمته السابغة صادراً من خزينته الواسعة. وإذا ما سئل **علم الكهرباء**! لأجاب: إن سقف قصر الكون البديع هذا قد زُيِّن بمصابيح متلألئة لا حدَّ لكثرتها ولا منتهى لروعتها وتناسقها، حتى إن النظام البديع والتناسق الرائع الذي فيه يحولان دون انفجار تلك المصابيح السماوية المتوهجة دوماً – وهي تكبر الأرض ألف مرة وفي مقدمتها الشمس – ودون انتقاص توازنها أو نشوب حريق فيما بينها..''

''تُرى من أي مصدرٍ تُغذّى تلك المصابيح التي لا يحد ولا ينفد استهلاكها؟. ولِمَ لا يختل توازن الاحتراق؟ علماً ان مصباحاً زيتياً صغيراً إن لم يُراعَ ويُعتنَ به باستمرار ينطفئ نورُه ويخبُ.. فسبحانه من قدير حكيم ذي جلال كيف أوقد الشمس – التي هي أضخم من الأرض بمليون مرة ومضى على عمرها أكثر من مليون سنة – حسب ما توصل إليه علم الفلك – دون أن تنطفئ ومن دون وقود أو زيت.''[29]

إنه رحمه الله تطرق في هذا المقطع القصير إلى أنواع من حكمته تعالى: حكمته المندمجة في خلق العوالم، حكمته المندمجة في خلق الإنسان، حكمته المندمجة في خلق الرزق، حكمته المندمجة في أنواع من العلوم التي وضع الله سبحانه قوانينها، وقواعدها مخبوءة مبثوثة في هذا الكون العظيم فيستنطق رحمه الله تلك الأنواع من العلوم فيفصح كل منها عما في كيانه وبنيانه من تلك الحكمة البارزة الجلية التي تدل على طرف من حكمة وعظمة خالقها العظيم والتي هي من تجليات أسمائه الجليلة. وهكذا لو ذهبنا نستقصي جميع مواد الحكمة ومصادرها المبثوثة والمنظومة فى مؤلفات النورسي لبعد بنا الشقة ولزمنا أن ننقل الكثير الكثير من مؤلفاته وذلك ما

نضيق به ذرعا في هذا العمل المضني. وحتى أننا نجد أنفسنا تجاه هذا الميراث التوحيدي الصافي وهذه الثروة الإيمانية العظيمة مثل **فاطمة بنت حوشب الأنمارية** حينما سئلت: أي أولادك أفضل؟ فأجابت: **ثكلتهم إن علمت أيهم أفضل بل هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها**. فلا ندري أي مقطع نقبس أو إلى أي قطعة من الرسائل نشير. بل كل مقاطعها كسبائك عسجد صيغت بإلهام من اللطيف الخبير. والعارف اللبيب تكفيه الإشارة.

وختاما لهذا المحور أود أن أنقل رشفة من أديمه أو آتي بقبس ضئيل من بلسم حكمته التي تتلاطم بأمواج كأمواج البحار والمحيطات من العلم والمعرفة. ومن خلال ذلك سيستبين أطراف وأفنان من عجائب حكمة النورسي ولكن أحب أن أفصح قبل ذلك عن حقيقة ربما لا تخفى على القارئ المتمرّس الحصيف وهي أنك ترى تلك الحكمة الرفيعة للنورسي لا تنقص فيضانا ولا تخمد بركانا سواء في مسيرته المباركة في ظلال الأسماء الإلهية وتجلياتها القدسية كما في اللمعة الثلاثين مثلا أو في مسيرته الفكرية عبر صحائف هذا الكون المشهود وقراءته الرائعة لحججها وبراهينها وشواهدها ودوالها كما في جل رسائله وخصيصا حينما يتناغم بتلك الفيوضات القدسية التي ذاقها عرفانا ووجدا مقدسا وهضمها علما ويقينا ونطق بها احتجاجا وبرهانا في تلك الأبواب الستة التي سردها في شرح عرفاني وإيضاح برهاني وشهود يقيني لتلك الكلمات القدسية: (سُبحانَ الله، والْحَمْدُ لله، واللهُ اَكْبَر، ولآ إلٰهَ إلاَّ الله، وحَسْبنَا الله ونِعْمَ الوَكِيل، ولٰا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله العَلِي العَظِيم) التي فاض بها حكمة النورسي في اللمعة التاسعة والعشرين وفي سائر كتاباته حتى إنه يقول في بداية الباب الرابع إن هذا الفصل يشير إلى ثلاث وستين مرتبة من مراتب معرفة الله وتوحيده.[30] كما يذكر في بداية الفصل الثاني أنه ذكر تسعا وسبعين مرتبة من مراتب المعرفة والتوحيد.[31] ولعمري لو أمعنت النظر في ما قدمه في باب الحجاج على معرفة الله سبحانه وأحطت بجميع ما كتبه لوجدت أنها تنوف على آلاف الحجج والبراهين على وجود الله وتوحيده وسائر صفاته الكمالية، والجمالية، والجلالية.

فنختم هذا المحور بإحدى جمله المفعمة حكمة والمشحونة يقينا والمليئة عرفانا: ''اللّٰهمَّ إنّي أُقَدِّمُ إلَيكَ بَينَ يَدَي كُلِّ نِعْمَةٍ وَرَحمَةٍ وَحِكمَةٍ وَعِنايَةٍ، وبَينَ يَدَي كُلِّ حَيَاةٍ وَممَاتٍ وَحَيوَانٍ وَنَبَاتٍ، وَبينَ يَدَي كُلِّ زَهرَةٍ وَثَمَرةٍ وَحَبَّةٍ وَبَذرَةٍ، وَبَينَ يَدَي كُلِّ صَنْعَةٍ وصِبغَةٍ ونِظامٍ وَميزَانٍ، وبينَ يَدي كُلِّ تَنظيم وَتَوزِينٍ وتَمييزٍ في كُلِّ المَوجُودَاتِ

وَذَرَّاتِها، شَهادَةً نَشهَدُ:

أنْ لآ إلٰهَ إلاَّ اللهُ هُوَ الْحيُّ القَيومُ لآ إلٰهَ إلاَّ اللهُ هُوَ الْبَاقِي الدَّيمُومُ

لآ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لآ شَرِيكَ لَهُ لآ إلٰهَ إلاَّ اللهُ هُوَ الْعزِيزُ الجَبَّارُ...إلخ[32]

المحور الرابع التوصيل

إن من أجال نظرة سريعة على رسائل النور يتبين له أن للعلامة النورسي ميزة خاصة وخصيصة مميزة في التعريف بأسماء الله الحسنى وقراءة مظاهرها واستبانة تجلياتها، فهو حينما يغدو ويروح في بساتين آثار الأسماء الإلهية كي يبرز معانيها، ويظهر دلالاتها، ويستكشف مغازيها، ويستجلي وجوه الحقائق الإلهية العظمى في إثارة كنوزها يبدو وكأنه فارس ميدان وعندليب جنان فلا يعرف لسانه وقلمه راحة وهدوءا ولا يعرف عقله وفكره نصبا وعياء. فلعمر الله إنك حينما تسير وفكرك مع النورسي في قراءته لتجليات وآثار الأسماء الإلهية تستيقن أنك أمام عارف رباني تذوّق بقلبه وطعم بفكره تلك الأسرار الإلهية التي أظهرها الله على صفحات الأكوان والتي أضمرها في خبايا الموجودات وشرب بعقله وبصره وبصيرته سلسبيل الاكتناه والاستيقان لما في العالم العلوي والسفلي من جميع وجوه الدلالة والشهادة على عظمة ذلك الخالق العظيم. أليس من المثير حقا مسير النورسي في ظلال الأسماء الإلهية عندما يحاول أن يثبت للعمي الصم حقيقة الحشر فيسير في ظلالها ويستشهد بتجلياتها ويذكر في ظلال أربع وعشرين اسما من أسماء الله الحسنى ثلاثا وعشرين دليلا كليا جامعا من الأحداث والأفعال والتصاريف الجارية في الكون التي تدل من جهة على الصفات الكمالية والجمالية والجلالية للخالق سبحانه. ومن جهة أخرى ينتقل النورسي نقلة طريفة من تلك الدلالة إلى وجه دلالتها على ضرورة الحشر.[33]

وكذلك نرى للنورسي توجها رائعا مدهشا نحو قراءة تجليات الأسماء الإلهية وشرح مظاهرها حينما يناجي ربه في تلك المناجاة التي سماها الشعاع الثالث والتي تآزر في استكشاف مغازيها، وتظاهر على إبراز معانيها جميع كيانه المادي والمعنوي من روحه، وقلبه، وعقله، وسائر لطائفه، وأحاسيسه. وتعاون على استخراج مكنون حقائقها، واستطلاع مخزون أسرارها جميع مكتسباته وممتلكاته من علمه، وفكره، وثقافته، وباقي مكاسبه. يناجي النورسي فيها ربه بصورة ملحة بسبعين اسما من أسمائه العظيمة واقفا متأنيا عند كل اسم متفكرا بعمق وأصالة فيما هو من تجلياته ومظاهره

من الأفعال الحكيمة والتصريفات العظيمة مستدلا بها على ما لا بد من الاستدلال عليه من حقائق الإسلام العظمى ومسائله العليا.[34]

كما نرى من عجائب النورسي رحمه الله ما أبدع به عبقريته العلمية والعرفانية الفذة وإشراقته الروحية الجمة في شرح الأسماء الإلهية الستة: **القدوس، الحكم، العدل، الفرد، الحي، القيوم** فإنه رحمه الله سار سيرا خاصا وهو يشرح تجليات تلك الأسماء في اللمعة الثلاثين، أتى بأنواع من الحكمة وأصناف من المعرفة وخاض في بحار متلاطمة من تجليات تلك الأسماء العظيمة، وأتى بفرائد مكنونة في أصداف لم يطمثهن إنس ولا جان. حيث كثف نظره حينما يسير في ظلال اسم **القدوس** على تجلياته في مجال التنظيف والتطهير السائد على جميع مجالات الإيجاد والإحياء والإماتة وكثف نظره أثناء سيره في ظلال اسم **العدل** على تلك الموازنة الرائعة الدقيقة التي عمت الكون كله. كما ركز نظره وهو يسير في ظلال اسم **الحكم** على ما يعم جميع أرجاء الكون من انتظام واتساق وموازنة دقيقة تجمعها كلها تلك الحكمة التي تسود الجميع. وهكذا ترى الأستاذ جعل البيان عن موضوع يناسب تجليات ذلك الاسم الذي سيبحث عنه نصب عينيه هدفا وهو يسير في ظلال كل واحد من تلك الأسماء الستة فيحاول الإفصاح عن ذلك الموضوع بكل ما أوتي من جهد وقوة.

نعم الحق يقال! إن الشيخ النورسي شارح حقيقي – بمعنى الكلمة – للأسماء الإلهية. حيث شرحها من وجوه شتى: ولكن ليس شرحا لغويا أو أدبيا يقف عند المدلول اللغوي للاسم ويفحص عن الملابسات الصرفية له وعن سائر العلاقات اللسانية له باحثا عما مرت الكلمة به من مراحل أو لقيت من التطورات. فالنورسي بمعزل عن ذلك. بل شرحها شرحا حكميا، علميا، عرفانيا، عقليا، ذوقيا. وأتى في شرحها باستنباطات رائعة واستخرج منها حكما رائقة، وعلوما غزيرة، ومعارف جمة، واستنطقها استنطاقات طريفة، واستنبط منها آلاف الأدلة واستخرج منها مآت الفوائد والقواعد فألف بين المعاني المتجانسة، وفرق بين المواضيع المتخالفة، ونظم بين المفاهيم المتقاربة، وجمع بين المدلولات المتآلفة. فاستحصل نتائج جمة لم يسبق لها مثيل ولا يعرف لها نديد. فهو بقراءته الرائعة يوصِّل بين تجليات الكثير من الأسماء الإلهية ويؤلف بين العديد من المعاني الطالعة من دنان تجليات الأسماء الإلهية. فيفصح بحكمته النافذة عن سيادة تلك المعاني على الكون كله بتعاون مع القريب منها من تجليات الأسماء الأخرى.

إن من أهم وأطرف تلك النتائج التي حصل عليها النورسي عبر مسيره في ظلال الأسماء الإلهية وقراءته لتجلياتها أنه وصل بين المظاهر المتقاربة لتلك الأسماء وبكلمة أخرى إنه رحمه الله حينما يسير سيره العرفاني في تلك التجليات يجمع بين المتقارب منها ويؤلف بين المتآلف فيها ويوصل بين ما تفرّق منها فيخلص إلى معاني كلية تسود عامة صفحات الكون والحدوث، ومفاهيم شمولية تغمر كافة أنواع الإيجاد والإنشاء. كما يقول: ''فهناك حقائق محيطة معها: كالرحمة والعناية والرقابة، وأمثالها مئات من الحقائق المحيطة والأنوار العظيمة''.[35]

للأستاذ جهد خاص وسعي متميز في تحصيل التوصيل بين مغازي الأحداث الجارية في الكون، التي تحمل دلالات شتى وإشارات قصوى، فعدّها من تجليات الأسماء الإلهية.

يقرر هذه الحقيقة بقوله: ''ويستشفع (أي محمد ﷺ) بجميع الأسماء القدسية الإلهية المتجلية في مرايا الموجودات، بل تدعو وتطلب تلك الأسماء عينَ ما يطلب هو. فاستمع !ها هو يطلب البقاء واللقاء والجنة والرضا. فلو لم يوجد مالا يعد من الأسباب الموجبة لإعطاء السعادة الأبدية من **الرحمة، والعناية، والحكمة، والعدالة** المشهودات – المتوقف كونها رحمة وعناية وحكمة وعدالة على وجود الآخرة– وكذا جميع الأسماء القدسية أسباباً مقتضية لها لكفى دعاء هذا الشخص النوراني.''[36] يستبين أن النورسي يبصر ويُرِي كل ذي بصيرة أن هذه الحقائق الأربع اللاتي هي مظهر لأسماء الله الحسنى هي السائدة على تصاريف الكون والفعاليات التي تجري فيه دوما إذ يقول: ''نعم! أمن الممكن أن يظهر كل ذلك خلافاً للحقيقة، خلافاً لأوصافه المقدّسة وأسمائه الحسنى:**''الحكيم، الكريم، العادل، الرحيم''؟** كلا.. ثم كلا. أم هل من الممكن أن يكذِّب سبحانه حقائقَ جميع الكائنات الدالة على أوصافه المقدّسة من حكمةٍ وعدلٍ وكرمٍ ورحمة، ويردّ شهادة الموجودات جميعاً، ويبطل دلائل المصنوعات جميعاً!؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.''[37]

فيشاهد النورسي، في سياق إثبات الحشر من خلال قراءة تجليات الأسماء الإلهية بإشراقته الروحية التي عمت جميع جوانبه، الحقائق الأربع: **الحكمة والعناية والرحمة والعدالة**، هي التي تسود على جميع الأفعال الإلهية التي تدبر هذا الكون الفسيح الأرجاء والمترامي الأطراف فأينما قلبت نظرك منه وجدتها فيه فيقول: ''فيا صاحبي! أنعم النظر في هذا، لترى مدى ظهور اِنتظام **الحكمة**، ومبلغ وضوح إشارات **العناية**،

ومقدار بروز أمارات **العدالة**، ودرجة ظهور ثمرات **الرحمة** الواسعة، في تلك القصور المتبدلة، وفي تلك الميادين الفانية، وفي تلك المعارض الزائلة. فَمَن لم يفقد بصيرته يفهم يقيناً أنه لن تكون – بل لا يمكن تصور – حكمة أكملَ من **حكمة** ذلك السلطان ولا عناية أجمل من **عنايته**، ولا رحمة أشمل من **رحمته**، ولا عدالة أجلّ من **عدالته**.''[38]

نجد في هذا السياق أن النورسي يرى بحكمته البصيرة النافذة أن **الرحمة والعناية والحكمة والعدالة** هي التي تسود وتهيمن على جميع ما يفعله المولى سبحانه في الكون من خلق وإنشاء وإيجاد وتقدير وتدبير فهذه هي المعاني العامة السائدة على جميع ما يجريه الرب الرحيم في الكون. وكل من تلك المعاني من تجليات أسماء الله العظيمة. هذه واحدة!

و في سياق آخر حينما يسير في ظلال اسم **العدل** استنباط طائفة أخرى تسود فعاليات الكون ونظامه وله في هذا السياق تصريحان:

التصريح الأول هو التصريح بالبعض المعين من المعاني الكلية الجارية في نظام الكون والمستنبطة من معاني الأسماء الإلهية الكريمة إذ يقول: ''فاعلم من هذا أن '**العدالة والاقتصاد والطهر**' التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدها إيغالا في أعماق الحياة الاجتماعية، وما أشدها عراقة وأصالة. وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدّت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرىً وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها أن إفساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته.''[39] ولا يغيبن عن بالنا أن سريان هذه المعاني بين أجزاء الكون وجزئياته إنما هو من حيث ما يقوم بها من الأفعال والأعمال والملابسات كما أن سيادة المعاني الأربعة الأول إنما هو من حيث تعلق أفعال الله كالخلق والإيجاد بها. علما منا أن العدل له تعلق بكلا الأمرين معا.

التصريح الثاني: هو أن النورسي يصرح بدون تلكؤ ولا تلعثم أنه يحيط بالكون وتصاريفه ونظاماته كثير من المعاني الكلية إذ يقول: ''ومثلما تستلزم هذه الحقائق المحيطة بالكون، وهذه الأنوار العظيمة الثلاثة: **العدالة والاقتصاد والطهر** الحشرَ والآخرة فهناك حقائق محيطة معها: **كالرحمة والعناية والرقابة**، وأمثالها مئات من الحقائق المحيطة والأنوار العظيمة تستلزم الحشر وتقتضي الحياة الآخرة.''[40] ففي منظور النورسي وحدة الصانع تستلزم أن تكون الإجراآت التي تتنوع إلى أنواع عديدة

والتي يدار بها نظام الكون كلية شمولية موجودة في كل ما يحتاج إليها. حتى لا يكون هناك تمزق وتفرق في الإجراآت التي تجرى تصاريف الكون بها. فمثلا إذا ما تفرق ما يجرى من فعالية ''التنظيف'' أو إذا لم تجر بصورة كلية سائدة على جميع المظاهر التي تحتاج إلى التنظيف دل ذلك على تشوش في الكون وعدم توحد نظام. وذاك مما ينافي وحدة الصانع.

كما نجد في سياق ثالث للنورسي تحديدا لما يجري بين أجزاء الكائنات من صلات وملابسات واتصالات وما يُجرى عليها من تقدير، وتدوير، وتصريف فيوصل بين تلك المعاني الكلية المتوائمة ويستخرج منها وحدات كلية يرى أنها تسود على كلا القسمين أيضا وليست تلك الوحدات الكلية إلا من تجليات أسماء الله الحسنى. تجد ذلك بصورة رائعة عند ما تلقى ذلك الاستنباط الرائع له في قوله: ''نعم إن إظهار الأشياء المتعاونة – وهي جامدة وبلا شعور ولا شفقة – أوضاعا تنم عن الشفقة وتتسم بالشعور فيما بينها دليل وأيّ دليل على أنها تُدفع دفعاً للإمداد والمعاونة فتجري بقوة رب ذي جلال، وبرحمة رحيم مطلق الرحمة، وبأمر حكيم مطلق الحكمة. وهكذا فان **التعاون** العام الجاري في الكون و**الموازنة** العامة السارية بكمال الانتظام و**المحافظة** الشاملة، ابتداء من المجرات والسيارات إلى أجهزة الكائن الحي وأعضائه الدقيقة بل إلى ذرات جسمه، و**التزيين** الجاري قلمه من وجه السموات المتلألئ إلى وجه الأرض البهيج، بل إلى وجه الأزهار الجميلة، و**التنظيم** الحاكم ابتداء من درب التبانة إلى المنظومة الشمسية والى ثمار الذُرة والرمان وأمثالهما، و**التوظيف** القائم ابتداءً من الشمس، والقمر، والعناصر، والسحب إلى النحل والنمل.. وأمثالها من الحقائق العظيمة جداً، والشاهدة شهادة متناسبة مع عظمتها، تشكل الجناح الثاني لشهادة الكون على وجوده سبحانه ووحدانيته وتثبتها.''[41] فاستنتج هذه المعاني الستة مما يسود الكون من تلك المعاني المتآلفة المتآزرة. وبكلمة واحدة تلك نتائج علمية عرفانية عظيمة مثيرة ربما لم يسبق إليها الأولون وهو ما نقصده بالتوصيل في هذا المحور.

وشيء آخر يلفت نظرنا حينما نرى النورسي يسير في ظلال الأسماء الإلهية ويعرب عن ما لاقى في تلك الظلال والتجليات من المعاني الكلية والمعارف العامة والعلوم الجمة والفوائد التامة هو أنه رضي الله عنه وأرضاه يفتح بذلك التفكير الإيماني الرفيع بابا حضاريا مغلقا وينشئ بذاك عقلية حضارية فذة تكون حاثة للأجيال

المقبلة على إنشاء حضارتهم الإيمانية من جديد كما فعله الرعيل الأول. واهم المؤشرات على إنشاء النورسي لتلك العقلية الحضارية الرفيعة ما يتبسط فيه النورسي من ذلك التفكير السامي والعميق والمتنوع الغني وتلك الجولات الفكرية السريعة في شتي ميادين الوجود والخلق والحياة وجميع أحداث الكون. وكل ذلك مما يستلهمه من تجليات الأسماء الإلهية العظيمة.

وغير خاف على الجميع أن ملامح تلك العقلية الحضارية بادية بارزة في كل قطعة وكل جملة وكل كلمة وكل حرف من كتابات النورسي. فعليه رحمة الله ورضوانه وغفرانه.

خاتمة

إن للأستاذ النورسي منهجا يخصه فيما يعرض من أفكار وهو منهج الاستدلال العقلي الرصين فالأستاذ تراه لا يخطو خطوة في عرض أفكاره وتقويمه وتوجيهه إلا وتراه يأتي بباقات من الأدلة والبراهين.

ففي تناوله لأسماء الله الحسنى يبدو أنّ له منهجية خاصة، فأولا إنه يقرأ جميع ما استند إليه من الأسماء الإلهية قراءة مستنيرة يستفاد منها دروس حضارية جمة سواء في التوظيف التعميري وسواء في الإحياء العلمي وسواء في غيرهما. هذا من جانب وأما الجانب الآخر فإنه سار عبر سياحاته الروحية في تجليات الأسماء في محاور أربع: محور الترغيب، محور الترهيب، محور الحكمة، محور التوصيل. ولكل واحد من تلك المحاور معالم تخصه وملامح تبدو عليه. ومن أهم ملامح ذلك العرض أن النورسي لا يغيب عبر مسيره الفكري عن وعيه وشعوره. فلا يحصل له رحمه الله أي شيء من الغيبوبة لا في فكره ولا في وعيه ولا في أي شيء آخر مضاف إليه كما أنه يتجنب تماما عن تلك التعقيدات الفلسفية والمصطلحات النخبوية والأساليب المعقدة الركيكة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المراجع:

- النورسي بديع الزمان سعيد: **الكلمات، اللمعات، الشعاعات، صيقل الإسلام،** ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٣؛ المثنوي العربي.

* * *

الهوامش:

[1] أ.د. محمد خليل جيجك: جامعة أنقرة، كلية إلٰهيات، أنقرة.

[2] النورسي بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٣، ص ٤٦٣–٤٦٤.

[3] النورسي بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٣، ص ٣٦١.

[4] المصدر السابق، ص ٥٨٥.

[5] النورسي ، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٣، ص ٥٥.

[6] النورسي ، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٣، ص ٨٩.

[7] المصدر السابق ص ٨.

[8] النورسي بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٣، ص ١٣٩.

[9] النورسي سعيد بديع الزمان، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٤١٤\١٩٩٣، ص ٨٦.

[10] النورسي ، الصيقل الإسلامي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٤١٤\١٩٩٣، ص ٥٠٢.

[11] نفس المصدر السابق.

[12] النورسي، الشعاعات، ص ٨.

[13] النورسي ، الصيقل الإسلامي محاكمات، ص ١٣٣.

[14] النورسي، الشعاعات، ص ٩٦–٩٧.

[15] المصدر السابق، ص ٥٢٧.

[16] النورسي، الكلمات، ص ٤٠٨.

[17] المصدر السابق، ص ٥٢٩.

[18] النورسي، الشعاعات، ص ١٤٦.

[19] النورسي، الشعاعات، ص77 .

[20] مسلم في صحيحه كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

[21] النورسي، الكلمات، ص ٤١٣.

[22] النورسي، الشعاعات، ص ١٩٨.

[23] المصدر السابق، ص ٢١٨.

[24] النورسي، المكتوبات، ص ٥١.

[25] النورسي، اللمعات، ص ٥٢٥.
[26] النورسي، المثنوي العربي ، ص ١٣٤.
[27] النورسي، اللمعات، ص ٥٢٨.
[28] النورسي، الشعاعات، ص ٦٠–٦١.
[29] المصدر السابق، ص ٥٣٢–٥٣٣.
[30] المصدر السابق، ص ٤٨٩.
[31] المصدر السابق، ص ٤٩٢.
[32] المصدر السابق، ص ٤٨٩–٤٩٠.
[33] راجع النورسي الكلمات، ص ٦٥–٩٩.
[34] راجع النورسي، الشعاعات، ص ٤٨–٦٧.
[35] المصدر السابق، ص ٥٢٦.
[36] النوسي الكلمات، ص ٢٦٢.
[37] المصدر السابق، ص ٨٩.
[38] النورسي، الكلمات، ص ٥٧. وراجع أيضا في موضوع سيادة الحقائق الأربع الحكمة والعناية والعدالة والرحمة على جميع أفعال الله وتصاريفه وتدابيره وجميع الأحداث الجارية في هذا الكون، النورسي، الكلمات، ص ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٧.
[39] النورسي، اللمعات، ص ٥٢٦.
[40] المصدر السابق.
[41] النورسي، الشعاعات، ص ١٨٥.

مقاصد الحياة وغاياتها في فكر بديع الزمان سعيد النورسي من خلال رسائل النور

د. محمد حمد كنان ميغا[1]

مقدمة

الحمد لله الحي القيوم، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، ليخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ورضي الله عن صحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

إنّ من المسلّمات لدى علماء الشريعة أن الخالق ﷻ لم يخلقنا عبثا ولم يتركنا هملا، بل كلّفنا بالمسؤوليات الجسام التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، فحملناها بإرادة من الله ﷻ وبتكليف منه تعالى، لنكون بذلك أسياد الكائنات، وخليفة الله تعالى في إقامة نظام الحياة بجلب المصالح ودرء المفاسد، على أن يكون قصدنا في التكليف موافقا لقصد الشارع ﷻ في التشريع، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾،[المؤمنون:١١٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾،[الدخان:٣٨-٣٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[الذاريات:٥٦]

فعموم هذه الأدلة تثبت أنّ لله ﷻ في خلقه غايات وأهدافا تتضمّن حفظ مصالح العباد في الدنيا والآخرة. وإذا نظرنا إلى عموم الشريعة، وجدنا أن المقصد الأساس منها هو إقامة نظام البشر فيما بينهم في إطار إثبات الحاكمية الأعلى لرب العباد، وقد لخص النورسي ذلك في الشكر والعبادة، بالإخلاص والمتابعة. وفي ذلك يقول:

"الحياة هي نتيجة الكائنات، مثلما أن نتيجة الحياة هي: الشكر والعبادة، فهما سبب خلق الكائنات، وعلة غايتها، ونتيجتها المقصودة..."[2] ويقول أيضا: "إنّ الحياة آية توحيد ساطعة على وجه الكائنات، وأنّ كل ذي روح – من جهة حياته – آية الأحدية، وأنّ الصنعة المتقنة الموجدة على كل فرد من الأحياء ختم للصمدية.."،[3] ومن أجل هذا أرسل الله الرسل، وأنزل الشرائع كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.الحديد:٢٥ فباستقراء هذه النصوص وغيرها من النصوص القرآنية والحديثية نخلص إلى اليقين بأنّ هذه الشريعة جاءت لمصالح العباد في العاجل والآجل معا.

ولما كان الأستاذ الكبير النادر بديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٦م–١٩٦٠م) قد جاهد بفكره النيّر المتجلي في كليات رسائل النور – التي تعتبر تفسيرا واقعيا ومقاصديا للقرآن الكريم – من أجل تحقيق العبودية الحقة لله ﷻ، وحفظ مصالح العباد في المعاش والمعاد، تحت الرقابة الإلهية، والعناية الربانية، رأيت أن أبرز في هذه الورقة البحثية مقاصد الحياة وغاياتها في فكر هذا المفكر الإسلامي النادر من خلال كليات رسائل النور. وقد رأيت أن أقسم هذا البحث بعد المقدمة إلى مبحثين وخاتمة وتوصيات.

المبحث الأول: الحياة وعلاقتها بالكسب، سيُجَلِّى في هذا المبحث حقيقة الحياة، وأنّه لا معنى للحياة بدون كسب الإنسان الذي هو مطالب فيه أن يوافق قصد الشارع من خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، ليكون سيد الكائنات بعقله وكسبه، لا بحجمه.

المبحث الثاني: مقاصد الحياة، وهذا المبحث ستنجلي فيه مقاصد الحياة وغاياتها وأسرارها في نظر الإسلام، وكما يصوّرها بديع الزمان سعيد النورسي في كليات رسائله. وقد لخصها في الشكر والعبادة، بالإخلاص والمتابعة.

خاتمة: سيرد فيها أهم النتائج التي توصّل إليها الباحث.

توصية عامة في الترغيب في استكشاف محاسن هذه الشريعة ومقاصدها الأسمى، وتتبع هذا الفكر عند علماء الشريعة، ودراستها دراسة واقعية تطبيقية.

* * *

المبحث الأول: الحياة وعلاقتها بالكسب.

إنّ الحياة باعتبار الكائنات: عبارة عن تلك الحركة الدءوب في الكائنات جميعا، على اختلاف في نوعية الحياة والحركة بحسب كل جنس من الكائنات، فمن الكائنات ما حياته حياة روح، كالإنسان والبهائم، ومنها ما حياته حيات نموّ، كالنباتات، ومنها ما حياته حياة حركة دائمة، كحركة الإلكترونات حول النواة في الجمادات عند علماء الكيمياء والفيزياء. والدليل على حركية كل الكائنات، قول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.الإسراء:٤٤ فقد أثبتت الآية الحركية لكل الكائنات وذلك بإسناد التسبيح إليها جميعا بلا استثناء، فالحياة – كما يقول النورسي – ''نتيجة الكائنات، مثلما أنّ نتيجة الحياة الشكر والعبادة''،[4] وبينت الآية أنّ الكائنات أدل دلالة على وجود خالق مدبر وقيّوم على أمور هذه الحياة والحركة. وفي هذا يقول النورسي: ''اعلم أنّ أعجب معجزات القدرة وأدقها الحياة..وكذا هي أعظم كل النعم، وأظهر كل البراهين على المبدأ والمعاد''.[5]

الحياة باعتبار الفناء والبقاء حياتان: حياة الدنيا الفانية، وحياة الآخرة الباقية.

فالحياة الدنيا هي التي لها ارتباط بالكسب، ولا اعتبار لها بدون كسب، وأعني بالكسب هنا: العمل الذي يقرّب الإنسان إلى الله تعالى، عبادة كان أم عادة أم معاملة، ولهذا وصف الله الحياة الدنيا بمتاع الغرور، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾،آل عمران:١٨٥ والحديد:٢٠ فإنّ حصر النظر في الدنيا يحوّل اللذة إلى ألم مرير كما يقول النورسي، وضرب لذلك مثالا، فقال يخاطب نفسه: ''يا من ترين هذه الحياة حلوة لذيذة فتطلبين الدنيا وتنسين الآخرة..هل تدرين بم تشبهين؟ إنك لتشبهين النعامة..تلك التي ترى الصياد فلا تستطيع الطيران، بل تقحم رأسها في الرمال تاركة جسمها الضخم في الخارج ظنا منها أنّ الصياد لا يراها..''[6] فلولا الكسب الذي يندرج تحت الدين الإسلامي لما كان للحياة طعم ولا لذّة، يقول النورسي: ''إذا أردت أن تفهم ما دور الدنيا وما دور الروح الإنسانية فيها، وما قيمة الدين عند الإنسان، وكيف أنّه لولا الدين الحق لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب، وأن الشخص الملحد هو أشقى المخلوقات..''.[7] فإذا كانت هذه الحياة الدنيا هكذا فينبغي للعاقل أن يأخذ بالأولويات فيها، فيأخذ الأحسن من كل شيء، ويأخذ ما صفا ويترك ما كدر؛ لأنّ هذه الحياة الاجتماعية الموقتة، والحضارة الإنسانية يوجد فيها الخير والشر، والطيب والخبيث،

والطاهر والقذر معا، فلا بد من التمييز بين الأولويات لينال هذا الإنسان سعادة الدنيا والآخرة، وإلا كان أشقى الكائنات في الدنيا هنا وفي الآخرة. يقول النورسي: ''اتخذ هذه القاعدة دستورا لك (خذ ما صفا، دع ما كدر) فانظر بحسن، وشاهد بحسن، ليكون فكرك حسنا، وظنك حسنا، وفكّر حسنا، لتجد الحياة اللذيذة الهانئة.. إنّ الأمل المندرج في حسن الظنّ ينفخ الحياة في الحياة، بينما اليأس المخبوء في سوء الظن ينخر سعادة الإنسان ويقتل الحياة.''[8] وقد بَيَّنَ النورسي حقيقة الدنيا لدى أهل الهداية في قوله:

لما زالت الغفلة، أبصرت نور الحق عيانا.
وإذا الوجود برهان ذاته، والحياة مرآة الحق..
وإذا العقل مفتاح الكنز، والفناء باب البقاء.
وانطفأت لمعة الكمال، وأشرقت شمس الجمال.
فصار الزوال عين الوصال، والألم عين اللذة.
والعمر هو العمل نفسه، والأبد عين العمر.
والظلام غلاف الضياء، وفي الموت حياة حقة.
وشاهدت الأشياء مؤنسة، والأصوات ذكرا..
فالموجودات كلها ذاكرات مسبحات.
ولقد وجدت الفقر كنز الغنى وأبصرت القوة في العجز.
إن وجدت الله فالأشياء كلها لك.
نعم إن كنت عبدا لمالك الملك، فملكه لك..
وإن كنت عبدا لنفسك معجبا بها فأبصر بلاء وعبئا بلا عد وذقها عذابا بلا حد.
وإن كنت عبدا لله حقا مؤمنا به، فأبصر صفاء بلا حد، وذق ثوابا بلا عد، ونل سعادة بلا حد.[9]

فهذه العبارات الجميلة في تراكيبها، البليغة في معانيها، بيّن فيها النورسي حقيقة الحياة، وأنّ أهل الهداية الذين هم أهل الله وخاصته، حياتهم كلها تتحول إلى لذّة، وهذا إنما هو بيان قوله ﷺ: ''عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له،''[10] فهؤلاء لا يعتبرون الموت فناء، إنما يرونه بداية حياة حقيقية، وسعادة أبدية، كما

يعتبرون الوجود أسطع برهان على ذات الله تعالى، فطوبى لمن سلك سبيل أهل الهداية، وانخرط في مساق فريقهم.

أما الحياة الآخرة، فإنها هي الحيوان حقيقة، لأنها لا كسب فيها، إنما فيها الجزاء، والجزاء من جنس العمل. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾.العنكبوت:٦٤ ويقول النورسي: ''إنّ الحياة حقيقة إنما هي حياة الآخرة، فذلك العالم هو عين الحياة؛ إذ لا ذرة من ذراتها إلا نابضة بالحياة، ولا تعرف الموت مطلقا''.[11] وما دام هذه الحياة للجزاء كما قلنا، فلا بد من التمييز بين المؤمن والكافر فينال كل ما يستحقه حقيقة من الجزاء؛ ''لأنه ليس هناك سلطان عظيم دون أن يكون له ثواب للمطيعين، وعقاب للعاصين، فلا بد من أنّ السلطان السرمدي – وهو في علياء الربوبية المطلقة – له ثواب للمنتسبين إليه بالإيمان والمستسلمين لأوامره بالطاعة، وعقاب الذين أنكروا عظمته وعزّته بالكفر والعصيان، ولا بد من أنّ ذلك الثواب سيكون لائقا برحمته وجماله، وذلك العقاب سيكون ملائما لعزّته وجلاله''.[12] وأنّ ذلك من كمال عدل الله ﷻ. وها هو بديع الزمان سعيد النورسي يضرب هنا أروع مثال للحياة الدنيا، فيشبهها بفندق ضخم بناه ملك عظيم يعتني بتزيينه وتحسينه للزوار، الذين لا يلبثون فيها إلا أياما قليلة فيغادرونه وقد التقطوا بعض الصور الجمالية من ذلك الفندق، تحت رقابة الخدم الذين لا يغفلون عن مراقبة الزوار ساعة، وهذا نص كلامه: ''فها أنت ترى أن الملك يهدم يوميا أغلب تلك التزيينات النفيسة، مجددا إياها بأخرى جديدة للضيوف الجدد، أفبعد هذا يبقى لديك شك في من بنى هذا الفندق على قارعة الطريق يملك قصورا دائمة عالية، وله خزائن زاخرة ثمينة لا تنفد، وهو ذو سخاء دائم لا ينقطع، وأن ما يبديه من الكرم في هذا الفندق هو لإثارة شهية ضيوفه إلى ما عنده من أشياء، ولتنبيه رغباتهم وتحريكاتهم لما أعدّ لهم من هدايا''.[13]

فالمقصود بالفندق الضخم: الدنيا وما فيها من بديع صنع الله ﷻ، وأما الملك العظيم فكناية عن الله ﷻ، وأما الضيوف فهم البشر الذين استخلفوا في هذه الحياة الدنيا، وأما عمال الفندق وهم الملائكة، فلا يتركون شاردة ولا واردة من أفعال هؤلاء الضيوف إلا وأحصوها لهم، ودوّنوها في كتبهم.

* * *

المبحث الثاني: مقاصد الحياة.

إنّ مقاصد الحياة تتجلّى في أمور كثيرة، منها:

١ – معرفة الله ﷻ حق المعرفة.

٢ – العبادة بالإخلاص والمتابعة.

٣ – الامتحان والاختبار

٤ – الشكر الصبر.

٥ – الإصلاح.

أولا: معرفة الله ﷻ حق المعرفة.

إن معرفة الله تعالى هو دعوة كل الأنبياء والرسل، وهو أساس كل كمال، وعليها تنبني التكاليف، قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ..﴾محمد:١٩ وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِماً بِالْقِسْطِ ..﴾آل عمران:١٨ وقال تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ..﴾البقرة:٢٥٥ فمن أراد أن يتمتع بجمال المخلوقات وحسنها عليه أن يعرف الله حق المعرفة، لأن الخالق ﷻ هو ذو الجمال الكامل الذي أضفى جماله على كل قوانينه وأحكامه، ومخلوقاته، وتصرفاته في الكون وفي الحياة. يقول النورسي: ‘‘من عرف الله حقا يرى كل شيء جميلا حقا، استنادا إلى عطف السلطان ورحمته، واعتمادا على جمال قوانينه الإدارية.. فيقضي حياته في لذة كاملة، وسعادة تامة، فافهم من هذا سر من آمن بالقدر أمن من الكدر.’’[14] ولهذا لا يكون العمل مقبولا إلا إذا سبقه العلم بالله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾. التوبة:٥٤

إنّ مقاصد الحياة تتجلّى في العبودية الحقة لله تبارك تعالى؛ عبودية اختيارية بالإضافة إلى العبودية الاضطرارية، والعبودية الاختيارية تقتضي أن يوافق قصد المكلف في التكليف قصد الشارع في التشريع، فيأخذ من هذه الدنيا ما صفا ويترك ما كدر، فيسعد بذلك في الدارين؛ لأنه لم يغتر بهذه الحياة الفانية وزخارفها. يقول النورسي: ‘‘إن كل من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنّم حقيقة ومعنى، حتى ولو كان يتقلّب ظاهرا في بحبوحة النعيم، وأنّ كل من كان متوجها إلى الحياة

الباقية ويسعى لها بجد وإخلاص فهو فائز بسعادة الدارين، وأهل لهما معا حتى ولو كانت دنياه سيئة وضيقة، إلا أنه سيراها حلوة طيبة، وسيراها قاعة انتظار لجنته، فيتحملها ويشكر ربه فيها ويخوض غمار الصبر''.[15] قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾. آل عمران:١٨٥ فإذا كانت هذه الحياة الدنيا على ما هي عليها من نظام دقيق وبديع، ما هي إلا زخارف عابرة، فكيف يليق بالإنسان أن يتغافل عن نفسه ويطلق العنان لشهواته، أولا يعلم أنه معدود ضمن سلسلة هذا النظام الدقيق للكون والحياة؟ فالحياة – كما يقول النورسي – ''نتيجة الكائنات مثلما أن نتيجة الحياة هي: الشكر والعبادة.''[16] ويقول أيضا: ''ولا تظني نفسك سارحة مفلوتة الزمام، ذلك لأنك إذا ما نظرت إلى دار ضيافة الدنيا هذه نظر الحكمة..فلن تجدي شيئا بلا نظام ولا غاية، فكيف تبقين إذن وحدك بلا نظام ولا غاية''.[17]

فالغاية إذن من هذه الحياة هي الشكر والعبادة، اللذان يكونان سببا للحياة الباقية في النعيم الأبدي، ووسيلة ذلك هي: العمل الصالح، وهو عند النورسي: ''فعل المأمور لكسب الخيرات''.[18] والعمل الصالح عنده نوعان:

أحدهما: إيجابي اختياري.

والآخر: سلبي واضطراي، فالآلام والمصائب كلها أعمال صالحة سلبية اضطرارية.[19]

ثانيا: العبادة الخالصة لله تعالى.

العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي الغاية من خلق الإنس والجن قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:٥٦ قال النورسي: ''يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة أن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا الفانية والغاية منه هي: معرفة خالق الكون والإيمان به والقيام بعبادته..''[20]

والعبادة ثلاثة أنواع:

النوع الأول: عبادة بدنية، كالصلاة والصوم.

النوع الثاني: عبادة مالية، كالزكاة.

النوع الثالث: عبادة جامعة بينهما، كالحج.

فمقصود الحياة تحقيق كل هذه الأنواع من العبادات لله رب العالمين بالإخلاص، والمتابعة لرسول الله ﷺ، مع الابتعاد عن التشديد في كل قضايا الدين ولا سيما في العبادات؛ لأنّ الله رفع الحرج والمشقة في هذا الدين، ورسول الله ﷺ أكد النهي عن التنطع والتشديد في الدين، قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾البقرة، جزء من آية ١٨٦ وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾الحج:٨٧ وقال عليه الصلاة والسلام: ''إنّ الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة.''[21]

يحث الإمام النورسي على الإكثار من الاستغفار، وعدم الإعجاب بالأعمال الصالحة، فقال: ''اعلم أنّ الإسلام دين الله الحق، دين يسر لا حرج فيه.. فإن أدرك المرء تقصيره تلافاه بالاستغفار الذي هو أثقل ميزان من الغرور الناشئ من إعجابه بالأعمال الصالحة.''[22] وقال أيضا: ''الوجه الرابع: وهو نوع من الوسوسة الناشئة من التشدد المفرط لدى التحري للأكمل الأتم من الأعمال، فكلما زاد المرء في التشدد هذا – باسم التقوى والورع – ازداد الأمر سوءا وتعقيدا حتى ليوشك أن يقع في الحرام في الوقت الذي يبتغي الوجه الأولى والأكمل في الأعمال الصالحة.''[23]

فالعبادة من لوازم التقوى، والتقوى هو الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل، كما قال علي رضي الله عنه. ويقول النورسي في بيان مفهوم التقوى: ''فالتقوى: هي ترك المحظور والاجتناب عن الذنوب والسيئات.''[24]

ثالثا: الامتحان والاختبار.

من مقاصد الحياة الامتحان والاختبار، فإنّ الله تعالى لما خلق العباد لطاعته، وجعل على كل فرد رقيبا وعتيدا، جعل الموت والحياة امتحانا واختبارا لهم ليميز الخبيث من الطيب، وأهل الفساد من أهل الصلاح، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.الملك:١-٢ قال النورسي في تأكيد ذلك: ''إنّ الإيمان والتكليف امتحان واختبار، ومسابقة ضمن دائرة الاختبار.. وذلك ليتميز إيمان أبي بكر عن كفر أبي جهل، فيسمو المؤمنون إلى أعلى عليين، ويتردى الكفار إلى أسفل سافلين.''[25] ويقول أيضا: ''وستفهم أن الإنسان لم يترك حبله على غاربه، ولم يترك طليقا ليرتع أينما يريد، بل تسجل جميع أعماله، وتلتقط صورها، وتدوّن جميع أفعاله ليحاسب عليها.''[26]

نعم، إن الحياة امتحان واختبار، فكذلك الموت، فالموت ليس نهاية النهاية، إنما هو إعفاء عن الوظائف الدنيوية التي يستكملها الإنسان في هذه الحياة الدنيا الفانية، وبداية حياة جديدة دائمة، فالموت – إذن – إما راحة من هذه الحياة الدنيا ومشاكلها المتعددة، وهذا في حق المؤمن التقي النقي، الذي خاف مقام رب العزة والجلال، وإما بداية فتنة وعذاب وتضييق، وهذا في حق الكافر الجاحد لربه في هذه الحياة الفانية، الذي اتخذ إلهه هواه، وتبلد حسه عما يحيط به من العلامات الظاهرة، والبراهين الساطعة، على ألوهية الله ﷻ وربوبيته المطلقتين اللتين تتجليان في الكون كله، وفي الإنسان نفسه. يقول النورسي: ''وستفهم أن الموت والاندثار الذي يصيب في الخريف مخلوقات الربيع والصيف الجميلة، ليس فناء نهائيا، وإعداما أبديا، وإنما هو إعفاء من وظائفها بعد إكمالها وإيفائها، وتسريح منها، وإفساح مجال، وتخلية مكان لما سيأتي في الربيع الجديد من مخلوقات جديدة، فهو تهيّؤ وتهيئة لما سيحل من الموجودات المأمورة الجديدة، وهو تنبيه رباني لذوي المشاعر الذين أنستهم الغفلة مهامهم، ومنعهم السكر عن الشكر..''[27]

رابعا: الشكر والصبر.

إنّ الشكر والصبر من أهم مقاصد الحياة، فهما دليلان على الاستسلام المطلق لله ﷻ في المحبوب والمكروه، لأنّ الله هو الفعال لما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فهما مفتاح الفرج والسعادة؛ إذ بهما يضاعف الله الحسنات، ويحوّل الآلام إلى اللذّات. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾،إبراهيم:٧ وقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾،لقمان:١٤ وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾،سبأ:١٣ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾،لقمان:١٢ ويقول عليه الصلاة والسلام: ''من لم يشكر الناس لم يشكر الله''[28] ويقول: ''من سألكم بالله فأعطوه، ومن استعاذ كم بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن أهدى إليكم فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى ترون أن قد كافأتموه''[29]

ومقام الشكر والحمد لا يليقان إلا بالله ﷻ، ومن ثم ينبغي أن يكون شكر الناس نتيجة لشكر المنعم ﷻ، قال النورسي: ''إن الشكر والحمد لا يليقان إلا به سبحانه.''[30] وقد ذكرنا فيما مضى قوله بأنّ نتيجة الحياة هي الشكر والعبادة. فهذه نصوص تؤكد أهمية الشكر في الحياة، فالحياة بلا شكر حياة بلا طعم ولا لذّة.

أما الصبر فمجاله في الأصل المصائب والصدمات، غير أنّ العلماء صنّفوا الصبر إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الصبر على المصائب.

النوع الثاني: الصبر على الطاعة.

النوع الثالث: الصبر عن المعصية.

والصبر إذا أطلق فالمتبادر إلى الذهن هو الصبر على المصائب، وهو الذي بيّنه النبي ﷺ في حديث: ''عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له''،[31] أما الصبر المشار إليه في سورة العصر فهو الصبر العام الذي يشمل كل أنواع الصبر، فالتواصي بالصبر يكون على المصائب، وعلى الطاعة، وعن المعصية. فالشكر والصبر هما اللذان خوّلا للمؤمن هذا الفضل العظيم، فهما باب السعادة الأبدية كما ذكرنا.

خامسا: الإصلاح.

إنّ الإصلاح من أهم مقاصد الحياة، ذلك أن بالصلاح تصفو الحياة، وتنتظم أمورها، ويعيش الناس متحابين، ومطمئنين آمنين في دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم.

وقد ذم الله تعالى الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، والذين فرطوا في التناصح، وأعلى مراتب الإصلاح: إصلاح المرء نفسه، فيصلح علاقته بالله ﷻ، ثم علاقته بغيره من بني جنسه، وما يحيط به من بيئته، حتى يكون إنسانا مرضيا من الله ومن الناس، فإذا ما استطاع المرء أن يقوّم اعوجاج نفسه حُقّ له أن يسعى لإصلاح غيره وإنقاذه من مهاوي الردى.

والإصلاح هو دعوة الأنبياء والرسل جميعا، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ﴾.هود:٨٨ ومن أجله أنزلت الكتب، وشرعت الشرائع، فمدار الحياة كلها على المصلحة، وذلك عن طريق جلب المصلحة ودفع المفسدة.

الخاتمة

لقد انبنى هذا البحث على بيان حقيقة الحياة الدنيا ومقاصدها عند بديع الزمان سعيد النورسي، فتمخّضت عنه النتائج التالية:

١- إنّ الحياة باعتبار الفناء والبقاء حياتان: الحياة الدنيا الفانية، والحياة الأخرى الباقية.

٢- إنّ الحياة الدنيا حياة كسب وكدّ من أجل نيل ثواب الآخرة.

٣- إنّ هذه الدار دار ضيافة وتزوّد للآخرة.

٤- إنّ الفناء في هذه الحياة هو عين البقاء؛ لأنه انتقال إلى دار البقاء.

٥- إنّ الألم في هذه الحياة الدنيا هو عين اللذة الدائمة لمن صبر عليها.

٦- إنّ النعم المنتشرة في هذه الحياة الدنيا ما هي إلا مفتاح شهية أهل الهداية للنعيم الأبدي.

٧- إنّ للحياة مقاصد عدة، وتتجلّى في الشكر والعبادة، كما قال النورسي: ''الحياة نتيجة الكائنات، مثلما أنّ نتيجة الحياة الشكر والعبادة''.٣٢

وقد تجلى في هذا البحث مقاصد الحياة في الأمور الآتية:

١- معرفة الله ﷻ حق المعرفة.

٢- العبادة بالإخلاص والمتابعة.

٣- الامتحان والاختبار

٤- الشكر الصبر.

٥- الإصلاح.

ويحسن في الأخير أن أختم البحث ببعض التوصيات على رأسها أن أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله ﷻ في السر والعلن، وبهذا الصدد يمكن أن أشير إلى بعض التوصيات مرتّبة على النحو الآتي:

١- ثم أوصي الباحثين في مجال العلوم الشرعية أن يهتموا بإبراز مقاصد هذه الشريعة ومحاسنها، وحسن عرض هذه المقاصد والمحاسن لغير المسلمين، فإنّ كل جزئية من جزئيات الشريعة لها مقاصدها الخاصة، كما أن هنالك مقاصد عامة تدخل في كل أبواب الشريعة، وكل قاعدة من القواعد المقاصدية تستحق التخصص والبحث الدقيق، والتطبيقات الواقعية، لكي نوسع دائرة الانتفاع بما نقدمه من بحوث.

٢- كما أنه ينبغي الاهتمام بإبراز مقاصد الشريعة من خلال المصادر الشرعية

الأصيلة، لنبيّن بذلك دور المجتهدين من أسلافنا، الذين قدموا حياتهم خدمة لهذا الدين، ثم نبني على ذلك ما عندنا من تجديد في النظر والتحليل، فنكون بذلك قد جمعنا بين الأصالة والحداثة.

٣- ولا ما نع كذلك إن وجد – لتحقيق هذا الغرض – مركز المقاصد كما أن هنالك مراكز أخرى متخصصة، كمركز الوسطية في الكويت.

* * *

المصادر والمرجع:

- القرآن الكريم.
- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز لبديع الزمان سعيد النورسي – كليات رسائل النور – تحقيق د. إحسان قاسم، شركة سوزلر– استنبول، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى السلمي الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، الطبعة والسنة (بدون).
- سيرة ذاتية، لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق. إحسان قاسم.
- الشعاع – كليات رسائل النور – لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق. إحسان قاسم، شركة النسل – إستنبول، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير – بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة والسنة (بدون).
- صيقل الإسلام – كليات رسائل النور – لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق . إحسان قاسم، شركة النسل – إستنبول، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- الكلمات – كليات رسائل النور – لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق. إحسان قاسم، شركة سوزلر – إستنبول، الطبعة الثالثة، سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- اللمعات – كليات رسائل النور – لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق. إحسان قاسم، شركة النسل – إستنبول، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- المستدرك، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة – مصر، الطبعة والسنة (بدون).

* * *

الهوامش:

[1] د. محمد حمد كنان ميغا، الجامعة الإسلامية بالنيجر

[2] كليات رسائل النور، اللمعات ٥٦٢/٣، اللمعة الثلاثون.

[3] المرجع السابق ٥٧٢/٣ ٥٧١.

[4] النورسي، اللمعات، كليات رسائل النور ٥٦٢/٣.

[5] النورسي، إشارات الإعجاز، كليات رسائل النور ٢١٥/٥.

[6] المرجع السابق ١٩٢/١، خاتمة الكلمة الرابعة عشرة.

[7] المرجع نفسه ٣١/١.

[8] نفسه ٨٥٤/١، اللوامع.

[9] . سيرة ذاتية ١٧٢/٩

[10] صحيح مسلم ٢٢٩٥/٤، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، عن صهيب.

[11] النورسي، صيقل الإسلام، كليات رسائل النور ٣٣٥/٨.
[12] النورسي، الشعاع، كليات رسائل النور ٢٦٣/٤.
[13] النورسي، الكلمات ٧٧/١ ٧٨.
[14] النورسي، كليات رسائل النور، الكلمة السادسة والعشرون ٥٥٢/١ ٥٥٣.
[15] النورسي، كليات رسائل النور، الكلمة الثامنة ٣٧/١.
[16] النورسي، كليات رسائل النور، اللمعة الثلاثون ٥٦٢/٣.
[17] المرجع السابق، الكليات ١٩٣/١.
[18] سيرة ذاتية ٣١٤/٩.
[19] نفسه ٨٥٩/١ ٨٦٠.
[20] النورسي، الشعاع، كليات رسائل النور ١٣٥/٤.
[21] البخاري في صحيحه، ١/ ٢٣، رقم الحديث ٣٩، كتاب الإيمان، باب الدين يسر وقول النبي ﷺ.أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة.
[22] النورسي، كليات رسائل النور ٣٠٧/١، المقام الثاني من الكلمة ٢١.
[23] المرجع السابق ٣٠٦/١.
[24] سيرة ذاتية ٣١٤/٩.
[25] النورسي، الشعاع، كليات رسائل النور ١٠٤/٤.
[26] النورسي، الكلمات ٨٠/١، الكلمة العاشرة.
[27] نفسه ٨٠/١ ٨١، الكلمة العاشرة.
[28] سنن الترمذي ٣٣٩/٤، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك.
[29] مسند الإمام أحمد ٦٨/٢، والحاكم في المستدرك ٥٧٢/١، وقال هذا صحيح على شرط الشيخين.
[30] النورسي، اللمعات، كليات رسائل النور ٥٦٢/٣ ٥٦٣.
[31] صحيح مسلم ٢٢٩٥/٤، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، عن صهيب.
[32] النورسي، اللمعات، كليات رسائل النور ٥٦٢/٣.

المنهج الواقعي في دراسة قضايا الإيمان
رسائل بديع الزمان النُّورْسي أنموذجا

د. بوكاري كندو[1]

''إنّ سببَ إيرادي التّشبيهَ والتّمثيلَ بصورة حكاياتٍ في هذه الرّسائل هو تقريبُ المعاني إلى الأذهان من ناحية، وإظهارُ مدى معقولية الحقائق الإسلاميّة ومدى تناسبها ورصانتها من ناحية أخرى، فمغزى الحكايات إنّما هو الحقائقُ التّي تنتهي إليها والتّي تدلّ عليها كنايةً، فهي –إذن– ليست حكاياتٍ خياليةً وإنّما حقائقُ صادقةٌ.''[2]

تقديم:

يقوم بناءُ الدّين على أسسٍ ثلاثةٍ متلازمةٍ وهي العقيدةُ والشّريعةُ والأخلاقُ؛ فالعقيدةُ أصلٌ يدفع إلى الشّريعة، والشّريعةُ تلبيةٌ لانفعال القلب بالعقيدة، والأخلاقُ ثمرةٌ لهما، وعلى هذا كانت الكلمة الجامعة لرسول الإنسانيّة محمّدٍ ﷺ ''بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلاَقِ.''[3] فإذا كانت الشّريعة متمثّلةً في الجوانب التّعبّديّةِ من الدّين، فإنّ هذه الجوانبَ متوقّفةٌ على معرفة المعبود، ويشير النُّورسي[4] بنظره الثّاقبِ إلى هذا المعنى في مقدّمة رسالته ''الآية الكبرى''[5] أثناء تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.الذّاريات:٥٦ ''يُفْهَمُ من أسرار هذه الآيةِ الجليلةِ أنّ حكمةَ مجيء الإنسان إلى هذه الدّنيا والغاية منه هي معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به، والقيام بعبادته، كما أنّ وظيفة فطرته، وفريضة ذمّته، هي معرفة الله والإيمان به، والتّصديق بوجوده وبوحدانيّته إذعاناً ويقيناً.''[6]

ومن هنا كان المقصدُ الأساسُ لرسالات الأنبياء قاطبةً هو إيقاظَ العقول والقلوب

وتهيئتها للعودة إلى عقيدة التوحيد وترسيخَها في النّفس باعتبارها فطرةَ الله التّي فطر النّاس عليها. قال ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[الرّوم:٣٠]

وهذا هو المنهجُ الرّبّانيُّ الذّي تلقّاه المسلمون بالإذعان والتّسليم عن رسولهم الأمينِ وحياً معصوما من قبل ربّ العالمين.

١. حقيقة المنهج الواقعي:

قام علماءُ الإسلام–بعد ختم النّبوّات بنبوّة محمّد ﷺ– بمهام تصحيح كلّ ما يخالف بناءَ الدّين في ذات المسلم في دائرتي التّكاليف الإيمانيّة والتّكاليف العمليّة، بمناهجَ وأساليبَ تفاوتت قوّةً وشمولاً، استعانةً بما يُتيحه العصر من إمكانات.

ونقصد بالمنهج في مجال المعرفة جملةَ الوسائل والأساليب والذّرائع المتّخذة لاكتساب فكرةٍ ما أو إيصالها إلى الغير. ولا يخفى ما للمنهج من أهمّيةٍ، إذ يتوقّف نجاحُ أيّ مشروع نظريّ أو عمليّ –إلى حدّ بعيد– على سلامة المنهج المتّبعِ بالإضافة إلى سلامة المضمون الفكريّ، ولذلك اعتنى النُّورسي بقضيّة المنهج أيّما اعتناءٍ فقال: ''إنّ مقصودَنا ومطلوبَنا هو: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾،[البقرة:٢٥٥] فمن بين براهينه التّي لا تُعَدُّ نورد هنا أربعةً منها:

البرهانُ الأوّلُ: هو محمّدٌ ﷺ...

البرهانُ الثّاني: هذا الكونُ وهذا الإنسانُ الأكبرُ، ذلك الكتابُ الكبيرُ المنظورُ.

البرهانُ الثّالثُ: هو القرآنُ الكريمُ، ذلك الكتاب الذّي لا ريب فيه وهو الكلامُ المقدَّسُ.[7]

البرهانُ الرّابعُ: الوجدانُ الحيُّ، أو الفطرةُ الشّاعرةُ، الذّي يمثّل البرزخَ ونقطةَ اتّصال عالَمي الغيب والشّهادة. فالفطرة الشّاعرة أو الوجدان نافذةٌ إلى العقل يَنشر منها شعاع التّوحيد.''[8]

وتعني الواقعيّةُ في المنهج، التّعاملَ مع الحقائق الموضوعيّة ذات الوجود المستيقَن والأثر الإيجابيّ، لا مع تصوّرات عقليّة مجرَّدة ولا مع مثاليات لا أثر لها في عالم الواقع، وبالتّالي فإنّ بين الواقعيّة والمادّيّة فرقًا لأنّ الفكر المادّيَّ لا يؤمن إلاّ بالمحسوس الذّي يكون في متناول حواسّ الإنسان الخمس.

وتؤكّد ‘‘رسائلُ النّور’’ على قضيّة معرفة الله وتقف عليها بإمعان، وترسم لنا السّبلَ المؤدّيةَ بالمتمعّن فيها إلى معرفته جل جلاله. ويشير النُّورسي في موضوعات مختلفةٍ إلى أنّ المنهج الذّي قامت عليه رسائلُه هو منهج القرآن الكريم، فإنّ ‘‘رسائل النّور ليس مسلكُها مسلك العلماء والحكماء، بل هو مسلكٌ مقتَبسٌ من الإعجاز المعنويّ للقرآن يُخرج زلالَ معرفة الله من كلّ شيء، فيستفيد السّالكُ في رسائل النّور في لحظةٍ ما لا يستفيده سالكُو سائرِ المسالك في سَنَةٍ، وذلك سرٌ من أسرار القرآن يعطيه الله من يشاء من العباد ويَدفع به هجومَ أهل العناد.’’[9]

ويزيد النُّورسي توضيحًا لخصوصيّة منهجه في دراسة قضايا الإيمان بعقد مقارنة بينه وبين المناهج المتّبعة لدى أتباع الأديان الأخرى فيقول: ‘‘نحن معاشرَ المسلمين خدّام القرآن نتّبع البرهان ونقبل بعقلنا وفكرنا وقلبنا حقائقَ الإيمان، لسنا كمن ترك التّقلّد بالبرهان تقليداً للرّهبان كما هو دأبُ أتباعِ سائرِ الأديان!’’[10]

فلم تنح هذه الرّسائلُ نحو القضايا المجرَّدة الجامدة، والمتتبّع لما ورد فيها يدرك أنّ المنهجيّة الواقعية كانت طابعَها الأساسَ، لم ترد فيها عَرَضًا وإنّما كان ذلك مقصودًا لم يغفل عنه المؤلّفُ لحظة ولم يبتعد عنه قيد أُنملة.

وإذا نحن قلّبنا النّظر فيما ورد في الرّسائل تبيّن لنا أنّ المنهج الواقعيَّ عند النُّورسي يتمثّل في التّعامل مع الحقيقة الإلهيّة متمثّلةً في آثارها الإيجابيّة وفاعليّتها الواقعيّة، ويتعامل مع الحقيقة الكونيّة متمثّلةً في مشاهدها المحسوسة المؤثّرة والمتأثّرة، ويتعامل مع الحقيقة الإنسانيّة متمثّلةً في الأناسي كما هم في عالم الواقع.

ويمكن أن نقول –إجمالاً– إنّ المنهج الواقعيَّ كما تتّضح معالمُه في ‘‘رسائل النّور’’ يتضمّن بُعدين اثنين استرشادا بتوجيهات الوحي القرآنيّ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾. فصلت:٥٣ وهما:

– البعدُ الآفاقيُّ فـ ‘‘يشاهد صاحب هذا النّهج تجلّيات أسماء الله الحسنى، وصفاته الجليلة في مظاهر تلك الدّائرة الآفاقيّة الكونيّة الواسعة، ثمّ ينفذ إلى دائرة النّفس، فيرى أنوار تلك التّجلّيات بمقاييسَ مصغّرةٍ في آفاق كونه القلبيّ، فيفتح في هذا القلب أقرب طريق إليه تعالى، ويشاهد أنّ القلب حقًّا مرآةُ الصّمد، فيصل إلى مقصوده، ومنتهى أمله.’’[11]

– البعدُ الأنفسيُّ وذلك بالانطلاق من ''النّفس، ويَصرف صاحبُ هذا السّير نظره عن الخارج، ويحدق في القلب مخترقاً أنانيّته، ثمّ ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلاً إلى الحقيقة، ومن هناك ينفذ إلى الآفاق الكونيّةِ فيجدها منوّرةً بنور قلبه، فيصل سريعاً، لأنّ الحقيقة التّي شاهدها في دائرة النّفس يراها بمقياسٍ أكبرَ في الآفاق.''[12]

٢. توظيف النُّورسي للمنهج الواقعي في دراسة قضايا الإيمان:

إنّ شأنَ كلِّ قضيّةٍ من قضايا الدّين المنزَّل، لا يقصد منها تقريرها من النّاحية النّظريّة كي يقنع بها من يسير تحت لوائها أو يُفحم من يعارضها أو يحاول التّشويش عليها فحسب، وإنّما يقصد منها بدرجة أولى أن تتحوّل الدّعوةُ إلى كيانٍ حيٍّ تشاهَد مبادئُه وقواعدُه النّظريّةُ في صورة كائنات محسوسة متحرّكة، وفي الفقرات الآتية نرصد طريقة توظيف النُّورسي للمنهج الواقعيِّ في دراسته لقضايا الإيمان من خلال رسائله، وذلك في بعديه الآفاقيِّ والأنفسيِّ.

٢. ١. البعد الآفاقي:

إنّ إثبات وجود الكون خطوةٌ ضروريّةٌ قبل الاستدلال به على حقائق الإيمان، وعليه كان النُّورسي حريصا على إثبات ذلك الوجود، فأكّد أنّ وجود الكون ثابت بالآيات القرآنيّة، وذلك انطلاقا من التمييز بين نوعين من الوجود وهما الوجود الإلهيّ ووجود ما سوى الله، أي جميع المخلوقات كما يفيده قوله جل ﷻ: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.العلق:١ بدلالة العموم المستفادةِ من حذف المفعول به من فعل ﴿خَلَقَ﴾.فالكون في فكر النُّورسي كلٌّ مركّبٌ من الكائنات الحيّة والميّتة: من الحيوانات والطّيور والنّباتات، ومن السّماوات والأرض، والنّجوم والكواكب والأجرام والأبعاد والأشكال والأوضاع والحركات والآثار والقوى والطّاقات. والظّواهرُ الكونيّةُ هي هذه الحياة والموت، واللّيل والنّهار، والنّور والظّلام، والمطر والبرق والرّعد، والأطوار والأحوال. الكون هو هذا الخلق ذو الوجود الخارجيِّ الذّي أَلِفَهُ الإنسانُ الذّي يعتبر –هو نفسه– عنصرًا من عناصره لئن كان يشترك معه في كثير من أحواله فإنّه لا يتساوى معه بل يعلو عليه قيمة وشأنا بالإيمان،[13] والكون مسخَّر له كما في قول الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾،الجاثية:١٣ فكان الحديثُ عنه خاصًّا. وقد عُبّر عن الكون في السّياق القرآنيّ

في بعض الموضوعات بالآفاق كما في قوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ﴾. فصّلت:٥٣

يختلف النُّورسي في موقفه من الكون عن التّصوّر الذّي يعتبر الكون عَدَمًا أو شبيها بالعدم على النّحو الذّي نجده في بعض الفكر الصوفي خاصة أو أصحاب وَحْدَةِ الوجود ''لأنّه لا يضطرّ إلى إعدام الكائنات ولا إلى سجنها، حيث إنّ أهل وَحدة الوجود توهّموا الكائنات عدماً، فقالوا: لا موجود إلاّ هو، لأجل الوصول إلى الاطمئنان والحضور القلبيّ، وكذا أهل وحدة الشّهود حيث سجنوا الكائنات في سجن النّسيان فقالوا: لا مشهود إلاّ هو، للوصول إلى الاطمئنان القلبيّ والحضور الدّائميّ.''[14]

كما يتعارض مفهومه للكون مع المفاهيم التّي ترى الكونَ فكرةً مجرّدةً عن الشّكل والقالب، أو هيولى (Hyle) أي مادّة أوّليّة غير مشكّلةٍ، أو صورةً أو مثالاً في العقل ٱلْمُطْلَقِ، على النّحو الذّي نجده في بعض تيّارات الفلسفة اليونانيّة كالأرسطيّة والأفلاطونيّة.

أولى النُّورسي المعرفةَ الكونيّةَ أهمّيةً كبيرةً سيرًا على المنهج القرآنيّ الذّي يحثُّ على الانطلاق من الآفاق للعروج إلى عالَم الألوهيّة، فتميّزت هذه المعرفةُ عند المسلمين وافترقت عن مثيلتها في الأفكار المادّيّة الصّرف بخاصيّة جوهريّة هي بُعدها الغيبيُّ، ونقصد بذلك تجاوز المستوى المادّيّ الخالص والنّفاذ إلى الدّلالة الغيبيّة للمحسوسات. وفي هذا الإطار يتجلّى دور العقل والتّفكّر الذّي ركّز النُّورسي على بيانه؛ فممّا ورد في معرض حديثه عن قيمة العقل أنّ ''الإنسان – بما مُنح من عقل وفكر– ذو علاقةٍ فطريّةٍ وثيقةٍ بالماضي والمستقبل فضلاً عمّا هو عليه من زمان حاضر حتّى إنّه يتمكّن من أن يذوق لذائذ تلك الأزمنة ويشعر بآلامها، خلافاً للحيوان الذّي لا تعكّر صفوَ لذّته الحاضرة الأحزانُ الواردةُ من الماضي ولا المخاوف المتوقّعة في المستقبل، حيث لم يُمنح الفكرَ.''[15]

وبالفعل، فإنّ عالَم الوجود المادّيّ بأسره لوحةُ تفكّرٍ في عين النُّورسي فكان يحبّ الطّبيعة ويتعلّقُ بها، فيجيل فيها نظره متأملا، وقد بلغ من حبّه للطّبيعة أنّه كان يحصي عناقيدَ ساقٍ نحيفةٍ لعنب متدلّ، بل وحبّات عنقودٍ واحدٍ منها، ويحصي عددَ أغصان شجرة اللّوز وعدد فروعها، بل حتّى عدد ما في أزاهيرها من خيوطٍ. إنّه يتأمّل في كلّ

ذلك ليدرك آيات الخلق ودلالتها على الموجد،[16] والقصد من خلق الإنسان هو القيام بوظيفة التّفكّر، فهو يطالع العالم في شكل لوحتين ودائرتين ‘‘إحداهما: دائرةُ ربوبيّةٍ في منتهى الانتظام وغاية الرّوعة والهيبة ولوحة صنعة بارعة الجمال وفي غاية الإتقان، والأخرى: دائرةُ عبوديّة منوّرة مزهّرة للغاية، ولوحة تفكّر واستحسان وشكر وإيمان في غاية الجامعيّة والسّعة والشّمول، بحيث إنّ دائرة العبوديّة هذه تتحرّك بجميع جهاتها باسم الدّائرة الأولى وتعمل بجميع قوّتها لحسابها.’’[17]

إنّ المناظر التّي يوفّرها الكونُ ليست أوهامًا بل حقائق، لأنّ الذّي يقال هو ما يجري حولنا من الأحداث في كلّ لحظة سواء شاهدناها أو لم نشاهدها، لكنّ الأعينَ العضويّةَ غيرُ كافية للإحاطة بهذا المنظر، لذا فإنّ القسمَ المتبقّيَ من اللّوحة سيُتَمَّمُ بمساعدة قوّةِ الخيال وبواسطة التّفكّر؛ فإنّ الحواسّ ليست قاصرةً على الحواسّ الخمس المعروفةِ التّي لا يتجاوزها المادّيّون أو الطّبيعيّون،[18] وإنّما للإنسان حواسّ أخرى كثيرة مثل حاسّتي السّوق والشّوق.[19]

يظهر المسلك المشار إليه في رسالةُ ‘‘الآية الكبرى،’’ والتي تضمّنت أُنْمُوذَجًا واضحًا للتّفكّر الآفاقيّ، وخاصّة في مقدّمتها التّي هي مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه، وبرهن النُّورسي فيها على عمقِ معرفةٍ بالعلم الكونيّ، وكان ذا بصر ثاقب وبصيرة نافذة فتمكّن من تصوير الكون في مظاهره المتعدّدة بريشة الفنّان الماهر، يَشعر كلُّ شخصٍ أمامه بجمال أخّاذ وتأثير عميق، كما تمكّن من إبراز المعاني العلميّة التّي اعتمد عليها في مناقشة الفلاسفة والمادّيّين والطّبيعيّين، فإنّ ‘‘كلّ من يأتي ضيفاً إلى مملكة هذه الدّنيا ويحلّ في دار ضيافتها، كلّما فتح عينيه ونظر رأى مضيفاً في غاية الكرم، ومعرضاً في غاية الإبداع، ومعسكرَ تدريب في غاية الهيبة، ومتنزّهاً جميلاً في غاية الرّوعة، ومشهراً في غاية الإثارة للشّوق والبهجة، وكتاباً مفتوحاً ذا معانٍ في غاية البلاغة والحكمة.’’[20]

إنّ الكون في بنيته العامّةِ منظّمٌ تنظيمًا بديعًا، ومنطوٍ على معانٍ جمّةٍ وفيرةٍ بحيث يبدو على صورة ‘‘قرآن جسمانيّ،’’[21] وقد أُعدّ ونُظّم بشكل تجد فيه جميعُ الأسئلة والاستفسارات أجوبةً شافيةً لها. وتُثبت شهادتَه العظيمةَ على الوجود الإلهيّ والوحدانية حقيقتان في نظر الأستاذ:

أوّلا: حقيقة الحدوث والإمكان التّي استدلّ بها المتكلّمون ولم ينكرها الأستاذ وإن

كان توسّع في توضيحها؛[22] فبناءً على أنّ العالم وكلَّ ما فيه في تغيّر وتبدّل، فهو حادثٌ وفانٍ، ولأنّه كذلك فلا بدّ له من محدث، ويستحيل الدّورُ[23] والتّسلسلُ،[24] فيلزم وجود واجب الوجود.[25]

أمّا الإمكان فهو "متساوي الطّرفين" أو "عدم اقتضاء الذّات الوجودَ والعدمَ،"[26] أي تساوي العدم والوجود بالنّسبة إلى شيءٍ مّا، فقد استولى هو الآخر على الكون، إذ نشاهد أنّ كلّ شيءٍ يرسَل إلى الدّنيا بذاتيّة خاصّة وبشخصيّة متميّزة، وبصفات خاصّة، وبأجهزة ذات مصالح وفوائد، والحال أنّ إعطاء تلك الخصوصيّة لتلك الذّات وتلك الماهية يكون ضمن إمكانات غير محدودة، الأمرُ الذّي يوجب وجود من يميّز الذّوات بخصوصيّاتها.[27]

ثانيا: حقيقة التّعاون بين الموجودات، وذلك فيما نشاهده فيما هو خارج عن قدرة المخلوقات السّاعية لحفظ وجودها ومهامّها وصيانة حياتها –إن كانت حيّة– وتحقيق وظيفتها في ظلّ الأحوال المضطربة، مثل مدّ السّحاب للنّباتات، ومساعدة النّباتات للحيوانات، ومعاونة الحيوانات للإنسان، فإنّ "إظهار الأشياء المتعاونة –وهي جامدة وبلا شعور ولا شفقة– أوضاعًا تنمّ عن الشّفقة وتتّسم بالشّعور فيما بينها دليلٌ وأيُّ دليلٍ على أنّها تُدفع دفعاً للإمداد والمعاونة فتجري بقوّة ربٍّ ذي جلال، وبرحمة رحيمٍ مطلق الرّحمة، وبأمر حكيمٍ مطلق الحكمة. وهكذا فإنّ التّعاونَ العامَّ الجاريَ في الكون، والموازنةَ العامّةَ السّارية بكمال الانتظام، والمحافظةَ الشّاملةَ، ابتداءً من المجرّات والسّيّارات إلى أجهزة الكائن الحيّ وأعضائه الدّقيقة... وأمثالها من الحقائق العظيمة جدًّا والشّاهدة شهادة متناسبة مع عظمتها، تشكّل الجناحَ الثّانيَ لشهادة الكون على وجوده سبحانه ووحدانيته وتثبّتها."[28]

ولئن كان الكونُ في كلّيته، وفي كلّ ذرّة من ذرّاته، يحمل دلالةً قاطعةً على وجود الخالق ووحدانيته، وعلى إمكان الحشر والقيامة[29] فإنّنا نستطيع أن نبرز بعض الأوجه التّي استقطبت اهتمامًا بالغًا في التّفكّر الآفاقيّ عند النُّورسي رفقةَ الضّيف السّائح، وذلك في النّقاط الآتية:

١,٢. ١. السّماواتُ:

ورد ذكرُ السّماوات في كثير من آيات القرآن الكريم،[30] وذلك في معرض الدّعوة إلى التّأمّل والنّظر فيها لغايات عقديّةٍ؛ فالسّماوات تضمّ ألوفا من الأجرام مرفوعة بلا

عمد ولا سند، منها ما هو أكبرُ من أرضنا ألفَ مرّةٍ، وما هو أسرعُ انطلاقًا من القذيفة، وهي تسير وتجري في سرعتها بلا مزاحمة ولا مصادمة. كما تضمّ السّماوات نجوما شبيهة بقناديل توقد بلا بنزين دون انطفاء. كلُّ هذه المخلوقات العظيمة مسخّرة في مهامّ معيّنة كاستسلام الشّمس والقمر لأداء وظائفهما دون إحجامٍ أو تَلَكُّؤٍ، وكلّ هذه السّيارات الضّخمة التّي تملك قوى هائلةً تخضع منقادةً مطيعةً لقانونها دون تجاوز أو انحراف. ثمّ إنّ وجه السّماء يبدو صافيا نقيًّا طاهرا، وبالتّالي ظهرت الرّبوبيّةُ ووجب الإقرارُ بالوحدانية.[31]

٢. ١. ٢. الفضاءُ:

يطلق على الفضاء أيضا اسمُ الجوّ وهو محشرٌ للعجائب ومعرضٌ للخوارق.

فمن مكوّنات الفضاء السّحابُ[32] الذّي علّق بين السّماء والأرض يسقي روضة الأرض سقياً يتفجّرُ حكمةً ورحمةً، ويُمد ساكنيها بالماء الباعث للحياة، ملطِّفاً به شدّةَ الحرارة. ومع أنّ ذلك السّحابَ الثّقيل الضّخمَ يقوم بوظائفَ كثيرةٍ فإنّه يختفي ويتبدّد فوراً بعد أن ملأ أرجاء الجوّ. ولكن ما أن يتسلّم أمرًا بإنزال المطر حتّى يجتمع ويملأ الجوَّ في وقت قصير.

ومن ظواهر الجوّ الجديرة بنظر الاعتبار أيضا الرّياحُ[33] التّي تجول فيه، فالهواء يستخدم في وظائف كثيرة في منتهى الحكمة والكرم استخداماً، فتؤدّي كلُّ ذرّةٍ في ذلك الهواء الجامد–وهي لا تملك شعوراً– خدماتِها وتنفّذها بكلّ انتظام ودقّة دون توانٍ في شيء منها؛ فتدخل هذه الذّرّات في استنشاق جميع أحياء الأرض للهواء، وسَوق السّحب وإدارتها وتسيير السّفن وجعلها تمخر عباب البحار وتسيح فيها، ونقل الأصوات والاتّصالات اللاّسلكيّة، وتوفير الموادّ الضّروريّة لذوي الحياة كالحرارة والضّوء والكهرباء، والتّوسّط لتلقيح النّباتات، وغير ذلك من المنافع.[34]

ومن الظّواهر الجوّية أيضا المطرُ؛[35] فهذه القطراتُ اللّطيفةُ البرّاقةُ العذبةُ التّي أُرسلت تزخر بهدايا رحمانيّة، ولعلّ في هذا يكمن السّرُّ في إطلاق لفظتي الغيث[36] والرّحمة[37] على المطر في قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾. الشّورى:٢٨ فهذا الماء الذّي هو جماد بسيط لا يملك شعوراً، يُستخدم في أعمال حكيمة، وبخاصّة في الإحياء والتّروية، وهو المركّب من مادّتين بسيطتين جامدتين خاليتين من الشّعور هما الهيدروجين والأوكسجين.[38]

ومن ظواهر الجوّ كذلك البرقُ[39] والرّعدُ[40] اللذّان يستخدمان في أمور عجيبة غريبة؛ فهاتان الظّاهرتان الجوّيتان تخبران عن قدوم الغيث فتبشران المعوزين الملهوفين؛ فإنّ إنطاقَ الجوِّ المظلم بغتة بصيحة هائلة تزمجر وتجلجل، ومَلْءَ الظّلام الدّامس بنور يكاد يذهب بالأبصار وبنار ترعب كلَّ موجود، وإشعال السّحب العظيمة المحمّلة بالماء تثبت وجود الله جل جلاله ووحدانيته.[41]

٢. ١. ٣. كرةُ الأرض:

تظهر كرَةُ الأرضِ كسفينة عظيمة حاملة لأنواع من الكائنات الحيّة الحاملة لجميع أرزاقها ومتطلّباتها بالشّفقة والحكمة، وكذلك المخلوقات غير الحيّة، تخطّ بحركتها دائرة تحصل بها الأيام والسّنون والفصولُ، فتمخر عباب الفضاء في سياحة حول الشّمس بكمال الموازنة والانتظام، وكلّ صحيفة من صحائفها تعرّف ربّها بآلاف آياتها.[42] وقد استقطب اهتمامَ النُّورسي جمالُ الرّبيع وسحرُه الأخّاذُ، فإذا هو بما يُشاهَدُ فيه شهادة على إمكان الحشر؛ فهو يجسّد إيجادَ ذوي الحياة وإدارتها في هذا الفصل، بوجود أفراد غير محدودة لآلافٍ من الأنواع "تنفتح صورُها وتنبسط من مادّة بسيطة بمنتهى الانتظام، وتُربّى بمنتهى الرّحمة، وتنشر في الأرجاء بمنتهى السّعة وتمنح بذور قسم منها جُنيحات رقيقة للطّيران في غاية الإعجاز، وإنّها تدار بمنتهى التّدبير،"[43] وكان ذلك تصديقًا لقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[الرّوم:٥٠]

٢. ١. ٤. البحارُ والأنهارُ العظيمةُ:

إنّ البحار التّي تتماوج بحيويّة وتتلاطم بشدّة دوماً، والتّي من شأنها التّشتّت والإغراق، قد أحاطت باليابسة، فهما تُسيَّران معاً في منتهى السّرعة وتجريان في سنة واحدة ضمن دائرة محدّدة، ورغم ذلك فهي لا تتفرّق ولا تنسكب ولا تستولي على جارتها اليابسة.

وتحمل هذه البحارُ في جوفها كائناتٍ في غاية من التّنوع والجمال، تجد أرزاقها وأقواتها في انتظام من رمل بسيط ومن ماء أُجاج، كما تضمّ في جوفها غرائبَ أخرى.

وإذا نظرنا إلى الأنهار رأينا أنّ فيها منافعَ ومصالحَ، ولها خدماتٌ ووظائفُ، وما تنتجه من مصاريف وما ترده من موارد محسوب بحكمة واسعة، وبرحمة عظيمة، وتثبت جميع الجداول والينابيع والسّيول والأنهار العظيمة وجود الله جل جلاله ووحدانيّته.[44]

٢. ١. ٥. الجبالُ:

إنّ وظائف الجبال[45] الكلّيّةَ وفوائدها العامّةَ هي من العظمة والحكمة ممّا يُحير العقول؛ فبروزُ الجبال واندفاعُها من الأرض يهدّئ هيجان الأرض ويخفّف من غضبها وحدّتها النّاجمة من تقلّباتها الباطنيّة، ويدعها تتنفّس مستريحة بفوران تلك الجبال ومن خلال منافذها. كما أنّ الجبال أوتادٌ لسفينة الأرض تثبتها وتحفظ توازنها.[46]

وتوجد في جوف الجبال أنواعُ الينابيع والمياه والمعادن والموادّ والأدوية التّي يحتاج إلى كلٍّ منها ذوو الحياة، قد ادّخرت بحكمة، وأحضرت بكرم، وخزنت بتدبير، وفي ذلك دلالة على وجود الله جل جلاله ووحدانيّته.[47]

٢. ١. ٦. الأشجارُ والنّباتاتُ:

إنّ النّاظر إلى الأشجار والنّباتات يلحظ وكأنّها عقدت مجلساً فخماً رائعاً وشكّلت حلقة مهيبة للذّكر والشّكر، وهي تنطوي على حقائقَ تدلّ على أنّها جميعا تؤدّي شهادتها مسبّحة، ومنها: حقيقة الإنعام والإكرام المقصودين، والإحسان والامتنان الإراديّين، التّي يُحسُّ معناها إحساساً ظاهراً في كلّ شجر ونبات، وحقيقة التّمييز والتّفريق المقصودين بحكمة، والتّزيين والتّصوير الإراديّين برحمة، وهي واضحة حقيقةً ومعنًى، وحقيقة فتح صور المصنوعات غير المحدودة، من حبوب معدودة متشابهة، ومن نوى محدودة متماثلة، واستنباتها في غاية الانتظام والميزان وبمنتهى الزّينة والجمال، رغم أنّها بسيطة جامدة ومختلط بعضها ببعض. كلّ هذا يؤكّد حقيقة أنّ الله جل جلاله موجود وواحد في ألوهيّته، وأنّه قادر على الإحياء يوم القيامة.[48] فضلا عن كونها تؤكّد أن رب الكون ممده بعناصر الوجود والبقاء والمصير.

٢. ١. ٧. الطّيورُ والحيواناتُ:

إنّ جميع الطّيور والحيوانات بأنواعها وطوائفها وأممها كافّةً تذكر متّفقةً كلمةَ التّوحيد بلسان حالها ومقالها، كأنّ حواسّها ومشاعرها وأعضاءها، وآلاتها، وأجهزتها، وقواها، كلماتٌ موزونةٌ منظومةٌ، وكلامٌ فصيحٌ بليغٌ. ويدرك المرءُ في جميع هذه الطّيور والحيوانات جملةً من الحقائقِ العظيمةِ الدّالّةِ قطعًا على أنّها تؤدّي شكرها تجاه ربّها بتلك الكلمات، وهي حقائقُ كلُّها تؤكّد وجودَ الله تعالى ووحدانيّتَه، منها:

– حقيقة الإيجاد والإبداع، أي منح الرّوح، إيجاد من عدم بإرادة وحكمة، وإبداع بعلم وإتقان.

– حقيقة التّمييز والتّزيين والتّصوير التّي تتّضح من تلك المصنوعات غير المحدودة التّي يختلف بعضها عن بعض بعلامات فارقة متميّزة في الوجوه، وبأشكال مزيّنة جميلة متباينة.

– حقيقة فتح صور تلك الحيوانات غير المحدودة من بيوض وبويضات متماثلة معدودة، ومن قطرات محدودة، متشابهة أو مختلفة بفارق طفيف، وذلك بانتظام كامل، وموازنة تامّة.[49]

ويُجمل النُّورسي الملاحظات التّي شاهدها في رحلته مع السّائح فيُظهر درسَ الإيمانِ من الكون في وضوحٍ ودقّةِ تعبيرٍ بقوله: "لا إله إلاّ الله الواجب الوجود، الممتنع نظيره، الممكن كلُّ ما سواه، الواحد الأحد، الذّي دلّ على وجوب وجوده في وحدته هذه الكائناتُ، الكتابُ الكبير المجسّمُ والقرآن الجسمانيُّ المعظّم والقصر المزيّن المنظّم والبلد المحتشم المنتظم، بإجماع سورهِ وآياته وكلماتهِ وحروفهِ وأبوابه وفصولهِ وصحفهِ وسطورهِ، واتّفاق أركانه وأنواعه وأجزائه وجزئيّاتهِ وسكنتهِ... وواردتهِ ومصارفهِ، بشهادة عظمةِ إحاطةِ حقيقة: الحدوث والتّغيّر والإمكان، بإجماع جميعِ عُلماء علم الكلام، وبشهادة حقيقة تبديل صورتهِ ومشتملاته بالحكمة والانتظام، وتجديدِ حروفهِ وكلماتهِ بالنّظام والميزان، وبشهادة عظمة إحاطةِ حقيقة: التّعاون، والتّجاوب، والتّساند، والتّداخل، والموازنة، والمحافظة، في موجوداته بالمشاهدة والعيان."[50]

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ[51]

وإذا نحن تأمّلنا في مختلف المعاني الكونيّة التّي كانت محلّ اهتمام النُّورسي أمكن حصرُها في دليلين أَسَاسَيْنِ:

أوّلا: دليل العناية:

وخلاصته فيما عرضت في الخلقة من صنعة بلا قصور، ورعاية فوائد ذات حكمة كما يرينا نظامُ الكونِ المكمّلُ، وأنّ الآيات التّي تتحدّث عن فوائد الأشياء للإنسان وسائر المخلوقات هي موضوعات هذا الدّليل،[52] مثل قوله ﷻ: ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُور ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾، الملك:٣-٤ وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ

الأَنْهَارَ۞ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. إبراهيم:٣٢-٣٤

ثانيا: دليلُ الحدوثِ والاختراعِ:

وخلاصته أنّ الكون حادثٌ حيث نشاهد في كلّ عصر وفي كلّ سنة، بل في كلّ موسم عَالَمًا يرحل ويحطّ آخرُ مكانه، تمضي كائنات وتأتي أخرى، والأسبابُ الجامدةُ التّي لا شعور لها لن تستطيع أن تكون مُوجدة المخلوقات التّي يعتبر كلٌّ منها معجزةً للقدرة، كما لا تستطيع الأسباب التّي هي مخلوقةٌ أن تخلق الكون وتجدّه من جديد، فالله القدير يُوجِدُ الأشياءَ من العدم ويجدّد تلك العوالمَ الشّاسعةَ من غير شيءٍ مذكورٍ.[53] والقرآن بآياته الباحثة عن الخلق والإيجاد يثبت هذا الدّليل في أذهان النّاس بجلبه النّظر إلى المؤثّر الحقيقيّ، مثل قوله ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكمْ أَيُّكمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۞ الَذِّي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾. الملك:٢-٣

يتجلّى من خلال هذه المعطيات براعةُ النُّورسي في الوصف ودقّتُه في الملاحظة، فتحصّل عنده رصيدٌ كبيرٌ من المعرفة الآفاقيّة، استعان به على مجادلة المادّيّين الذّين يتلخّص فكرُهم في التّأكيد على التّلازم الضّروريّ بين الأسباب الظّاهرة ومسبّباتها؛ فالنّباتات –مثلا– تقوم بنفسها بإنتاج غذائها فيما يسمّى ''التّركيب الضّوئيّ ''، ومضمونُه أنّنا إذا أخذنا ورقةً خضراءَ وسحقناها بين الأصابع وجدنا أنّ أصابعنا قد تلوّنت باللّون الأخضر بفعل مادّة الكُلُورُوفِيل المؤلّف من ذرّات الكربون والهيدروجين والأكسيجين والنّتروجين والمغنيسيوم، يعمل كمصنع للأغذية.[54]

والنّباتاتُ المجرّدةُ من الإرادة والعلم والقدرة لا تقوم بنفسها بإنتاج غذائها، فهذه الفكرة تمتُّ بصلة وثيقة إلى الفكر المادّيّ الذّي يزعم بأنّ الأسباب هي التّي تصنع النّتائج، لأنّه يرفض مسبقًا قبولَ وجودِ الخالق.

لقد استفادت كثيرٌ من التّيّارات الفلسفيّة من أجوآء الحرّية التّي حلّت بتركيا بإعلان المشروطيّة[55] عام ١٩٠٨، وبقي بعض المثقّفين[56] في هذه المرحلة ينتهجون نهج الهجوم على المعتقدات الدّينيّة، ونقرأ هذا التّحوّلَ فيما سجّله كارل بوبر (Karl Popper)[57] بقوله: ''إنّ الثّورة الطّبيعيّة أخذت موقفًا مضادًّا للإله وجعلت الطّبيعةَ مكان الإله، وخارج ذلك بقي كلُّ شيءٍ على ما كان عليه، وبذلك ترك العلمُ اللاّهوتيُّ مكانه للعلم الطّبيعيّ، والقوانينُ الإلهيّةُ مكانها لقوانين الطّبيعة، وإرادةُ الله وقوّتُه لإرادة وقوّةِ

الطّبيعة، وفي النّهاية ترك النّظامُ الإلهيُّ مكانه لخيارات الطّبيعة، وأخذت الحتميّةُ الطّبيعيّةُ مكان الحتميّة اللاّهوتيّةِ، يعني أنّ قدرة الطّبيعة على كلِّ شيءٍ ووحدة كلِّ شيءٍ أخذت مكان قدرة الله على كلّ شيءٍ ووحدانيّته.''[58]

وقد بذل النُّورسي جهدًا كبيرًا في بيان تهافت هذا الفكر في أسسه وغاياته في مواضعَ مختلفةٍ من رسائله.[59] ومن ذلك تعليقه على الآيات الكريمة: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وأَبًّا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.عبس:٢٤-٣٢ بقوله: ''قد تُبيّن الآيةُ غايات المسَبَّب وثمراته لتعزل السّببَ الظّاهريَّ وتسلب منه قدرةَ الخلق والإيجاد، وليُعلَم أنّ السّبب ما هو إلاّ ستارٌ ظاهريٌّ؛ ذلك لأنّ إرادة الغايات الحكيمة والثّمرات الجليلة يلزم أن يكون من شأن من هو عليم مطلق العلم وحكيم مطلق الحكمة، بينما سببها جامدٌ من غير شعور. فالآية تفيد بذكر الثّمرات والغايات أنّ الأسباب وإن بدتْ في الظّاهر والوجود متّصلة مع المسبَّبات إلاّ أنّ بينهما في الحقيقة وواقع الأمر بونًا شاسعًا جدًّا. نعم! إنّ المسافةَ بين السّبب وإيجاد المسبَّب مسافةٌ شاسعةٌ بحيث لا طاقة لأعظم الأسباب أن تنال إيجادَ أدنى مسبَّب، ففي هذا البعد بين السّبب والمسبَّب تُشْرِقُ الأسماءُ الإلهيّةُ كالنّجوم السّاطعة.''[60]

نلاحظ فيما سبق أنّ النُّورسي سار على منهج الغزّالي(أبو حامد) توسّع في تناوله المسألةَ فناقش قضيّةَ التّوكّل وعلاقتها بالسّببيّة، ونجد خلاصةَ تصوّره في رفعه بعضَ الالتباسات والظّنون التّي قد تصاحب تقريراتِه بشأن الأسباب والمسبّبات، وذلك في قوله: ''ولا تظنّن أنّ التّوكّلَ هو رفضُ الأسباب وردُّها كلّيًا، وإنّما هو عبارةٌ عن العلمِ بأنّ الأسبابَ هي حُجُب بيَدِ القدرة الإلهيّة، ينبغي رعايتُها ومداراتُها، أمّا التّشبّثُ بها أو الأخذ بها فهو نوعٌ من الدّعاءِ الفعليّ. فطلبُ المسَبَّباتِ –إذن– وترقّبُ النّتائج لا يكون إلاّ مِن الحقّ تعالى، وأنّ المنّةَ والحمدَ والثّناءَ لا ترجعُ إلاّ إليه وحدَه.''[61]

٢. ٢. البعد الأنفسي:

ومثلما كان الشّأنُ في التّفكّر الآفاقيّ فإنّ التّفكّر الأنفسيَّ مجلًى لحقائق الإيمان ومطيةٌ لإدراكها وقد وفّرت رسائل النُّورسي رصيدًا كبيرًا من ''المعرفة الأنفسيّة'' قائمًا على أساس عقديّ ومبنيًا على تعاليم الوحي تأسيسًا.

وبالفعل، يلحظ قارئ رسائل بديع الزّمان سعيد النُّورسي اهتماماً كبيراً بالإنسان، فهو وإن لم يكن –على حدّ علمنا– خصّص مؤلّفاً مستقلاّ لهذا الموضوع، فإنّه تناوله

بالبحث في مناسباتٍ مختلفةٍ، تناولاً كان مقصوداً بالأصالة لا بالعرض؛ فنراه في بحثه يفصّل القول تفصيلاً، ويتناول الموضوع بشمولٍ، ويؤصّل رؤاه بتعاليم الوحي، ويدافع عما استودعه القرآن الكريم ويدفع الآراء المخالفة المنبثقة من الثّقافات الأخرى بالاستدلال، وهو في كلّ ذلك يتعامل مع الإنسان لا باعتباره صورةً ذهنيّةً وفكرةً مجرّدةً، بل باعتباره الكائنَ المحسوسَ الذّي يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق، وهو يعتبر أنّ طريق التّفكّر الأنفسيّ أقصرُ من طريق التّفكّر الآفاقيّ،[62] واصفا النّتيجة التّي يُتوصّل إليها بالتّفكّر الآفاقيّ بأنّها قطعيّةٌ تبلغ مرتبة علمِ اليقين، بينما يصف النّتيجةَ التّي يُتوصّل إليها بالتّفكّر الأنفسيّ بأنّها قطعيّةٌ تبلغ مرتبة حقِّ اليقين.[63]

تكوّنت الموجّهاتُ العامّةُ التّي وجّهت النُّورسي في بياناته لحقيقة الإنسان تأسيساً على تعاليم الوحي التّي كان موصولاً بها على حبلٍ متينٍ، فكانت تصوّراته منطبعة بتلك الموجّهات في ذاتها وفي أسلوبها، بحيث يساعد تبيّنُها على فهم الصّورة التّي رسمها النُّورسي للإنسان في أركانها المختلفة. وفي مقدّمة تلك الموجّهات أصولُ العقيدة الإسلاميّة فيما يتعلّق بحقيقة الإنسان؛ فكان النُّورسي يتّخذ مرجعيّته في هذا الموضوع دومًا من نصوص القرآن والحديث، منها ينطلق وإليها ينتهي وعليها يؤسّس كلَّ بيان، بل كانت أكثرُ تقريراته في طبيعةِ الإنسان ومهمّةِ وجوده ومصيره استنتاجاتٍ استخرجها من التّأمّل في آيات قرآنيّة، فجرت مجرى التّفسير لها، وهو ما حفلت به رسائلُ النّور، التّي كان في الغالب يصدّر كلاّ منها بآيات قرآنيّة، ثمّ ينطلق في شرحها والاستنتاج منها ليبني على أساسها تصوّرَه لحقيقةٍ من حقائق الإنسان.[64]

٢. ٢. ١. ماهية "الأنا" بين الصّورة النّبويّة والصّورة الفلسفيّة:

ظلّ الإنسانُ محلّ تأمّل من قبل الإنسان نفسه طوال عصور متعاقبة، ولكنّ حصيلة ذلك من المادّة العلميّة شيءٌ ضئيلٌ، وعبّر ألكسيس كاريل عن معرفة الإنسان بنفسه بقوله: "وفي الحقّ، لقد بذل الجنسُ البشريُّ مجهودًا جبّارًا لكي يعرف نفسه، ولكنّنا بالرّغم من أنّنا نملك كنزًا من الملاحظة التّي كدّسها العلماءُ والفلاسفةُ والشّعراءُ وكبارُ العلماءِ الرّوحانيّين في جميع الأزمان، فإنّنا استطعنا أن نفهمَ جوانبَ معيّنةً فقط من أنفسنا، إنّنا لا نفهم الإنسانَ ككلٍّ... وواقع الأمر أنّ جهلنا مُطْبِقٌ، فأغلب الأسئلة التّي يلقيها على أنفسهم أولئك الذّين يدرسون الجنسَ البشريَّ تظلّ بلا جواب."[65]

إذا قلّبنا النّظر في رسائل النُّورسي لاحظنا أنّ صاحبها ميّز بين صورتين لماهية

''الأنا'' أو الكينونة الإنسانيّة وهما الصّورة الفلسفيّة والصّورة النّبويّة وذلك في إطار حديثه عامّة عن الفرق بين الفلسفة والدّين، فإنّ ''في تاريخ البشريّة –منذ زمن سّيدنا آدم عليه السلام إلى الوقت الحاضر– تيّارين عظيمين وسلسلتين للأفكار، يجريان عبر الأزمنة والعصور، كأنّهما شجرتان ضخمتان أرسلتا أغصانَهما وفروعَهما في كلّ صوبٍ وفي كلّ طبقةٍ من طبقات الإنسانيّة: إحداهما سلسلة النّبوّة والدّين والأخرى سلسلة الفلسفة والحكمة.''[66]

إنّ الصّورة النّبويّة لماهية ''الأنا'' هي أن يعرف الأنا ''أنّه عبدٌ لله، ومطيعٌ لمعبوده، ويفهم أن ماهيته حرفيّةٌ، أي دالٌّ على معنًى في غيره، ويعتقد أن وجوده تَبَعيٌّ، أي قائم بوجود غيره وبإيجاده، ويعلم أنّ مالكيّته للأشياء وهميّةٌ، أي أنّ له مالكيّةً مؤقّتةً ظاهريّةً بإذن مالكه الحقيقيّ، وحقيقته ظلّيةٌ – ليست أصيلة – أي أنّه ممكنٌ مخلوق هزيل، وظلٌ ضعيف يعكس تجلّياً لحقيقةٍ واجبةٍ حقّةٍ. أمّا وظيفته فهي القيام بطاعة مولاه، طاعةً شعوريّةً كاملةً، لكونه ميزانًا لمعرفة صفات خالقه، ومقياساً للتّعرّف على شؤونه سبحانه.''[67]

أمّا الصّورةُ الفلسفيّةُ المادّيّةُ لماهية ''الأنا'' فإنّها تقف في زاويةٍ معاكسةٍ تمامًا للصّورة السّابقة إِذْ ''نظرت إلى 'أنا' بالمعنى الاسمي، أي تقول: إنّ 'أنا' يدلّ على نفسه بنفسه، وتقضي أنّ معناه في ذاته، ويعمل لأجل نفسه، وتتلّقى أنّ وجوده أصيلٌ ذاتيٌّ –وليس ظلاًّ– أي له ذاتيّةٌ خاصّةٌ به، وتزعم أنّ له حقًّا في الحياة، وأنّه مالكٌ حقيقيٌّ في دائرة تصرّفه، وتظنّ زعمَها حقيقةً ثابتةً، وتفهم أنّ وظيفته هي الرّقيُّ والتّكاملُ الذّاتيُّ النّاشئُ من حبّ ذاته.''[68]

على أنّه لا ينبغي أن نستنتج من كلام النُّورسي رفضَه المطلقَ للفلسفة أو الحكمة ذلك أنّ ما ورد في مواضعَ كثيرةٍ من رسائله يؤكّد أنّه يميّز في الفلسفة بين قسمين: الفلسفة التّي استرشدت بالوحي، والفلسفة التّي تعفّنت بظلمات الفكر المادّيّ، وعليه فإنّ ''الفلسفة التّي تهاجمها رسائلُ النّور وتصفعها بصفعاتها القويّة، هي الفلسفة المضرّة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأنّ قسمَ الحكمةِ من الفلسفة التّي تخدم الحياةَ الاجتماعيّةَ البشريّةَ، وتعين الأخلاقَ والمُثُلَ الإنسانيّةَ، وتمهّد السّبل للرّقيّ الصّناعيّ، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك؛ لذا لا تتصدّى رسائلُ النّور لهذا القسم من الفلسفة. أمّا القسم الثّاني من الفلسفة، فكما أصبح وسيلةً للتّردّي في الضّلالة والإلحاد

والسّقوط في هاوية المستنقع الآسن للفلسفة الطّبيعيّة، فإنّه يسوق الإنسانَ إلى الغفلة والضّلالة بالسّفاهة واللهو. وحيث إنّه يعارض بخوارقه التّي هي كالسّحر الحقائقَ المعجزةَ للقرآن الكريم، فإنّ رسائلَ النّور تتصدّى لهذا القسم الضّالِّ من الفلسفة في أغلب أجزائها وذلك بنصبها موازينَ دقيقةً، ودساتيرَ رصينةً، وبعقدها موازناتٍ ومقاياساتٍ معزّزةً ببراهينَ دامغةٍ، فتصفعها بصفعاتها الشّديدة، في حين أنّها لا تمسّ القسمَ السّديدَ النّافعَ من الفلسفة،''[69] فالمطلوب هو تأسيس الحكمة على الدّين.[70]

وبالفعل، فإنّ النُّورسي قسّم أوروبا إلى قسمين، وأكّد باستمرار أنّه لا يهاجم أوروبا التّي نفعت الإنسانيّةَ بعلومها وصناعاتها، وإنّما يهاجم أوروبا الثّانيةَ بقوله في أسلوب حادّ: ''اعلمي جيّداً أنّك قد أخذتِ بيمينكِ الفلسفةَ المضلّةَ السّقيمةَ، وبشمالك المدنيّةَ المضرّةَ السّفيهةَ، ثمّ تدّعين أنّ سعادةَ الإنسان بهما. أَلاَ شُلَّتْ يداكِ، وبِئْسَتِ الهديّة هديتكِ، ولتكن وبالاً عليكِ، وستكون.''[71]

٢. ٢. ٢. الرّمزيّةُ العقديّةُ للكينونة الإنسانيّة أو ماهية ''الأنا'':

أولى النُّورسي أهمّيةً خاصّة للتّكوين الإنسانيّ في أبعاده المادّيّة والرّوحيّة من بين العناصر العديدة المندرجة ضمن قضيّة الإنسان، فخصّص لذلك حجماً كبيراً من تأمّلاته وتقريراته. وإذا كان تناولُ هذا العنصر من قِبل الباحثين في موضوع الإنسان أمراً مألوفاً، فإنّ النُّورسي بحث فيه بمنهج يحمل من ملامح الجدّة والابتكار ما لا نجده عند غيره إلاّ عَرَضًا.

تناول النُّورسي بالبيان عناصرَ متعدّدةً من تكوين الذّات الإنسانيّة في بُعديها المادّيّ والرّوحيّ، فإذا هو في كلّ مناسبةٍ يتعرّض فيها بالشّرح لحقيقة الإنسان لا يفتأ يتطرّق إلى جانب من جوانب تكوينه في أعضائه الظّاهرة والباطنة، وفي غرائزه وطبائعه، وفي استعداداته وقدراته، وفي مظاهر ضعفه وقوّته، وفي آماله وأشواقه الرّوحيّة؛ إنّه الإنسان المكوّن من لحمٍ ودمٍ وأعصابٍ، وروحٍ وعقلٍ ونفسٍ، ذو النّوازع والرّغائب والضّرورات، الذّي يؤثّر ويتأثّر، يحبّ ويكره، يرجو ويخاف، يطمع ويبأس، يؤمن ويكفر، يعمّر الأرض أو يفسد فيها ويقتل الحرثَ والنّسلَ، يحيى ويموت. يتوقّف النُّورسي عند جميع هذه الجوانب فيشرح آيات الخلق فيها ويربط باستمرار بين الآيات التّكوينيّةِ في طبيعة الإنسان الجسميّة والرّوحيّة وبين الدّلالات العقديّة لتلك الآيات، بحيث تُعرض كلُّ آيةٍ من تلك الآيات في معرض البيان لبعدها العقديّ الذّي هو

مرتبط بها ارتباطاً مكيناً في أصل الغاية من خلقها، كما هو مرتبط بها في الوظيفة الحياتيّة التّي أُنيطت بالإنسان، فيغدو التّكوينُ الإنسانيُ بعناصره المختلفة في منهج النُّورسي رَمْزاً قيمتُه ليست في ذاته بقدر ما هي فيما يرمز إليه من أبعادٍ عقديّةٍ.

إنّ الإنسان يشترك مع المخلوقات الأخرى وجوديًّا أو أنطولوجيًّا، وذلك بانتماء الجميع إلى طرف مشترك من طرفَي الوجود وهو الطّرف النّاقص المحتاج، وذلك من حيث المأتى وهو خلق الله جل جلاله الذّي يسري على الكونِ كلِّه[72] والمصيرُ وهو الرّجوعُ إلى الله تعالى،[73] غير أنّ هذا الاشتراك لا يدلّ على تساوٍ قيميٍّ بين الإنسان والكائنات الأخرى؛ فهو مستعلٍ عليها تكوينيًّا[74] ومعرفيًّا،[75] وهو يحمل هذه القيمة لسر التّوحيد الكائن فيه، يفقدها بعدمه، وهذا ما حرص النُّورسي على بيانه في كثير من المواضع في رسائله، مثل قوله: ''نعم، إنّ الإنسان بسرّ التّوحيد، صاحبُ كمالٍ عظيمٍ بين جميع المخلوقات، وهو أثمنُ ثمرات الكون، وألطفُ المخلوقات وأكملُها، وأسعدُ ذوي الحياة ومُخَاطَبُ ربِّ العالمين وأهلٌ ليكون خليلَه ومحبوبَه. حتّى إنّ جميعَ المزايا الإنسانيّة وجميعَ مقاصد الإنسان العليا مرتبطة بالتّوحيد وتتحقّق بسرِّ التّوحيد، فلولا التّوحيدُ لأصبح الإنسانُ أشقى المخلوقات وأدنى الموجودات وأضعفَ الحيوانات وأشدَّ ذوي المشاعر حزناً وأكثرهم عذابًا وألمًا.''[76]

الصورة النورسية للإنسان كما استفادها الأستاذ من المصادر النبوية تُبرز هذا المخلوقَ في حالة عجزٍ وفقرٍ؛ فهو عاجز بالنّظر إلى ما يكتنفه من أعداء لا حدّ لهم، وما يعترضه من أنواع البلايا والمصائب، وهو فقيرٌ لعجزه عن تحقيق حاجاته التّي لا حدود لها، وهو بهذا الاعتبار يتحرّى دائما مرتكَزًا يرتكز عليه ومستنَدًا يستند إليه، كما أنّه مضطرٌّ إلى تحرّي نقطةِ استمدادٍ يستمدُّ منها حاجاتِه التّي لا تتناهى ويَسُدُّ بها فقرَه الذّي لا يتناهى ويُشْبِعُ آمالَه التّي لا نهاية لها. ويؤكّد النُّورسي هذه المعاني بقوله: ''أَمْعِنْ في الوجدان لترى كيف أنّه برهانٌ مُودَعٌ في نفس كلِّ إنسانٍ يثبت التّوحيدَ، ولتشاهد أيضا أنّ قلب الإنسان مثلما ينشر الحياةَ إلى أرجاء الجسد، فالعقدةُ الحياتيّةُ فيه –وهي معرفة الله– تَنشر الحياةَ إلى آمال الإنسان وميوله المتشعّبة في مواهبه واستعداداته غيرِ المحدودة كلّ بما يلائمه، فتقطر فيها اللّذّة والنّشوة وتزيدها قيمةً وأهمّيةً، بل تبسطها وتصقلها، فهذه هي نقطة الاستمداد. والمعرفةُ الإلهيّةُ نفسُها هي نقطةُ استنادٍ للإنسان أمام تقلّبات الحياة ودوّاماتها وأمام تزاحم المصائب والنّكبات وتواليها عليه.''[77] وهكذا يتمّ إثباتُ وجود الإله ووحدانيّته.

ولكنّ ما يُثبت وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيّته لا ينحصر في النّظر إلى الوجدان الإنسانيّ وما ينطوي عليه من مكوّناتٍ باطنيّةٍ، وإنّما يُثبت الوجودَ والوحدانيّةَ أيضًا ما يظهر من تكوين الإنسان من النّاحية المادّيّة؛ فيخاطب النُّورسي الإنسانَ الذّي خلق في أحسن تقويم لإدراك هذه الحقيقة بقوله: ''تأمّلْ فيما يَحويه جسمُك وأعضاؤُك أيّها الإنسانُ من حدود متعرّجةٍ والتواءاتٍ دقيقةٍ، وتأمّلْ في فوائدِها ونتائجِ خدماتها، وشَاهِدْ كمالَ القدرةِ في كمال الحكمة.''[78]

والواقع، أنّ النُّورسي ينطلق من التّركيبة الإنسانيّة المادّيّةِ والرّوحيّةِ للوصول إلى نتائجَ عقديّةٍ، ذلك أنّ التّركيب الإنسانيَّ الذّي أُودع فيه من عظيمِ القدرات ووفيرِ الطّاقات ولطيفِ الأسرار ودقيقِ الآلات، يُنْبِئُ بأنّ هذه المكوّناتِ جميعَها أُعِدَّتْ لغاياتٍ أسمى وأُنِيطَتْ بعهدة الإنسان مهمّةٌ جسيمةٌ هي مهمّة الخلافة، وحيث كانت الخلافةُ هي المهمّةَ التّي تقوم على العبادة، فهذه أيضًا غايةٌ عليا هُيّئَ الإنسانُ في تركيبه لإنجازها، فإنّ ''فطرة الإنسان وما أَودع الله فيه من أجهزةٍ معنويّةٍ تدلاّن على أنّه مخلوقٌ للعبادة،''[79] وإنّ فطرة الإنسان هي التّكمّلُ بالتّعلّم والعبوديّةُ لله سبحانه وتعالى ''لذا تكون وظيفتُه الفطريّةُ الأساسُ الدّعاءَ بعد الإيمان، وهو أساسُ العبادة ومخُّها.''[80]

والإنسان مرآةٌ لتجلّيات الأسماء الحسنى، فما وُهب من نماذجَ من الصّفات الجزئيّة من العلم، والقدرة، والبصر، والسّمع، والتّملّك، والحاكميّة، وأمثالِها من الصّفات الجزئيّة، هو بمثابة مرآةٍ تعكس الصّفاتِ المطلقةَ لله سبحانه وتعالى، وتركيبُ الإنسان في بنيته الظّاهرة والخفيّة تأكيدٌ على أنّ تلك البنيةَ الدّقيقةَ الصّنعةِ إنّما هي المَجْلَى الأعظمُ للصّنعة الإلهيّة، والمعرضُ الأكبرُ لصفاته سبحانه وتعالى وأسمائه الحسنى، فالله سبحانه وتعالى أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقه، ولكنّ أعظمَ درجات حسنه إنّما هي تلك التّي ظهرت في تركيبِ الإنسان، حتّى غَدَا هذا التّركيبُ أعظمَ درجات التّجلّي لصفاته تعالى.[81]

إنّ التّأمّل الدّقيقَ في التّكوين الإنسانيّ في بعديه المادّيّ والرّوحيّ يفضي إلى يقين بأنَّ هذا التّكوينَ ليس للحياة الدّنيا فقط، بل يمتدُّ إلى آماد أخرى من الحياة، وقد اهتمّ النُّورسي ببيان هذه الحقيقةِ جاعلا البعثَ في الحياة الأخرى بُعْدًا من أبعاد التّكوين الإنسانيّ، وذلك من جهتين:

– **الجهة الأولى** من جهات دلالة التّكوين الإنسانيّ على الحياة الأخرى ما رُكّب

عليه الإنسانُ من أجهزة مادّيّةٍ وروحيّةٍ، ومن استعداداتٍ وقُدراتٍ؛ فهذه تبلغ في التّركيب الإنسانيّ من دقّة الصّنعة وإتقانها، ومن القّدرة على العطاء والكفاءة في الأداء، ما تتجاوز به آمادًا بعيدةً حاجاتِ الإنسان ومطالبَه في حياته القصيرة "فإنّ ما في هويّة قلبِ الإنسان من لطائفَ، وما في دفتر عقله من حواسٍّ، وما في فطرته من أجهزةٍ وعتادٍ متوجّهةٌ جميعًا ومعًا إلى السّعادة الأبديّةِ، بل ما مُنحت له إلاّ لأجل تلك السّعادةِ الأبديّةِ."[82]

إنّ هذه المقدّراتِ الواسعةَ دالّةٌ دلالةَ قطعٍ على وجود حياة أخرى، وعلى أنّ الإنسانَ بتكوينه المادّيّ والرّوحيّ مُعَدٌّ لتلك الحياة، فيَصرِف جزءًا من طاقاته الهائلة في تحقيق المطالب الدّنيويّةِ المحدودة، ويصرف ما زاد على ذلك لتلبية مطالبَ أخرى تقتضيها الحياةُ الباقيةُ. يقول النُّورسي في هذا السّياق: "كُلُّ ذي شعورٍ يعلم أنّ الله سبحانه قد خلق هذا الإنسانَ في أحسن تقويم، وربّاه أحسنَ تربية، وزوّده من الأجهزة والأعضاء –كالعقل والقلب– ما يتطلّع به إلى السّعادة الأبديّةِ ويسوقه نحوها، ويدرك كذلك مدى الظّلم والقسوة إذا ما انتهى مصيرُ هذا الإنسانِ المكرّمِ إلى العدم الأبديّ ! ويفهم كذلك مدى البُعد عن الحكمة في عدمِ البعثِ الذّي يجعل جميعَ الأجهزة والقُوى الفطريّة –التّي لها آلافُ المصالحِ والفوائدِ– دون جدوى ودون قيمةٍ! في الوقت الذّي أَوْدَعَ سبحانه مئاتٍ من الحِكَم والفوائد في دماغه فحسبُ!"[83]

– **الجهة الثانية** من جهات دلالة التّكوين الإنسانيّ على الحياة الأخرى تتعلّق بما أُضمر في النّفس البشريّة من الآمال والأشواق والمطالب الرّوحيّةِ؛ فالإنسان ينطوي على شوقٍ للبقاء، ولا يلبّي منه العمرُ إلاّ شيئًا قليلاً، وينطوي على تطلّعٍ للسّعادة، ولا يتحقّق منها في هذه الحياة الدّنيا إلاّ الشّيءُ القليلُ وقد لا يتحقّق منها شيءٌ. فهذه المقدّراتُ الواسعةُ من آمال الإنسان وأشواقه الّتي لا تتحقّق في هذه الحياة الدّنيا تحمل في ذاتها دلالةً على حياة الخلود. ويبرز النُّورسي هذه المعانيَ في مواضعَ كثيرةٍ في رسائله، ومن ذلك إشارته إلى أنّ "حقيقةَ الإنسان وكمالاتِه وحاجاتِه الفطريّةَ وآمالَه الأبديّةَ وحقائقَه واستعداداتِه تتطلّب النّتائجَ والفوائدَ المذكورةَ للإيمان بالآخرة، وتدلّ قطعًا على الآخرة وعلى الجنّة وعلى لذائذَ مادّيّةٍ محسوسةٍ باقيةٍ، وتشهد على تحقُّقها."[84]

خاتمة:

يتجلى من خلال هذا البحث أن النورسي كان متفاعلا مع الكون بكلِّ أبعاده، متأثّرًا شديدَ التّأثّر بمظاهره وأحيائه، يرى المنظرَ فيترك في فكره ونفسه أعظمَ الأثرِ، فجعل الكونَ والطّبيعةَ شُهُبَ أدلّةٍ للملحدين وأنوارَ هدايةٍ للزّاغبين. إنّه كان يرى في سياحته الكونيّةِ وتَقَلُّبِهِ في أحضانِ الطّبيعةِ، في ليلها ونهارها، وفي ظاهرها وباطنها، في كبيرها وصغيرها، أنَّ هذا الكونَ شجرةٌ متناسقةٌ تؤدّي وظيفتها بدقّةٍ وإتقانٍ، وهو قصرٌ منيفٌ لضيافة ذوي الأرواح وخاصّةً الإنسانَ، ويدلّ على الكبيرِ المتعالي.

وخصّص النُّورسي –في سياق حديثه عن الكون– مساحةً شاسعةً للبحث الإنسيّ فقدّم في هذا الباب مادّةً جديرةً بالاعتبار، وهو في تناوله لهذا المحورِ تجاوز الأطروحاتِ التّقليديّةَ للنّفاذ إلى الدّلالات العميقة للتّكوين الإنسانيّ في بُعديه المادّيّ والمعنويّ، فكان –بصنيعه ذاك– مناقشًا بارعًا للفكر المادّيّ ٱلمَحْضِ الذّي دَرس الإنسانَ بمعزلٍ عن دلالتِه العقديّةِ.

* * *

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، رواية حفص عن نافع.
- البيهقي، أحمد بن الحسين، السّنن الكبرى، تحقيق محمّد عبد الباقر عطا، مكتبة دار الباز، مكّة المكرّمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- الجرجاني، عليّ بن محمّد، التّعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ .
- الحكيم التّرمذي، محمّد بن عليّ، نوادر الأصول في أحاديث الرّسول، تحقيق عبد الرّحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- أ.د. سليمان خيري بولاي، نظرة بديع الزّمان إلى الفلسفة، المؤتمر العالمي الثّالث لبديع الزّمان سعيد النُّورسي، المنعقد بإستانبول بتاريخ ٢٤ – ٢٦ أيلول ١٩٩٥.
- السّيوطي، عبد الرّحمن، الجامع الصّغير، تحقيق محمّد عبد الرّؤوف المناوي، دار طائر العلم، جدّة، د.ت.
- د. الصّالحي، إحسان قاسم، الرّجلُ والإعصار: سيرة ذاتيّة مختصرة لبديع الزّمان سعيد النّورسي، مطبعة النّجاح، الدّار البيضاء، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- صليبا، جميل، المعجم الفلسفيّ، د.ت.
- القضاعي، محمّد بن سلامة، مسند الشّهاب، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السّلفي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- كاريل، ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، د.ت.
- المناوي، محمّد عبد الرّؤوف، التّعاريف، تحقيق د. محمّد رضوان الدّاية، دار الفكر المعاصر– دار الفكر، بيروت – دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.
- د. النّجّار، عبد المجيد، البعد العقديُّ لبنية الإنسان في فكر النُّورسي، مؤتمر بديع الزّمان النُّورسي المنعقد بالأردن بتاريخ ١٩٩٧/٠٦/١٢.
- النّورسي، كلّيات رسائل النّور، ترجمة أ. إحسان قاسم الصّالحي، في قرص مضغوط (CD ROM) وهي تضمّ المؤلّفات التّالية: الكلمات؛ المكتوبات؛ اللّمعات؛ الشّعاعات؛ إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز؛ المثنوي العربي النّوري؛ الملاحق: ملحق بارلا، وملحق قسطموني، وملحق أميرداغ؛ صيقل الإسلام: محاكمات عقليّة، وقزل إيجاز، وتعليقات، والسّانحات، والمناظرات، والمحكمة العسكريّة العرفيّة، والخطبة الشّامية، والخطوات السّتّ؛ سيرة ذاتيّة.

* * *

الهوامش:

[1] د. بوكاري كندو، أستاذ بالجامعة الإسلاميّة بالنّيجر.

[2] النُّورسي، الكلمات، الكلمة ١٠، ص٤٧.

[3] البيهقي، أحمد بن الحسين، السّنن الكبرى، تح. محمّد عبد الباقر عطا، مكتبة دار الباز، مكّة المكرّمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ١٩١/١٠؛ محمّد بن سلامة القضاعي، مسند الشّهاب، تح. حمدي بن عبد المجيد السّلفي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ١٩٢/٢، ح. رقم١١٦٤؛ الحكيم التّرمذي، محمّد بن علي، نوادر الأصول في أحاديث الرّسول، تح. عبد الرّحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ٤٣/٤؛ السّيوطي، عبد الرّحمن، الجامع الصّغير، تح. محمّد عبد الرّؤوف المناوي، دار طائر العلم، جدّة، ص ٢٠٦.

[4] هو بديع الزّمان سعيد النُّورسي، ولد سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م بقرية "نورس" التّابعة لناحية "إسباريت" المرتبطة بقضاء "خيزان" من أعمال ولاية "بتليس" بتركيا، من أسرة اشتهرت بالعلم والتّقوى. عُرف بحدّة الذّكاء وكان على الطّريقة النّقشبنديّة رغم تعاطفه الشّديد مع الطّريقة القادريّة، وكان له حظٌّ وفيرٌ من علوم الدّين والعلوم الحديثة. ترك عددًا كبيرًا من الرّسائل جمعت تحت اسم " كلّيات رسائل النّور" نقلها إلى العربيّة إحسان قاسم الصّالحي. وقد كُتب جلُّها في منفاه بـ "بارلا"، وتضمّ تسعةَ أجزاء وهي: الكلمات (٣٣ رسالة)، والمكتوبات (٣٣ رسالة)، واللّمعات (٣٠ رسالة)، والشّعاعات (١٥ رسالة)، وإشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز (أُلّف بالعربيّة)، والمثنوي العربيّ النّوريّ (١٢ رسالة، أُلّف بالعربيّة)، والملاحق في فقه دعوة النّور (ملحق بارلا، وملحق قسطموني، وملحق أميرداغ)، وصيقل الإسلام (آثار سعيد القديم، وتضمّ ٨ رسائل)، وسيرة ذاتيّة. وقد ظلّت رسائلُ النّورِ تُنْشَرُ بطريقة الاستنساخ اليدويّ مدّة عشرين سنة، ولم يتيسّر لها أن تجد طريقها إلى المطابع إلاّ بعد سنة ١٩٥٦م باستثناء رسالة الحشر التّي طُبعت خُفْيَةً في استانبول بواسطة أحد طلاّب النّور.

توفّي النُّورسي في ٢٥ رمضان ١٣٧٩هـ الموافق٢٣ /٣/١٩٦٠م، ولا يُعرف مكانُ قبره. راجع، النّورسي، سيرة ذاتيّة؛ إحسان قاسم الصّالحي، الرّجلُ والإعصار: سيرة ذاتيّة مختصرة لبديع الزّمان سعيد النّورسي، مطبعة النّجاح، الدّار البيضاء، ط ١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

[5] وردت هذه الرّسالةُ في الشّعاع٧ ضمن الشّعاعات.

[6] النُّورسي، الشّعاعات، الشّعاع ٧، ص ١٣٥.

[7] للنُّورسي تعريفٌ دقيقٌ للقرآن الكريم نقتبس منه ما يلي: "هو التّرجمةُ الأزليّة لكتاب الكائنات الكبير، والتّرجمانُ الأبديُّ لألسنتها المتنوّعة التّالية للآيات التّكوينيّة، ومفسّرُ كتاب عالَم الغيب والشّهادة ... كما أنّه كتابُ شريعةٍ، كذلك هو كتابُ حكمةٍ، وكما أنّه كتابُ دعاءٍ وعبوديّةٍ، كذلك هو كتابُ أمرٍ ودعوةٍ، وكما أنّه كتابُ ذكرٍ كذلك هو كتابُ فكرٍ... فهذا الكتابُ السّماويُّ أشبهُ ما يكون بمكتبةٍ مقدّسةٍ مشحونةٍ بالكتب" النُّورسي، الكلمات، الكلمة ٢٥، ص ٤٢٢؛ وانظر، الكلمة ١٩، ص ٢٦٤.

[8] النُّورسي، المثنوي العربي النّوري، ص ٤٢١؛ وانظر، الكلمات، الكلمة ١٩، ص ٢٥٤ ؛ النُّورسي، الملاحق/أميرداغ ١، ص ٦٤.

[9] المثنوي ، ص ٣٢.

[10] النُّورسي، صيقل الإسلام/الخطبة الشّامية، ص ٤٩٥ ؛ ويقول: "أقسم بالقرآن العظيم ذي الأسلوب الحكيم ، أنّه ما ألقى النّصارى وأمثالَهم في وديان الضّلالة نافخًا فيهم الهوى إلاّ عزلُ العقل وطردُ البرهان وتقليدُ

الرّهبان ". صيقل الإسلام/محاكمات، ص ٥٢؛ ويضيف في مكان آخر: "فالكلمات والأنوار المستقاة من القرآن الكريم (أي رسائل النّور) إذن ليست مسائلَ علميّةً عقليّةً وحدها بل أيضا مسائل قلبيّة، وروحيّة، وأحوال إيمانيّة، فهي بمثابة علومٍ إلهيّةٍ نفيسةٍ ومعارفَ ربّانيّةٍ ساميةٍ" النُّورسي، المكتوبات، المكتوب، ٢٨ ص ٤٥٩.

[11] المكتوبات، المكتوب ٢٩، ص ٥٧٥.

[12] المصدر نفسه، ص ٥٧٥.

[13] انظر، المثنوي ، ص ٣١٠، ٣٦٣، ٣٦٤؛ الكلمات، الكلمة ٢٣، ص ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٥.

[14] المكتوبات، المكتوب ٢٩، ص ٥٩٧؛ وانظر، المكتوب ٢٦، ص ٤٢٥ ؛ الكلمات، الكلمة ٢٦، ص ٥٦١؛ الكلمة ٢٩، ص ٥٧٩.

[15] الكلمات، الكلمة ١٣، ص ١٦٠؛ وراجع عن أهمّية العقل عند النُّورسي، صيقل الإسلام/محاكمات، ٢٩، ٤٦، ٥٢، فمن أقواله في هذا الشّأن: "إذا تعارض العقل والنّقل، يعدّ العقل أصلاً ويؤوّل النّقل، ولكن ينبغي لذلك العقل أن يكون عقلاً حقًّا" ص ٢٩.

[16] راجع، الكلمات، الكلمة ٢٢، ٣٣٧؛ الكلمة ٢٩، ص ٦٠٦.

[17] المصدر نفسه، الكلمة ١٨، ص ٢٥٢؛ وانظر، المثنوي، ص ٣١٠.

[18] يعرّفهم بأنّهم "الذّين انحدرت عقولُهم إلى عيونهم فلا يرون إلاّ المادّة." الكلمة ٣٠، ص ٦٥٥.

[19] انظر، المثنوي، ص ٤٣١.

[20] الشّعاعات، الشّعاع ٧، ص ١٤١.

[21] راجع، الكلمات، الكلمة ٢٢، ص ٣١٠ – ٣٢٤.

[22] يعتبر النُّورسي أنّ مسالك المتكلّمين لا تورث القناعة والاطمئنان مثل مسلك القرآن الكريم، وذلك لأنّهم "يحفرون عيوناً في سفوح جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء إلى أقصى العالم بوساطة أنابيب، أي بسلسلة الأسباب، ثم يقطعون تلك السّلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة الإلهيّة التّي هي كالماء الباعث على الحياة!! أمّا الآياتُ الكريمةُ فكلّ واحدة منها كعصا موسى تستطيع أن تفجّر الماء أينما ضربت، وتفتح من كلّ شيءٍ نافذةً تدلّ على الصّانع" الكلمات، الكلمة ٢٥، ص٥١٤؛ وانظر، المكتوبات، المكتوب ٢٦، ص ٤٢٤، ٤٢٥.

[23] الدّور: هو توقّف الشّيء على ما يتوقّف عليه، ويسمّى الدّور المصرّح كما يتوقّف (أ) على (ب) وبالعكس، أو بمراتب ويسمّى الدّور المضمر كما يتوقّف (أ) على (ب) و(ب) على (ج) و(ج) على (أ). الجرجاني، عليّ بن محمّد، التّعريفات، تح. إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص١٤٠؛ أو: تعريف شيء أو البرهنة عليه بشيء آخر لا يمكن تعريفه أو البرهنة عليه إلاّ بالأوّل. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، كلمة دور.

[24] التّسلسل: هو ترتيب لا متناهي. الجرجاني، المصدر السّابق، ص ٨٠؛ المناوي، محمّد عبد الرّؤوف، التّعاريف، تح. د. محمّد رضوان الدّاية، دار الفكر المعاصر دار الفكر، بيروت دمشق، ط١، ١٤١٠هـ، ص١٧٥.

[25] انظر، الكلمات، الكلمة ٣٣، ص ٨٢٥.

[26] الجرجاني، المصدر السّابق، ص ٥٤.

[27] راجع، الكلمات، الكلمة ٣٣، ص ٨٢٥، ٨٢٨.

[28] الشّعاعات، الشّعاع ٧، ص ١٨٥؛ وانظر، النُّورسي، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص ١٥٤؛ الكلمات، الكلمة ٣٠، ص ٦٤٤.

[29] راجع على سبيل المثال، الكلمات، الكلمة ١٠، ص ٥٦، ٨٥، ٨٧.

[30] وردت كلمتا "سماء" و"سماوات" في ٣١٠ موضعا في القرآن الكريم.

[31] انظر، الشّعاعات، الشّعاع ٧، ص ١٤٣؛ الكلمات، الكلمة ٣٣، ص ٨٠٧.

[32] وردت هذه الكلمةُ تسع مرّات في القرآن، منها قوله ﷻ: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾. الرّعد: ١٢

[33] وردت كلمتا "ريح" و"رياح" كظاهرة جوّيّة في سبعة وعشرين موضعا في القرآن، منها قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ الحاقة: ٦.

[34] الكلمات، الكلمة ١٣، ص ١٨١، ١٨٢، ١٨٣؛ النُّورسي، ملحق أميرداغ ٢، ص٤٠٥.

[35] وردت هذه الكلمةُ سبعَ مرّات في القرآن الكريم، منها قوله ﷻ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾. الشّعراء: ١٧٣، النمل: ٥٨

[36] وردت هذه اللّفظةُ في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم: لقمان (٣١): ٣٤، الشّورى (٤٢): ٢٨، الحديد (٥٧): ٢٠.

[37] وردت هذه الكلمةُ بمعنى المطر في موضعين في القرآن: الرّوم (٣٠): ٤٦، الشّورى (٤٢): ٢٨.

[38] الصّيغةُ العلميّةُ للماء هي (H_2O).

[39] وردت هذه الكلمةُ في ستّة مواضع في القرآن الكريم، مثل قوله ﷻ: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾. النّور(٢٤): ٤٣

[40] وردت هذه الكلمة مرّتين في القرآن الكريم وهما في قوله ﷻ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ البقرة: ١٩، وقوله ﷻ: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾. الرّعد: ١٣

[41] انظر، الشّعاعات، الشّعاع ٧، ص ١٤٧.

[42] راجع، المصدر نفسه، الشّعاع ٧، ص ١٤٩.

[43] المصدر نفسه، الشّعاع ٧، ص ١٤٨، وانظر، الكلمات، الكلمة ١٠، ص ٥٦، ٨٥، ٨٧.

[44] راجع، الشّعاعات، الشّعاع ٧، ص ١٥١.

[45] وردت كلمتا "جبل" و"جبال" في ٤٠ موضعا في القرآن الكريم.

[46] بيّن القرآن هذا المعنى في آياتٍ كثيرةٍ منها: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، سورة النبأ: ٧ و﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾، النازعات: ٣٢ و﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾. الحجر: ١٩

[47] انظر، الشّعاعات، الشّعاع ٧، ص ١٥٢.

[48] انظر، المصدر نفسه، الشّعاع ٧، ص ١٥٣؛ الكلمات، الكلمة ٣٣، ص ٨٢٣.

[49] راجع، المصدر نفسه، الشّعاع ٧، ص ١٥٥.

[50] المصدر نفسه، الشّعاع ٧، ص ١٨٦.

[51] البيت لأبي العتاهية في ديوانه وينسب إلى الإمام عليٍّ كرّم الله وجهه، ونسبه ابنُ كثير في مقدّمة تفسيره إلى ابن المعتز.

[52] انظر، النُّورسي، صيقل الإسلام/محاكمات، ص ١٢٣ – ١٢٤.

[53] انظر، الكلمات، الكلمة ٣٣، ص ٨٢٥؛ صيقل الإسلام/محاكمات، ص ١٢٤– ١٢٧.

[54] وتعمل عبر مرحلتين:– تبدأ المرحلةُ الأولى بأخذ الضّوء من الشّمس وسحب الماء من جذور النّباتات

فيتحقّق بذلك إنتاجُ الهيدروجين والأكسيجين ومستودع الطّاقة (ATP)، ثمّ يزفر إلى الجوّ الأكسيجين الذّي يعتبر ضروريّا للأحياء.– وتبدأ المرحلةُ الثّانيةُ بقيام مستودع الطّاقة (ATP) مع الهيدروجين بسحب ثاني أوكسيد كربون –الذّي يعتبر سامًّا بالنّسبة إلى الإنسان– من الهواء، منتجًا بذلك السّكرَ الذّي يستخدم جزءٌ منه لإدامة حياة النّباتات، أمّا الباقي فيستخدم لإنتاج النّشأ والكربونات والبروتينات، وعليه يتمّ من جهةٍ تنقيةُ الهواء من السّموم، وإنتاج الغذاء اللاّزم للإنسان والحيوان من جهةٍ ثانيةٍ، فالتّركيبُ الضّوئيُّ يتمّ وفق عمليّاتٍ معقّدةٍ تجري بأقصر الطّرق وأقلّها كلفةً، ومن دون وقوع أضرار، منتجةً ألذَّ وأجملَ ألوان الأغذية. وهذه النّتائجُ والفوائدُ الجمّةُ لا يمكن حدوثها بأيّ حال إلاّ بمشيئةٍ وقصدٍ، فيلزم أن يوجد تخطيطٌ مسبقٌ لها.

أُعطيت جائزةُ نوبل للكيمياء لكالفن (Calvin) لمجرّد كشفه نظامَ التّفاعلات الكيماويّة التّي تحدث في المرحلة الثّانية من عمليّة التّركيب الضّوئيّ، فإذا كان الأمر كذلك فما هي جائزة من أسّس هذا المصنعَ الصّغيرَ؟

[55] المشروطيّة: هي إعلان النّظام البرلماني في الدّولة العثمانيّة، فأصبحت الوزارةُ بموجبه مسؤولةً أمام البرلمان وليس أمام السّلطان، كما أنّ صلاحيّة تشريع القوانين أصبحت من اختصاص البرلمان. وقد أعلن السّلطان عبد الحميد الثّاني المشروطيّة مرّتين، الأولى مع بداية حكمه وهي المشروطيّة الأولى في ١٩ مارس ١٨٧٧ ونظراً لاستغلال نوّاب الأقليّات غيرِ المسلمة لهذا المجلس وارتباطهم بجمعيّات سرّية مسلّحة وبدول أجنبيّة، حلّ السّلطان هذا المجلسَ دون إلغائه، وفي ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨ أعاد المشروطيّة والدّستور مرّة ثانية فيما سمّي "المشروطيّة الثّانية". ويصف النُّورسي هذا التّحوّلَ بأنّه "الانقلاب السّياسي" النُّورسي، الملاحق/ملحق قسطموني، ص ١٢٥، راجع، صيقل الإسلام/المناظرات، ص ٤٠٤؛ النُّورسي، سيرة ذاتيّة، ص ٨١.

[56] في مقدمّتهم بهاء توفيق الذّي ترجم كتاب " المادّة والقوّة " للكاتب الألماني بوخنر (Ludwig Büchner) الذّي كان هو ورفاقُه في القرن ١٩يتّخذون التّطوراتِ الحاصلةَ في مجال الفيزياء والبيولوجيا والباليونتولوجيا أساسا لآرائهم، فسعوا إلى الإقرار بأنّ كلَّ شيءٍ جاء من المادّة.

[57] توفي عام ١٩٩٤.

[58] أ.د. سليمان خيري بولاي، " نظرة بديع الزّمان إلى الفلسفة "، المؤتمر العالمي الثّالث لبديع الزّمان سعيد النُّورسي في إستانبول – تركيا بتاريخ، ٢٤ – ٢٦ أيلول ١٩٩٥، نقلا عن براين ماجي، فلسفةُ العلم ونظريّةُ السّياسة عند كارل بوبر، ص ١٤٨– ١٤٩ موقع: www.nursistudies.com

[59] انظر مثلا: الكلمات، الكلمة ٢٣، ص ٣٥٣؛ النُّورسي، اللّمعات، اللّمعة ٢٣، ص ٢٦٩–٢٧٧؛ صيقل الإسلام/محاكمات، ص ١٢٧–١٢٩.

[60] الكلمات، الكلمة ٢٥، ص ٤٩١.

[61] الكلمات، الكلمة ٢٣، ص ٣٥٣.

[62] راجع، المصدر نفسه، الكلمة ٢٦، ص ٥٦١؛ المكتوبات، المكتوب ٢٩، ص ٥٩٧.

[63] النُّورسي، ملحق أميرداغ ١، ص ٢٨٤–٢٨٥.

[64] راجع، د. النّجّار، عبد المجيد، البعد العقديُّ لبنية الإنسان في فكر النُّورسي، مؤتمر بديع الزّمان النُّورسي: فكره ودعوته، ١٩٩٧/٠٦/١٢، الأردن.

[65] كاريل، ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، ص ١٦.

[66] الكلمات، الكلمة ١٠، ص ٦٣٩.

[67] المصدر نفسه، الكلمة ٣٠، ص ٦٤٠–٦٤١.

[68] المصدر نفسه، الكلمة ٣٠، ص ٦٤١–٦٤٢.

[69] النُّورسي، ملحق أميرداغ ١، ص ٢٨٦–٢٨٧؛ وانظر، اللّمعات، اللّمعة ١٧، ص ١٧٦.

[70] يقول النُّورسي في هذا الشّأن: ''فمتى كانت هاتان السّلسلتان متّحدتين وممتزجتين، أي في أيّ وقت أو عصر استجارت الفلسفة بالدّين وانقادت إليه وأصبحت في طاعته، انتعشت الإنسانيّةُ بالسّعادة وعاشت حياة اجتماعيّة هنيئة، ومتى ما انفرجت الشّقّة بينهما وافترقتا، احتشد النّورُ والخيرُ كلُّه حول سلسلة النّبوّة والدّين، وتجمّعت الشّرور والضّلالات كلّها حول سلسلة الفلسفة.'' الكلمات، الكلمة ١٠، ص ٦٣٩.

[71] اللّمعات، اللّمعة ١٧، ص ١٧٧.

[72] قال الله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾. الفرقان: ٢

[73] قال الله ﷻ: ﴿وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. المائدة: ١٨

[74] وذلك لتكوينه الجامع بين المادّة والرّوح، والوضع القطبيّ الذّي تبوّأه آدمُ عليه السلام بالنّسبة إلى الموجودات الكونيّة في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، الحجر: ٢٨–٢٩ فأصبح الإنسانُ بهذا التّكوين المزدوج ''من حيث إنّه صغُر شكلُه وجُمع فيه قوّاه، هو كالمختصر من العالم'' الأصفهاني، الرّاغب، تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين، تح. عبد المجيد النّجّار، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٨٨، ص٧٦.

[75] يتمثّل ذلك فيما خُصَّ به الإنسانُ من استيعابٍ معرفيّ للكائنات، فأصبح هذا الكائنُ الصّغيرُ يحمل في ذاته ذلك العالمَ الكبيرَ.

[76] الشّعاعات، الشّعاع ٢، ص ١٨. يقول مصوّرًا حالتي الإنسان: ''إنّ الإنسانَ يسمو بنور الإيمان إلى أعلى علّيّين فيكتسب بذلك قيمةً تجعلُه لائقاً بالجنّة، بينما يتردّى بظلمةِ الكفر إلى أسفل سافلين فيكون في وضع يؤهّلُه لنار جهنّم، ذلك لأنّ الإيمانَ يربطُ الإنسانَ بصانعهِ الجليل، ويربطه بوثاق شديد ونسبةٍ إليه، فالإيمانُ إنّما هو انتسابٌ'' الكلمات، الكلمة ٢٣، ص ٣٤٨؛ وانظر، الكلمة ٣٠، ص ٦٣٥، الكلمة ٢٣، ص ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٧١.

[77] المثنوي، ص ٤٣١؛ وراجع، المصدر نفسه، ص ٣٦٣؛ الكلمات، الكلمة ٢٣، ص ٣٥٥؛ الكلمة ٣٣، ص ٨٢٩؛ الشّعاعات، الشّعاع ٢، ص ١٨.

[78] الكلمات، الكلمة ٣٣، ص ٧٩٤.

[79] المصدر نفسه، الكلمة ٥، ص ٢٠.

[80] المصدر نفسه، الكلمة ٢٣، ص ٣٥٥؛ وانظر، المثنوي، ص ٣٦٣.

[81] راجع، الكلمات، الكلمة ٣٣، ص ٨٢٩.

[82] المصدر نفسه، الكلمة ١٠، ص ٩٥.

[83] الشّعاعات، الشّعاع ١١، ص ٢٦٨–٢٦٩.

[84] المصدر نفسه، الشّعاع ١١، ص ٢٨٦؛ وانظر، المثنوي، ص ٢٣٢؛ الكلمات، الكلمة ١٠، ص ١٢٨؛ يقول في الشّعاعات: ''مادام جميعُ لذائذِ الدّنيا لا تشبعُ الخيالَ الذّي هو أحدُ خدّامِ الماهية الإنسانيّة، فلا بدّ أنّ حقيقةَ الماهية الإنسانيّة الجامعة الشّاملة جدًّا مرتبطةٌ فطرةً بالخُلُودِ والبقاء،'' الشّعاع ١١، ص ٢٧٨.

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

حوار مع الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم

استهلال من الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم:

السادة الأساتذة القائمين على مجلة "النور للدراسات" المحكمة، أحييكم بتحية الإسلام، داعيا لمولودكم الجديد، بالازدهار، في ظل النور الإسلامي الهادي، وفي كنف الفكر الإسلامي، الملتزم بالموضوعية العلمية، والقيم الإنسانية القائمة على الخلق الإسلامي القويم...

أما بعد، فأعرب في البداية عن سعادتي الكبرى، لاختياري ضيفا على صفحات مجلتكم الغراء، داعيا الله، العلي القدير، أن يمدكم بعونه، وتوفيقه، وأن يجعلني في مستوى الثقة التي وضعتموها في شخصي المتواضع، مقدما إليكم أجوبتي على الأسئلة:

س١: الأستاذ الدكتور عبد الرزاق، في البداية، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد..

تتشرف مجلة "نور للدراسات" المحكّمة أن تستضيفكم في عددها الأول، خاصة وقد عُرِف عن سيادتكم المساهمات المشهودة في البحث العلمي والثقافي عموما، سيدي في مستهل الحوار، نريد أن تعرفنا بمساركم العلمي والإداري والثقافي والاجتماعي عموما؟

ج: أقول، وبالله التوفيق، إن مساري العلمي عموما، يتمثل بكل تواضع في ما يلي:

حفظت القرآن الكريم في طفولتي الأولى وعمري لم يتجاوز سن الحادية عشرة، بمسقط رأسي بمدينة المغير ولاية الوادي بالجنوب الجزائري، وفي الوقت نفسه كنت منخرطا في المدرسة العربية الحرة التي كانت تشرف عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المناهضة للاستعمار، كما كنت أيضا، أزاول التعلم الإجباري في المدرسة الفرنسية الرسمية، وللقارئ الكريم أن يدرك صعوبة التوفيق بين ثلاثة أنواع من التكوين كل منها يتطلب جهدا خاصا، واستعدادا معينا.

بعد إتمام حفظي للقرآن الكريم، والدراسة الابتدائية بالعربية والفرنسية، أرسلني والدي إلى معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، حيث حصلت على الشهادة الأهلية،

ثم انتقلت إلى جامع الزيتونة بتونس لاستكمال دراستي، وحدث يومها أن اخترت أن أذهب إلى المشرق العربي ضمن البعثة العلمية التي تشرف عليها جمعية العلماء، غير أن اندلاع الثورة الجزائرية المباركة، حال دون ذلك، إذ رفض طلبنا للحصول على جواز السفر من الإدارة الفرنسية المستعمرة. فتوجهت إلى مدينة الجزائر العاصمة، حيث انخرطت في سلك الثورة ضمن العمل الثوري المدني، وقد نالني وأسرتي، من التشريد والاعتقال، والتعذيب، ما نحتسب أمره إلى الله، إلى جانب انخراطي في مدرسة كانت تعرف باسم ''المدرسة السنية'' تحت إشراف جمعية العلماء.

عند استقلال الجزائر، استأنفت دراستي في الجامعة، فأعددت شهادة الكفاءة العلمية للتدريس من جامعة الجزائر، ثم أعددت شهادة الليسانس في الترجمة من نفس C.A.P.E.S في الثانوي الجامعة، ثم شهادة الليسانس في الفلسفة بجامعة الجزائر دائما، فدبلوم الدراسات العليا في الفلسفة من نفس الجامعة، وكان موضوع الرسالة: عبد الرحمن الثعالبي [المفسر الجزائري] والتصوف.

بعد ذلك انتقلت إلى مصر، حيث أعددت شهادة الماجستير في الفلسفة من جامعة القاهرة في موضوع: ''مفهوم الزمن في فلسفة أبي الوليد بن رشد'' تحت إشراف كل من المغفور له بإذن الله الدكتور أبوالوفاء التفتزاني، والأستاذ الدكتور محمد عاطف العرافي، أطال الله عمره.

بعد مصر انتقلت إلى فرنسا، وإلى جامعة السوربون باريس، حيث أعددت شهادة دكتوراه الدولة في الفلسفة في موضوع: ''مفهوم الزمن في الفكر العربي المعاصر'' بإشراف الأستاذ الدكتور روجي أرنالديز، ألحقه الله بالصالحين من أهل ملته.

هذا عن المسار العلمي، أما المسار الإداري والثقافي والاجتماعي، فأوجزه فيما يلي:

تقلدت مسؤولية نائب عميد المعهد الإسلامي لمسجد باريس، برتبة سفير، ثم مديرا لمعهد الفلسفة بجامعة الجزائر، ثم مديرا للمعهد الوطني العالي لأصول الدين بالجزائر.

على الصعيد الثقافي، تدرجت في عدة مسؤوليات كالمجلس الإسلامي الأعلى الذي كنت أمينه العام، وجمعية الدفاع عن اللغة العربية، واتحاد الكتاب الجزائريين الذي كنت عضو مكتبه الإداري، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حيث كنت نائبا للرئيس، ورئيس تحرير جريدة ''البصائر'' الأسبوعية الناطقة باسم الجمعية.

هذا بالإضافة إلى مشاركتي الثقافية في الإذاعة والتلفزيون، ببرامج قارة مثل:

"الأقلام الجديدة"، و"منبر الهدى" و"الثقافة للجميع" وغيرها، مع الكتابة في الصحف اليومية والمجلات العلمية، فقد كنت مديرا لمجلة "الموافقات" المحكمة المتخصصة، التي كان يصدرها المعهد الوطني العالي لأصول الدين عندما كنت مديرا له، وتوقفت بعد استقالتي من المعهد.

على الصعيد الاجتماعي، أنا متزوج وأب لخمسة أبناء، وسادسة بالتبني، هم ثلاثة ذكور، وثلاث إناث، كلهم يحملون شهادات جامعية.

س٢: كانت دراساتكم الأكاديمية الأولى قد قُدِّمَت لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في الفلسفة من جامعة الجزائر، وكان موضوعها "عبد الرحمن الثعالبي والتصوف"، هل الجامعة والأمة في اللحظة الراهنة بحاجة إلى التصوف؟

ج: كان بحثا للحصول على دبلوم الدراسات العليا من جامعة الجزائر.

أما شهادة الماجستير –بجامعة القاهرة– فكان عنوانها: "مفهوم الزمن في فلسفة ابن الوليد بن رشد"

وتسألونني إن كانت الأمة لحظتها الراهنة في حاجة إلى التصوف.

إن التصوف الحقيقي كما أفهمه، هو تصفية القلب والعقل، والجوارح من كل أدران الفساد بجميع أنواعه، الأخلاقي والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، وبهذا المعنى يكون التصوف، رد فعل إيجابي ضد الإنغماس في الملذات، والنهم المالي، والخلقي، والسياسي، وبذلك يصبح التصوف الإسلامي في أسمى معانيه نوعا من تحصين الذات، ضد أنواع الإنسلاب الحضاري والذوبان السياسي.

أما التصوف السلبي الممارس اليوم، في واقع أمتنا وما يتصل به من شعوذة، وتضليل باسم الدين، فهو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ينبغي محاربتها، كما نحارب الفساد والظلم باسم حماية حقوق الإنسان الأساسية.

س٣: بعد دراستكم الطيّبة لنيل درجة الماجستير، رحلتم معرفيا في مساركم العلمي الثاني (الدكتوراه) من التصوف إلى الفلسفة ومن القاهرة إلى باريس (جامعة السربون)، فكتبتم بعدها لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة عن " مفهوم الزمن في الفكر العربي المعاصر."، هل ما زال الفكر الإنساني بحاجة إلى ابن رشد ، أم إلى قراءته قراءة أخرى؟

ج: تلاحظون بأن تنوع الاهتمام الفكري، وتعدد مصادر مناهجه بين التصوف والفلسفة والفكر المعاصر، وبين الجزائر، والقاهرة، وباريس، إن هذا التنوع الإنساني، والزماني، والمكاني، له دلالة كبرى، ينبغي وضعها ضمن البحث عن الحكمة، التي

هي ضالة المسلم أنّى وجدها التقطها.

أما عن حاجة الفكر الإنساني إلى ابن رشد، أو إلى قراءته قراءة أخرى، فأعتقد، من وجهة نظري أن ابن رشد كان ولا يزال الجامع المشترك الأعظم للثقافات، والحضارات والديانات. فإليه يعود الفضل في نقل الفكر اليوناني إلى الفكر اللاتيني، عبر الفكر الإسلامي، محدثا بذلك مريدين لفكره، لدى الفكر اللاتيني، كتوما الأكويني ومدرسته، وفي الفكر اليهودي كسيجر دوبرابان ومدرسته، فكان ابن رشد بذلك هو حلقة الوصل أو المعلم المسلم الأول، في تصحيح معنى الحضارة وحوارها بالعقل والدين.

أما عن الحاجة إلى قراءة ابن رشد قراءة جديدة، فاعتقد أن ذلك من متطلبات العصر، فقد اختلفت المقولات العقلية، والأدوات المعرفية، فنتجت عن ذلك الحاجة التجديدية لقراءة كل تراث.

س٤: كيف السبيل إلى جعل الاهتمام بابن رشد قيمة مضافة في مسار المعرفة الأصيلة؟ وفي ظل الرشديات الحديثة، ما معيار التمييز بين الرُشْدِيَة الذي يمثّل ابن رشد، والرُشْديَة المشتبهة به أو المُلَبِّسَة؟

ج: نعتقد أن جعل الاهتمام بابن رشد قيمة مضافة في مسار المعرفة الأصيلة، تبدأ بتخليص ابن رشد من القراءة الاختزالية التجزيئية التفكيكية، والتي تجعل منه فيلسوفا ناقلا لأرسطو، أوعقلانيا منكرا للدين، أو فيلسوفا مبتدعا في الملة، نابذا للسنة، في حين أن ابن رشد، مفكر جمع –ببراعة– بين الفقه، الذي كان ضليعا فيه، والطب الذي ذاعت شهرته به، والفيلسوف الذي تجاوز إبداعه الآفاق والحدود.

فالحاجة ماسة إلى وضع أبي الوليد ابن رشد في سياقه الكلي، الإسلامي، الإنساني، وفهمه فهما صحيحا، بالاعتماد على القراءة الموضوعية لنصوصه، بغية إبعاد الرشدية المزيفة، المشتبهة به أو الملبسة.

س٥: شاعت في بلاد الشرق محاولات الاستفادة من مبادئ سامية ظهرت وتطورت في بيئة الغرب، ولعلّ على رأسها قيم الحرية والتسامح والديمقراطية، هل يمكن أن نستورد هذه القيم بحمولتها المتداولة في البيئة الغربية؟

ج: هناك مسلمات لدى العقل البشري، مفادها أن لكل مجتمع خصوصياته ومميزاته، حتى بالنسبة للقيم والمبادئ السامية كالحرية والتسامح، والديمقراطية.

وغنى عن الذكر أن المجتمع المسلم، لا يعاني أية عقدة من هذه الناحية. فالإسلام كان سباقا إلى ترسيخ معاني القيم السامية كالحرية، والتسامح، والشورى في الحكم، والآيات الدالة على هذه القيم كثيرة، كحرية المعتقد، وحرية الإنسان، وأدب الاختلاف والتسامح والشورى بين الحاكم والمحكوم، الخ... ''لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين''، ''لَكمْ دِينُكمْ وَلِيَ دِين''، ''وَإِنَّا اَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى اَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِين''، ''وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى''، ''فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ''، ''وَأَمْرُهُمْ شُورٰى بَيْنَهُمْ...'' الخ.

ولذلك فإن القيم العقلية، والمعنوية لا يمكن استيرادها، كقطع الغيار، لأنها ذات خصوصيات إنسانية حضارية محلية، وبالتالي تصبح الدعوة إلى استيراد مفاهيم وقيم من الغرب، إلى البيئة الإسلامية، بمثابة وضع قبعة على رأس إنسان معمم، أو امرأة محجبة، وهو ما يمثل أضحوكة كبرى.

س٦: شاع بين المهتمين بالشأن الثقافي والحضاري، تداول كثير من المناهج والقيم الناشئة في الغرب بصفتها مناهج وقيم إنسانية كونية، لا يمكن لمن أراد أن يكون ابن عصره أن يستغني عنها، ما درجة موضوعية هذا الانطباع؟

ج: إن القيم الصحيحة، النابتة والثابتة، في بيئة ما، لا يمكن –كما أسلفنا– أن تنقل من بيئتها الأصلية إلى بيئة أخرى مغايرة، وإن حصل لها أن تنبت، فإنها لن تثبت، لاختلاف التربة، والبيئة، والمحيط البشري.

س٧: استوقفنا كتابكم ''مدارس الفكر العربي الإسلامي (تأملات في المنطلق والمصب)''. لماذا الاهتمام بالمنطلق والمصب، وأنتم بصدد الكتابة عن مدارس الفكر العربي الإسلامي؟

ج: إن أزمة الفكر العربي الإسلامي، كما تبدو لنا، هي أزمة مرجعية، وغائية، ذلك أن مدارس الفكر العربي الإسلامي تعاني عقدة الانتماء، والتقليد، والاتباعية. فإذا سلمنا بأن الفكر حق إنساني يشترك فيه الجميع، فإن تأصيل هذا الفكر، ورسم غايات له هي ما يطبع فكرنا العربي الإسلامي.

من هنا جاء الاهتمام بالمنطلق والمصب، ذلك أن النهر إذا حول عن مصبه، ولم يحدد منطلقه، فإن مياهه تصبح غير صالحة فيعم القحط والجفاف كل ما يحيط به.

س٨: يشكك بعض الباحثين في إمكان أن تمثّل النماذج المذكورة في كتبكم، مدارس، وقصارى ما تمثّله اتجاهات فردية، أو اجتهادات فردية؟ ما تعليقكم على هذا لانطباع؟

ج: حق للباحثين أن يشككوا في النماذج التي ذكرتها في كتابي، لأنها، كما حاولت أن أبينها، هي مدارس فكرية بالقوة لا بالفعل.

فتصنيف هذه المدارس، انطلاقا من الدين أومن العقل، هو اجتهاد فكري، اعتمدت فيه على نصوص المفكرين الخاضعين للدراسة وعلى أنماط سلوكهم، وسواء أكانت هذه النماذج تمثل مدارس بمواصفاتها المنهجية، أو أنها مجرد اتجاهات فردية، فالنتيجة واحدة، والحكم ينبغي أن يستنبط من الغايات المرسومة من المفكرين، ومن طريق تعاملهم مع الدين كمسلمين، ومع العقل كمفكرين.

وعلى أية حال، فأنا لم ألزم أحدا بتبني ما دعوت إليه، وإنما هي محاولة منهجية مني، لاستنباط منهج أكاديمي يساعد على فهم فكرنا الإسلامي، والتعامل بوضوح مع من يوصفون بفرسان هذا الفكر، وأعتقد أن لكل مجتهد نصيب.

س٩: يلاحظ في سياق الكتابة عن المدارس الفكرية، إهمال الشخصيات ذات الحضور المشهود في المجتمعات الإسلامية غير العربية، ما السر في المسألة؟

ج: لا ينبغي تناول القضية من منظور التمييز بين ما هو عربي وما هو إسلامي، وإنما ينبغي معالجة الموضوع طبقا للإشكالية المطروحة في الكتاب، فلقد حاولت أن أبحث القضية من زاوية العداء للدين، لصالح العقل، أو العكس، انطلاقا من واقع يعيشه الوطن العربي أكثر من غيره، ولذلك فقد أغفلت أيضا في الفكر العربي شخصيات عربية فاعلة في ساحة الفكر، لأنها لا تندرج ضمن المعايير والقوالب الفكرية التي وضعتها، للتحليل والدراسة على ضوئها. فلا غرابة –إذن– أن لا ينطبق هذا على الشخصيات الإسلامية ذات الحضور الفاعل في المجتمعات الإسلامية غير العربية، لأنها سلمت مما ابتلي به غيرها على الساحة العربية، على الأقل من وجهة نظرنا نحن.

س١٠: من الشخصيات العلمية ذات الحضور المميز في تاريخنا الفكري، شيخ الإسلام مصطفى صبري، ما تفسيركم لقلة المعلومات عنه في الجامعات والمراكز البحثية في العالمين العربي والإسلامي؟، وما درجة حضوره في الأوساط الأكاديمية الجزائرية؟

ج: يجب التسليم بوجود خلل في العلاقات العلمية التي تربط الجامعات العربية والإسلامية بعضها ببعض، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن ما يربط بين الجامعات العربية الإسلامية من جهة، والجامعات الأوروبية والغربية من جهة أخرى، أقوى مما يربط

ببعضها.

إن هذا الخلل المنهجي والفكري، قد أدى إلى ظهور مجموعة من النقائص أبرزها: الجهل بالواقع الفكري الإسلامي، وسوء التوجيه الجامعي للباحثين، وقلة انفتاح الجامعات الإسلامية والعربية على بعضها، وبانعدام التعاون العلمي كالإشراف المشترك، والمشاركة في المناقشات، وغياب دليل أكاديمي للرسائل والبحوث، والإعلام، وكل هذا أدى إلى غياب شخصيات بارزة، كشيخ الإسلام مصطفى صبري عن الجامعات والمراكز البحثية في العالمين العربي والإسلامي.

على أنه يجب التنبيه، إلى أن بعض الباحثين الأكاديميين الجزائريين قد كان لهم الفضل في لفت الانتباه في جامعتنا الجزائرية إلى شيخ الإسلام مصطفى صبري، وفي مقدمة هؤلاء الدكتور الشاب ابننا عمار جيدل وفقه الله.

ولئن كان الحضور لا يزال محتشما، فإنه موجود، ونعتقد أن أول الغيث قطر ثم ينهمر.

س١١: الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي شخصية علمية رصينة ظهر اهتمام كبير بها في الشرق والغرب، وهو بحاجة إلى اكتشاف أو إعادة اكتشاف، ما القيمة المنهجية والمعرفية التي يمكن أن تسهم بها هذه الشخصية في مسار الأمة من الناحية المعرفية والرسالية والحضارية؟

ج: يعتبر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، من الشخصيات العلمية المتميزة التي اكتشفتُها منذ عقدين من الزمن، فلمست فيها العمق الفكري المفقود في عالمنا الثقافي، والتحليل المنهجي المنشود في دنيا أمتنا، والوعي الحضاري المعهود، لدى علمائنا، فعجبت لعدم الاهتمام الكبير بها، إلا مؤخرا.

والحقيقة أن جامعاتنا العربية والإسلامية مدعوة –اليوم بالذات– إلى توجيه طلابها وباحثيها إلى إعادة قراءة فكر بديع الزمان سعيد النورسي، وإخضاع أحكامه للدراسة والاستنباط، لتجلية معالم التغيير في أمتنا، كما شخّص مقوماتها.

فأمتنا الإسلامية في أشد الحاجة اليوم إلى جهود مثل هذا العالم العالمي، الذي تضاف جهوده إلى جهود علماء أعلام، من أمثال عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، وسيد قطب، ومحمد إقبال، وعلي شريعتي، وغيرهم ممن وعوا أسباب التخلف، واقترحوا طريقة الحلول، ومنهجية التغيير، في وقت نتوق فيه إلى

استعادة مكانتنا بين الأمم.

س١٢: يلاحظ المتتبّع لحال البحث العلمي أن التواصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين، قليل نوعا ما، ما الآليات المنهجية لتفعيل هذا التواصل والمحافظة عليه؟.

ج: هناك مجموعة من الآليات المطلوب توفيرها لملء الهوة بين الشرق والغرب الإسلاميين في مجال البحث العلمي، وتفعيل التواصل بينهما وأهمها، انفتاح الجامعات على بعضها، وتبادل الأساتذة والطلبة، وتنظيم المناقشات المشتركة، واللجوء إلى الإشراف المزدوج، وإقامة مجلات علمية محكمة، تكون منابر لكل الأقلام المشرقية والمغربية. إن مثل هذه الآليات من شأنها أن تفك العزلة المعرفية بين أطراف الأمة الإسلامية، والاطلاع على الكفاءات والخيرات في الضفتين، ذلك أن غياب هذه الآليات هو الذي أدى إلى إغفال الكنوز المعرفية الموجودة في كل جهة.

س ١٣: تشاكست أساليب المصلحين في اختيار الأسلوب الأمثل لإحداث وثبة تقدم، تؤسّس للنهضة وتتجاوز وهْدَة التخلّف، وكلّ من المسالك السابقة وإن كان غير مبرئ من السلبيات، ففيه من الإيجابيات ما لا يغفل عنه، ولو رجعنا إلى المحصّلة النهائية، لوجدنا أسباب رفض كل مسلك وقبوله تكاد أن تكون متكافئة، في ظل هاتين الملاحظتين، ألا يصبح إهمال أو إعمال الكّل أولى من الترجيح بينها؟

ج: إذا ما فهمت جيدا، الغرض من السؤال، فإنه يقرر تنوع أساليب المدارس الإصلاحية الرامية إلى فك إشكالية النهوض، وتجاوز عقبة وعقدة التخلف. وإن مما لا جدال فيه أن لكل منهج إصلاحي إيجابياته وسلبياته، لا من حيث الهدف الذي يبقى هدفا مشتركا وهو العودة بالأمة إلى ذاتها الحضارية، وتحريرها من كل أنواع التبعية المادية والمعنوية، والدفع بها إلى مستوى مصاف الأمم الراقية، وإنما يمكن أن يكون الاختلاف من حيث الطرق المؤدية إلى هذا الهدف النبيل، ذلك أن استنباط أساليب الإصلاح تحكمه جملة من العوامل، هي عامل الإنسان، والمكان، والزمان، والتي يتطلب كل عامل منها، ملاءمة خاصة، واجتهادا معينا.

لذلك يصح القول بأن في المقاربة، والمقارنة بين مدارس الإصلاح، لا يمكن إغفال أو إهمال الكل، بل الأولى هو تطبيق المنهج الانتقائي الفعال، بين الأساليب المطبقة، وهو ما يظل غاية كل مواطن عربي أو إسلامي شريف، يؤرقه واقع الأمة.

س١٤: الكتابة عن الشخصيات الجزائرية في الشرق العربي وغير العربي قليلة نادرة، ما مرد قلّة العناية بأعلام الجزائر؟ هل يعود لإهمال الجزائريين أم لعدم وجود من يستحق الدراسة؟

ج: إن الجزائر شأنها شأن باقي البلدان العربية والإسلامية لا تخلو من كفاءات، وقدرات في جميع الميادين المعرفية... ربما كانت شخصياتها الفكرية ضحية العامل الاستعماري الذي سبب لها نوعا من الإعاقة اللغوية، وضرب بينها وبين أشقائها في العالم العربي الإسلامي طوقا، حال دون إبراز مواهب أبنائها، فكانت هذه القلة أو الندرة في العناية بالشخصيات الجزائرية.

وعلى الرغم من هذه العوامل المعيقة، فقد أتيح لرموز جزائرية كثيرة أن تتخطى هذا الطوق، وتثبت جدارتها وريادتها على الصعيد المعرفي. وعلى سبيل المثال يمكن أن نسوق في الفكر المعاصر، مفكرين وأدباء، وشعراء، لا يقلون عن أعلام الفكر المعاصر مثل محمد البشير الإبراهيمي، ومالك بن نبي، ومفدي زكرياء، ومحمد العيد آل خليفة، وأبو القاسم سعد الله، وغيرهم كثير.

نعتقد أن المنظمات الإقليمية، والإسلامية كفيلة بالقضاء على هذه الهوة بين الشرق والغرب، من أجل التعريف أكثر بأعلام الجزائر لدى أشقائهم في الأمة العربية الإسلامية.

س١٥: عرفت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أسماء لامعة ملأت الآفاق، ومن الآثار الشاهدة على ذلك، ما جمع من أعمال عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي والفضيل الورثلاني، كيف السبيل إلى إفادة العالم الإسلامي من مساهمات هؤلاء الرجال؟ وما السبيل إلى جعل الجمعية منارة تربوية وثقافية تستعيد دور التنمية الثقافية عموما، وتُيَسِّر للشرق التعرّف على أعلام الجزائر الجدد؟

ج: يمكن القول – بكل تواضع– أن المنهج الثقافي الإصلاحي الذي رسمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يمثل منهجا إصلاحيا يتسم بالواقعية، والفعالية، ويصلح لأن يكون –فعلا–نموذجا لإحداث التغيير في الأمة الإسلامية.

من هنا فإن مسؤولية توزيع تراث الجمعية على المؤسسات الثقافية في العالمين العربي والإسلامي، والحث على تدارسه بكل موضوعية هو من واجب كل غيور على مستقبل الأمة الإسلامية.

س١٦: الملاحظ على ما تكتبون في الجرائد (البصائر والشروق والخبر وغيرها)، حضور حرقة التخلّف، واهتمامكم بغياب العناية بميراث الأمة في لغتها ودينها وثقافتها، وحضارتها، هل مازالت للكلمة المكتوبة بعض الآثار في المجتمع؟

ج: لن نعدم الأمل في إحداث الأثر بالكلمة المكتوبة، ولو أن الأثر ضعيف، لكننا نعتقد أن الصحافة المكتوبة ستجد لها الاهتمام المطلوب، لدى نسبة معينة من القراء، ولنا في ما نتلقاه من صدى لما يكتب لدى جمع عريض من القراء، أسوة حسنة تشجعنا على المضي إلى الأمام في دغدغة مشاعر الأمة، ووخزها أحيانا.

فأنا، كغيري من حملة الثقافة في أمتنا مسكونون بهاجس التغيير، وحرقة التخلف، مما يجعل النضال بالكلمة الداعية الملتزمة، أحسن سلاح يمكن أن يستخدم في عالم سيطر الإعلام فيه بجميع ألوانه. غير أن ما يقلقنا بحق، هو مدى تجاوب ذوي القرار أو أهل الحل والعقد مع ما نكتب، ذلك أن التغيير الفعلي – في واقعنا– محكوم بدوائر عليا مغلقة، لا تعير عناية كبيرة لما يكتب، وتلك هي أسباب التأزم الحاصل في العلاقة التي تحكم المثقف بالسلطة، فطالما لم تتثقف السياسة عندنا، وما لم تحط دوائرها، بكوكبة من المثقفين، الصادقين، الملتزمين بقضايا الأمة والوطن، وما لم يتم طرد الوصوليين والانتفاعيين، والمنافقين الذين يشكلون بطانة الحاكم، فإن الأمل في إيجاد المكانة اللائقة للكلمة المكتوبة سيظل باهتا إن لم نقل معدوما.

س١٧: كلمة ختامية، نتمنى أن نكون قد أثقلنا عليكم، هل من سؤال غفلنا عن وضعه بين يديكم له صلة بوضع أمتنا الراهن؟

ج: لقد سعدت أيما سعادة بمولد مجلتكم الغراء، وبالأسئلة الدقيقة الحاملة لهاجس الأمة، والمترجمة لنبضها، وفي ذلك ما يبشر بخير، بأن مستقبل أمتنا خير من حاضرها، مادام فيها من يؤرقه واقعنا المتردي على أكثر من صعيد، وشعارنا في كل هذا ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي:

فعلم ما استطعت لعل جيلا سيأتي يحدث العجب العجابا

* * *

الإصدارات

قراءة في كتاب ١

عنوان الكتاب: الإسلام في تركيا الحديثة، بديع الزمان النورسي.

تأليف: شكران واحدة.

الترجمة من الإنجيليزية إلى العربية: محمد فاضل.

عدد صفحات الكتاب: ٥٣٠

دار النشر: سوزلر للنشر والتوزيع، سنة ٢٠٠٧- القاهرة.

العنوان الأصلي للكتاب:

Islam in Modern Turkey: An Intellectual Biography of Bediuzzaman Said Nursi

http://www.sunypress.edu/p-4146-islam-in-modern-turkey.aspx

© State University of New York Press

يعتبر كتاب ''الإسلام في تركيا الحديثة، بديع الزمان النورسي'' لمؤلفته شكران واحدة عملا جبارا من خلال رصده لحياة وكفاح مجدد تركي مشهور ألا وهو بديع الزمان سعيد النورسي، ذلك الرجل الذي وهب حياته ونفسه وكل ما يملك لخدمة الايمان والقرآن في عصر تهددت فيه القيم واستحالت الساحة إلى عبث وفوضى وانتشر الظلم في كل مكان.

صدر قبل سنتين كتاب ''الإسلام في تركيا الحديثة، بديع الزمان النورسي'' لمؤلفته شكران واحدة وترجمة محمد فاضل في طبعته الأولى من مطبعة دار سوزلر للنشر والتوزيع بالقاهرة، ويقع الكتاب في ٥٢٠ صفحة، وقد قدم له الدكتور إبراهيم أبو ربيع.

يعد الكتاب دراسة تبحث فيه المؤلفة الحياة الثقافية والاجتماعية، وتحاول من

خلال فصوله الثلاثة أن ترصد سيرة حافلة بالأحداث لرجل قل نظيره في التاريخ الإسلامي.

اقتفت المؤلفة في هذا العمل الرائع حياة المفكر التركي والمجدد الاسلامي سعيد النورسي بتفاصيل دقيقة ومعلومات شاملة وجزئية، مما يدل على أن الكاتبة لها باع طويل في هذا المجال واعتمادها على مصادر عديدة وأمهات الكتب من لغات ثلاث مبرزة بذلك تضلعها في التاريخ وتحليل السير، مما يدل أيضا استيعابها للتاريخ العثماني والاسلامي من جهة أخرى وهي الانجليزية المسلمة، مشيرة إلى حياة النورسي وما ارتبط بها من تاريخ الدولة العثمانية وكذا بداية الجمهورية بحكم معايشة النورسي لهما في آن واحد.

استعرضت المؤلفة في عملها الرائع كرونولوجية حياة النورسي منذ طفولته مرورا بنشأته خطوة خطوة وبتفاصيل في دقائق حياته المباركة، دون أن تنسى الإشارة إلى السياق العام الذي وردت فيه هذه السيرة وهو الزمن العثماني، فلم تنس بذلك أن تتحفنا بلقطات مهمة من ذلك التاريخ العريق ملقية الضوء على بعض مخفياته من تكالب اليهود على تفرقة المسلمين آنذاك والصراع السياسي على السلطة وتآمر الاتحاد والترقي إلى غير ذلك من الأسرار.

قسمت الباحثة كتابها إلى ثلاثة فصول عرضت في الفصل الأول مرحلة سعيد القديم وهي مرحلة النشأة التعليمية والطفولة والشباب في ذلك الجو الديني العثماني ونهله من العلوم الاسلامية المختلفة التي كونت شخصيته، ونبوغه وشدة ذكائه والتهامه الكتب، دون أن تغفل الظروف القاسية في تلك الفترة.

كشفت الباحثة عن خبايا سيرة العالم النورسي من خلال التعمق في تفاصيل حياته معتمدة شتى المصادر والتوفيق بينها، مما جعل تلك التتبعات تتخذ مسارا جديدا في توضيح سيرة حياته المكتظة بالأحداث فلم تغرق في التفاصيل المملة ولم تقتضب في سرد الوقائع، بل وبشكل متناسق ومتوازن صورت تلك السيرة بكل مشاهدها وعكست مجرياتها، حيث أظهرت رجلا عالما معطاء وهب كل وقته لخدمة الدين منذ طفولته شجاعا متتبعا للحق ومدافعا عنه لا يخشى في الله لومة لائم، بل لا يهاب الرصاص في ساحة الوغى ولا ينسى دعوته ولو على صهوة فرس.

في الفصل الثاني توضح المؤلفة بأسوب جميل مولد سعيد جديد الذي ترك الدنيا

مدافعا عن الدين بوسيلة أخرى بعيدة عن السياسة ومحافلها، مخرجا كذلك إلى الوجود رسائلَ نور نوّرت تركيا قبل أن تنتقل إلى العالم لتصنع المستحيل وتؤثر في قراءها أيما تأثير، ذلك لأنها نبعت من قلب صادق وألفت بأيادي مخلصة.

ألقت الباحثة الضوء على الفترتين المتناقضتين اللتين عاشهما النورسي، وهما فترة الدولة العثمانية بتمسكها بالدين وفترة الجمهورية بمروقها عن الدين وعدائها له، وكذا القوى السياسية الفاعلة والاجتماعية والدينية التي كان لها دور كبير في إنتاج فكره الرصين.

ففي الفترة الأولى التي (مرحلة سعيد القديم) يلاحظ تأثره بالفترة العثمانية بطابعها الديني التقليدي وذلك من خلال كتاباته الدينية التي تتجلى في كل من كتابيه صيقل الإسلام وإشارات الإعجاز، وكذا دفاعاته السياسية ومقالاته وانخراطه في السياسة . كانت كل جهوده في هذه المرحلة منصبة على إصلاح التعليم الديني ومحاولة مزجه بالتعليم العصري وفق نظام واحد وإصلاح النظام السياسي بنبذ الظلم والمطالبة باستتباب العدل ومحاربة الفقر والاختلاف وإصلاح المؤسسات والهياكل الاجتماعية والتربوية بالاضافة إلى جهوده العسكرية وذلك من خلال مشاركته في الحرب ضد العدو، إلا أنه بعد خسارة الدولة العثمانية في الحرب وانكسار العالم الاسلامي في شتى معاقله ودخول العدو واستيلائه على مناطق مختلفة من أراضي الدولة تبين له أن المستهدف الحقيقي هو الاسلام وهو الدين بالخصوص مما أوجب التصدي للعدو بطرائق أخرى مغايرة.

أما الفترة الثانية وهي التي مثلت مرحلة الانعطاف من سعيد القديم إلى سعيد الجديد فيتجلّى فيها درجة تأثره بعهد الجمهورية وذلك بانعزاله وتركه السياسة وانخراطه في تأليف رسائل النور التي تنسجم مع المرحلة، وهي المرحلة التي تمت فيها محاربة الدين والنهوض إلى جعل الدولة علمانية، بل الأكثر من ذلك فصلها عن الدين بشكل صارم وقطعي، ولذلك نجد النورسي قد انبرى كلية للدفاع عنه وتأليف الرسائل التي تحمل في طياتها براهين قاطعة على الوحدانية والربوبية والمفاهيم الدينية التي استُهدفت والذود عن حقائق الايمان والقرآن، وقد كانت كل الجهود في هذه المرحلة منصبة على حماية حقائق الايمان والقرآن لا غير.

والغريب في الأمر أنه قوبل بالنفي والسجن والمحاكمات والمضايقات لا لشيء

سوى لأنه دافع عن قيم هذه الأمة التي تغيرت هياكلها بعد الخسارة في الحرب وتولى أمرها من ساقها إلى الهاوية، مستندا بذلك إلى اتباع برامج مدنية عصرية مركزا في ذلك على الولاء للغرب. فتوالت السجون تلو السجون، ونقلت الباحثة صورا عديدة من التضييقات التي عاناها مجاهد هذه الأمة وتتباعت المحاكمات لأسباب واهية هدفها إيقاف انتشار رسائل النور التي أصبحت سارية في كل مكان حتى إنها ولجت أركان الدولة والمؤسسات العمومية، كما رصدت الباحثة دفاعاته القوية والشجاعة التي توضح بما يزيل الشك بالرغم من تعرضه للظلم بقي صامدا ثابتا على موقفه.

وفي الفصل الثالث والأخير تعرض الكاتبة بشكل مفصل وقبل وفاة النورسي انتشار حركة النور الذي أسسها والجهاد المعنوي التي ترتكز عليه المستمر إلى الآن. يعرض هذا الفصل السنوات العشر الأخيرة من حياة النورسي التي أطلق عليها بنفسه مرحلة سعيد الثالث وهي المرحلة التي وقعت فيها العديد من التغيرات على المستوى السياسي حيث انهزم الحزب الجمهوري الذي يكن العداء الشامل لحركة النور والذي انعكس بدوره على الخدمة النورية وتحركات سعيد النورسي وطلبته، فنجاح الحزب الديموقراطي أتاح مجالا للحركة وجعل النورسي يعلن لأول مرة عن عيد رسائل النور بطبعها في المطابع. تصور الكاتبة تلك الفترة تصويرا رائعا مدعما بالمراجع تتبعت من خلاله تنقلات النورسي وطلبته بعدما تم رفع الحصار عن حركته وعن نشاطاته إلى حين وفاته.

لقد كانت الكاتبة في هذا المؤلف بارعة حيث نقلت صورة حية من سيرة حياة علامة مجدد من العالم الإسلامي في مرحلة صعبة تعرضت فيها الأمة لكافة الضغوط الأجنبية، فكان أن كرس حياته من أجل خدمة الايمان والقرآن رغم كل ما تعرض له من سجون.

قراءة في كتاب ٢

عنوان الكتاب: بديع الزمان النورسي وتجديد علم الكلام.

تأليف: د. المصطفى الوضيفي.

دار النشر: المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات، مراكش، المغرب.

صدر مؤخرا للأستاذ الدكتور المصطفى الوضيفي (أستاذ بجامعة القاضي عياض

بمراكش المغرب) كتاب تحت عنوان "بديع الزمان النورسي وتجديد علم الكلام" الذي عرض فيه طرق الإستدلال في علم الكلام لدى سعيد النورسي وعلماء الكلام من خلال عرض مبسط لبعض مواضيعها مقارنة بما ينحو إليه المتكلمون.

يقع الكتاب في ١٥٦ صفحة من الحجم الصغير، ويضم خمسة فصول.

الكتاب عبارة عن دراسة مقارنة في علم الكلام بين كل من بديع الزمان والمتكلمين من خلال مدرسة المعتزلة حيث يبدي فيه المؤلف منهج النورسي في الإستدلال على واجب الوجود سبحانه بالدلائل العقلية والمنطقية مضيفا إليها البرهنة بالآيات الآفاقية، حيث الكون يدل عليه سبحانه وعلى وحدانيته بصفاته عز وجل وبأسمائه الحسنى. كما يستدل على النبوة ببراهين لاحد لها ومن بينها المعجزات، وعلى الحشر بالبرهنة العقلية والنقلية وكذا تجليات أسماء الله الحسنى في الكون.

ولم يتوقف المؤلف عند عرض كل وجهات نظر الفرق، بل تعداه إلى ذكر أسباب الإختلاف ومبينا أن النورسي استطاع أن ينتقل بقارئ رسائل النور من علم الكلام من نظريات مجردة ومعقدة على فهم العامة إلى سلوك وممارسة يومية يستوعبها العقل ويطمئن لها القلب.

قراءة في كتاب ٣

عنوان الكتاب: المعنى القرآني في رسائل النور

المؤلف: أ.د. عشراتي سليمان (جامعة وهران/ الجزائر)

الطبعة: الأولى ٢٠٠٩

الناشر: شركة سوزلر للنشر مدينة نصر القاهرة

صدر عن دار النشر سوزلر بالقاهرة كتاب لمؤلفه الجزائري الأستاذ الدكتور عشراتي سليمان، ويقع الكتاب في ١٨٦ صفحة من الحجم الصغير، يستهله باستفتاح، والكتاب يحتوي على فقرات مختصرة المعاني جميلة المبنى وارفة الأسلوب عصرية الطرح يرصد من خلالها المؤلف مخفيات ومدسوسات وردت في الرسائل يزيدها توضيحا ويلقي الضوء على ظروفها وما تحمل من معاني.

يعتبر كتاب المعنى القرآني لمؤلفه الدكتور عشراتي سليمان أحد أهم الكتب التي كتبت عن كيفية تعامل النورسي مع القرآن الكريم، فقد اختار له مؤلفه فقرات قصيرة

لكنها عميقة في التحليل والتعمق دالا بذلك في بحثه الجاد هذا على العطاء الوافر، والدكتور عشراتي سليمان الأديب يأبى في كتابه هذا إلا أن يبدي عن براعته المعهودة في الأسلوب فقد تناول الكتاب في قالب أخاذ وجاذب.

وكتاب المعنى القرآني في رسائل النور يصور محنة النورسي وجداله مع الكفر وكذا تفوقه على أعداء الدين من خلال إفحامهم بالأدلة القطعية ويعرض تأملاته وحركاته وسكناته وهو ينظر في كتاب الله عز وجل لكي يستخرج منه الدرر والمعاني ويستجلي من خلاله الحقائق.

الكتاب يتناول العديد من القضايا التي ما يلبث القارئ حين يتصفح أولى صفحاته حتى يكشف عنها واضحة ويتسرب إلى كوامن حياة النورسي ويعرض أحاسيسه وآلامه ومجادلته مع أعداء الدين في أسلوب رائع وتصوير باهر، وإذا تتبعنا تسلسل الفقرات لا نجده عشوائيا بل يقتفي خطة محكمة يخلص من خلالها إلى نتائج في النهاية.

كما نجده بارعا حين يصف الرسائل قائلا: "إن الرسائل تجاهد لكي تبلغ مستوى الشفوف الروحي العذب، فهي رياضة تنشد بلوغ درجة الفناء لتحيى في المطلق، لذا نراها تراوح بين مقامات الحلقة والذكر، وبين أحوال العروج والتجنيح..."

هذا الأسلوب الأخاذ الذي يصف به الدكتور عشراتي سليمان الرسائل يستعمل مثله في التعامل مع مؤلفها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي حيث نجده يقول: "يرسو امتياز النورسي الإبداعي على أسس صلبة وأصيلة، لكونه خاض في مجال روحي لم يعد الخوض فيه يشد النفوس كثيرا، فالعصر بهر الناس بمبتكرات التحديث..." المجال الذي باشره بحكم منطق العصر تقليدي تخلفي، أكل عليه الدهر وشرب ... لكن النورسي مضى يحترف التنقيب في المناجم القديمة، والحقول المهجورة، فيما كان الناس من حوله يتسابقون على الاستثمار في أسهم العصرنة والزندقة والحداثة الفكرية... ومضت العقود تترى، وإذا الحصيلة مذهلة، وإذا الورشة النورية تغدو بورصة يتهافت صوبها الجماعات والأفراد، وإذا القطاع الذي كان مهجورا ومشاحا عنه يستعيد الحيوية، وإذا أحلام الأمس، التي كانت وربما لازالت تغوي الدنيويين بما تلوح به إليهم من فتوح تتكشف عن مأساة في أكثر من صعيد، فالإنسان المتعصرن، المتحرر من وطأة الحاجة المادية يستشعر الاغتراب، ويحس

الوحدة الموحشة ويجد النشاز يكتنفه من كل جانب، لأنه يرى نفسه يقع ومن حيث شاء النجاة في مهوى الحاجة..."

قراءة في كتاب ٤

عنوان الكتاب: حقيقة مقاصد رسائل النور

تأليف: أ. د. عمار جيدل(جامعة الجزائر/الجزائر)

دار النشر: دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة: الأولى سنة ٢٠٠٥م، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م بالقاهرة

تعد العناية بمقاصد الدين من الغايات الرئيسة التي اعتنت بها رسائل النور، إذ لا تخلو صفحة منها من توجيه النظر إلى أهمية المقاصد من جهة وبيانها من خلال التدبّر العميق في كتاب الله ، ذلك أنّ الرسائل ليست إلا تفسيرا عصريا للقرآن الكريم.

الكتاب الذي بين أيدينا جعل مؤلفه من الكشف عن مقاصد رسائل النور رأس مراميه، ويقع الكتاب في ٢٧٩ صفحة، عرض مادة الكتاب في مقدمة وخمسة فصول، أشار في المقدمة إلى أن رسائل النور كتاب مقاصد بامتياز حَرِيٌّ بنا أن نعدّها موسوعة مقاصد، بل إنّها تمثّل لب لباب رسائل النور، خصص الفصل الأول لعرض المقاصد المصطلح والأهمية، كاشفا عن المصطلحات (الغاية/الفائدة/الحكمة/النتيجة/...) التي وظّفها الأستاذ في الدلالة على المقاصد، انتقل بعدها إلى ذكر رتب المقاصد وطرق التعبير عنها، فينظر إليها باعتبارات مختلفة فهي باعتبار المضمون كلية وفرعية وباعتبار المقصد في المخاطب ظاهرية أو باطنية أو جامعة بينهما وباعتبار مصدرها فهي مقاصد إلهية أو إنسانية أو حتى كونية، وفي جولة سريعة يحيلنا إلى مختلف مستويات المقاصد المستعملة في رسائل النور وهي المقاصد الإلهية والمقصد الحقيقي ومقصد المقاصد والمقصد العالي. ثم يشير المؤلف في صيغة عرض المقاصد الكلية والمقاصد الجزئية إلى أنها عرضت بشكل ملفت للانتباه كما أن المقاصد الكلية جواب لأسئلة متكررة متفاوتة وكذا تنوعت صيغ التعبير عن المقاصد ثم أشار إلى التكامل بين المقصدين والتناغم المسجّل بينهما خدمة لمقصد المقاصد.

بيّن في الفصل الثاني مصادر مقاصد رسائل النور ومميزاتها، مركّزا على صلتها بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد كانت مقاصد الرسائل مستمدة من دوحة

الوحي (الكتاب/السنة)، المؤيّدة بالواقع الكوني والبشري، وكان الفصل الثالث وقفات مركّزة مع المقاصد الكبرى في رسائل النور "التوحيد "والنبوة والحشر والعدالة مع العبودية التي وردت كالاستطراد المرتبط بالعدالة أساسا بوصفه مظهرا من مظاهرها، وهي بمجموعها كما هو بين من عناوينها جعلت لخدمة الإنسان معرفيا واجتماعيا وحتى إنسانيا، والمقاصد الكبرى مستمرة لا تتأثّر بالزمان، فكان الفصل الرابع تكملة لما سبقه من خلال التوقف عند مقاصد رسائل النور في الزمان، والتي من مزيتها التلوّن بمعطيات الزمان ومقتضيات المكان، أي أنّها متغيرة حسب حاجات الناس وظروفهم وأسئلتهم، وهي بدورها لا تعزب عن المقاصد الكلية المستفادة من القرآن الكريم مما يجعلها مقاصد فرعية، منها على سبيل المثال لا الحصر مقصد الأمن والنظام والحرية والعدالة، وحصول صحوة إسلامية، وإنقاذ الإيمان والاعتصام بالقرآن، والذي يحوي في حد ذاته أهدافا كثيرة، وبعث الصلة بين الإيمان والأخلاق، والأخوة والمحبة والتضحية، والاتحاد بين أهل الإيمان، ودفع الأمراض الاجتماعية بالإيمان.

عرض بعدها في الفصل الموالي أبعاد أهمية بحث المقاصد ومفسدات فاعليتها، ففي حديثه عن الأبعاد يشير المؤلف إلى أن المقاصد تحتل مكانة كبيرة في وأهمية عظيمة في حياة الإنسان يستغرق كل ميادين ومجالات الحياة، وتضم عدة أبعاد ذات أهمية إيمانية ونفسية والتشجيع على العمل والبذل المستمر أي الاجتماعية ودفع الغفلة العامة أي المعرفية وأهمية المقاصد في تنبيه المخاطب أي المنهجية وأهمية المقاصد في التأسيس للبعد الاجتماعي.

وفي حديثه عن مفسدات فاعلية المقصد يشير الكاتب إلى أن المرء لا يستفيد من المقاصد ما لم يتحرر عقلا وقلبا من المكدرات المادية والمعنوية.

والكتاب بحسب رأي المؤلف لبنة أولى من سلسلة المقاصد في رسائل النور، يفرض العناية بها من قبل الباحثين.

المؤتمرات والحلقات الدراسية

عقد أعمال هذه المؤتمرات في العديد من الجامعات، وقد كان برنامجها على النحو الآتي:

ندوة المغرب

الجهة المنظمة: جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية البيضاء. الموضوع: منهج الأستاذ سعيد النورسي والشيخ أحمد بن عجيبة في تفسير القرآن الكريم. التاريخ: أيام ١٨ – ١٩ – ٢٠ ذي الحجة ١٤٢٩ هـ الموافق لـ ١٧–١٩ دجنبر ٢٠٠٨ م. المكان: مدرج كلية الآداب والعلوم الإنسانية. عدد المحاضرين: ١٧. الأقطار المشاركة: المغرب وتركيا.

نظمت مجموعة البحث في اللغة العربية وتكامل العلوم والمعارف بجامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء /المغرب ندوة في موضوع: ''منهج الأستاذ سعيد النورسي والشيخ أحمد بن عجيبة في تفسير القرآن الكريم'' بمدرج إدريس الشرايبي بالجامعة، وذلك أيام ١٨ – ١٩ – ٢٠ ذي الحجة ١٤٢٩ هـ الموافق ل١٧ – ١٨ – ١٩ دجنبر ٢٠٠٨ حضرها كل من الدكتور عبد الله الجهاد والأستاذ إحسان قاسم الصالحي والدكتور فيصل الشرايبي والدكتور عبد الهادي الدحاني والدكتور خليل جيجك والدكتور عمر أجة والدكتور سعيد شبار وآخرون، كما صاحب ذلك معرض للكتاب عرضت فيه رسائل النور والمؤلفات التي كتبت حول الكليات ومؤلفها سعيد النورسي عرف إقبالا جيدا.

ندوة مصر

الجهة المنظمة: بالتعاون بين مركز دراسات رسائل النور بإستانبول ورابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة. الموضوع: رسائل النور وتجديد الخطاب الديني. التاريخ: ١٢صفر ١٤٢٠ هـ الموافق لـ ٧ فبراير ٢٠٠٩ م. المكان: مقر رابطة الأدب الإسلامي، القاهرة. عدد المحاضرين: ١٥. الأقطار المشاركة: مصر، تركيا، المغرب.

تحت رعاية الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر السابق ورئيس اللجنة الدينية بمجلس الشعب وبتعاون مع مركز دراسات رسائل النور بإستانبول ورابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة تم تنظيم مؤتمر دولي تحت عنوان: ''رسائل النور وتجديد الخطاب الديني المعاصر'' بتاريخ ١٢ صفر ١٤٣٠هـ الموافق لـ ٧ فبراير ٢٠٠٩م بمقر رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة، إستمر يومين وشارك فيه ١٧ من المحاضرين من مصر وتركيا، من بينهم الدكتور عبد الحليم عويس والأستاذ إحسان قاسم الصالحي والدكتور عمار جيدل من الجزائر والدكتور مأمون فريز جرار من الأردن والدكتورة خديجة النبراوي وآخرون، كما حضره جمهور غفير من تركيا ومصر تتبعه حتى النهاية.

ندوة الفلبين

ندوة الفلبين يومي ٢٠-٢١ تموز/ يوليو٢٠٠٩م. وموضوعه: مكانة العدالة ودورها من أجل عالم أفضل- الوئام الاجتماعي والسلام-العدالة ودورها في حل مشاكل الأمة (قي ضوء رسائل النور).

يُعَدُّ هذا المؤتمر استمرارا لجهد علمي سابق على رأسه الندوة الأولى سنة ٢٠٠٥ عن رسائل النور وتلتها ندوات عديدة، عُقِد المؤتمر بتاريخ ٢٠-٢١ تموز ٢٠٠٩ في أهم مراكز منطقة ''ميندناو'' جنوب الفلبين، مركز ''جاكايان''، ونظم بعناية معهد رسائل النور تحت عنوان: ''مكانة العدالة ودورها من أجل عالم أفضل''. خصوصا وأن المنطقة تعيش مشاكل في هذا الصدد وتعرف توترا شديدا، لذلك فقد تمت متابعة الندوة بتركيز شديد وحظيت فقراتها باهتمام وانتباه كبيرين جدا.

حضر الندوة أساتذة وأكاديميون من تركيا والولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وأستراليا وجنوب إفريقيا وكذا من الجارتين ماليزيا وأندونيسيا، وحضر فعالياته ما لا يقل عن ٤٠٠ مشارك وفدوا على المؤتمر من مناطق مختلفة.

بحث الأكاديميون وجمهور الحضور عن حل لمشاكل هذه المنطقة، تلك المشاكل التي تهدد أمنهم وتقض مضجعهم، ومن ثقتهم بالمؤتمر والقائمين عليه طلبوا علاجا لمشاكلهم وأمراضهم المعنوية والاجتماعية من رسائل النور التي قَدِمَتْ لهم من بلاد تبعد عنهم بآلاف الكيلومترات.

وقد جاد المتدخلون بمقترحات مستلة من رسائل النور، استحسنها وثمّنها المتطوعون للسلام ومسؤول الأمم المتحدة البروفيسور الدكتور ''ميشيل لياجان'' .

وشارك عدد كبير من المهتدين من أصل فلبيني ببحوث، عبّروا فيها عن التعايش بين مكوّنات المجتمع الفليبني المتعدد الثقافات والديانات، ولكي يعيش الناس في وئام وسلام وطمأنينة فقد وقفوا على ضرورة نشر رسائل النور.

وتبيّن قائمة المشاركين حرص دول آسيا وعلى الخصوص شرقها على التعرّف على رسائل النور، فقد شارك من الفلبين: الدكتورة نورا شريف رئيسة التعليم العالي، من منطقة ''ميندانو''، والبروفيسور الدكتور أحمد ألونتو العميد السابق للجامعة الحكومية/ ميندانو، والدكتور أسناويل رونسينغ، عضو هيئة التدريس في الجامعة الحكومية/بميندانو، والدكتور طالب بنيتو، عضو هيئة التدريس في الجامعة الحكومية/ بميندانو، والدكتور اسناراه عابد بابانو، عضو هيئة التدريس في الجامعة الحكومية/ بميندانو، والبروفيسور الدكتور ذو الكفل وادي، عضو هيئة التدريس في الجامعة الحكومية في مانيلا. الدكتور علي باندا، عضو هيئة التدريس في الجامعة الحكومية/ بميندانو، والبروفيسور الدكتور جوفاني كاباليرو، عضو هيئة التدريس في الجامعة الحكومية/ بميندانو. وعبد الحليم بانا، معهد رسائل النور بالفلبين.

كما شارك من أندونيسيا: البروفيسور الدكتور فيصل أندي بكتي، عضو هيئة التدريس في جامعة هداية الله/ جاكارتا.، والبروفيسور الدكتور فوزان صالح قديري، عضو هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية. ومن أمريكا البروفيسور الدكتور يونس شانجال، عضو هيئة التدريس في جامعة نيفادا، والبروفيسور الدكتور ميشيل لياجان، عضو هيئة التدريس في جامعة ميامي، واستضاف المؤتمر من ماليزيا البروفيسور الدكتور عبد العزيز برغوث، عضو هيئة التدريس في الجامعة العالمية الإسلامية، وخاتمة القائمة كانت من تركيا من خلال البروفيسور الدكتور توماس ميشيل، والبروفيسور الدكتور فارس قايا مركز إستانبول للثقافة والعلوم.

ندوات أندونيسيا

ندوات أندونيسيا في جاكرتا يومي ٢٣-٢٤ تموز/ يوليو٢٠٠٩:

انعقدت بالعاصمة الاندونيسية جاكرتا ندوة عنوان: ''الوئام الاجتماعي والسلام:

دور سعيد النورسي في إحياء المسلمين والتعليم والسلام العالمي'' شارك فيها علماء من اندونيسيا وانضم إليهم مجموعة من الأساتذة من مختلف الدول منها تركيا وجنوب إفريقيا وتايلاند.

وعقدت بهذا الصدد ندوتان عن رسائل النور في جامعتين مختلفتين بالعاصمة الإندونيسية جاكرتا لمدة يومين، يوم واحد في كل جامعة. وقد تم عقد الأولى يوم ٢٣ تموز/ يوليو ٢٠٠٩ في أكبر المؤسسات التعليمية (تضم ١٠٧ جامعة و٤٠٠٠٠ مدرسة ثانوية باندونيسيا) في العالم جامعة محمدية التابعة لمجموعة محمدية للتعليم، أما في اليوم الثاني فقد عقدت الندوة في أكبر جامعة باندونيسيا وهي جامعة ''شريف هداية الله بجاكرتا''، افتتح الندوة عميد الكلية البروفيسور الدكتور ''محمد ماسيي توه'' وذكر في كلمته أن الجامعة قد تأخرت في فهم خطاب سعيد النورسي وفكره، لكنها ستعمل بعد اليوم على نحو سريع للتعريف به على مستوى أعضاء هيئة التدريس وفئة الطلاب، فضلا عن السعي إلى تطبيق هذه المبادئ في شعاب الحياة العلمية والاجتماعية، انتقل بعدها إلى البحوث في جلسات استغرقت اليوم كلّه، كان ختامه مناقشات ودارت في فلك رسائل النور، وقد شارك في الندوتين ثلة من ألمع الأساتذة، فشارك من تركيا البروفيسور الدكتور فارس قايا من تركيا. والبروفيسور الدكتور توماس ميشيل، وشارك من اندونيسيا البروفيسور الدكتور علي مفردي من اندونيسيا، والبروفيسور الدكتور اسب عبد المتين من اندونيسيا، والبروفيسور الدكتور اندي فيصل بكتي من اندونيسيا، والبروفيسور الدكتور محمد سيروزي، والبروفيسور الدكتور يوسف اسرور، والدكتور زبرول خان ، وحاضر من ماليزيا البروفيسور الدكتور فوزان صالح، والدكتور زائدين ماث، فضلا عن البروفيسور الدكتور يونس شانكال من الولايات المتحدة الأمريكية، والبروفيسور الدكتور حسن جانا من الفلبين، وعبد الرحمن إبراهيم من الفيتنام، والمفتي قمر الدين يوسف من كمبوديا.

ندوة جزيرة بانغا

(جزيرة بانغا تضم مليون نسمة، دمرتها ظاهرة تسونامي التي ضربت جزيرة سومطرة قبالتها في السنوات الماضية):

وكانت خاتمة ندوات رسائل النور يوم ٢٦ تموز/يوليو، بجزيرة بانغا التي يعد حضور رسائل النور فيها فتحا جديدا بالنسبة للأتراك، إذ لم يسبق أن زارها تركي، أقيمت

فيها ندوة بعنوان: ''التعليم وتربية الشباب من منظور بديع الزمان للمساهمة الاجتماعية'' بالمعهد الإسلامي الذي يرعاه حاكم الولاية.

شارك في الندوة حوالي ٨٠٠ شخص، بدفع رسوم قدّرت بـ ٢٠ دولار أمريكي،في دولة يتقاضى أستاذها الجامعي ٣٠٠ دولار شهريا، وتخيّل مجتمعا بهذا المستوى المعيشي يدفع الرسوم المشار إليها ليشارك في أعمال الندوة،إنّها الحاجة إلى معرفة ما جاءت به رسائل النور،فلو الحاجة الملحّة إلى معرفتها ما كان أن يفكّروا في دفع تلك الرسوم فضلا عن دفعها بالفعل.

شارك في ندوة جزيرة بنغا كل من البروفيسور الدكتور توماس ميشيل والبروفيسور الدكتور فارس قايا والبروفيسور يونس شانكال والدكتور زبرول خان والبروفيسور الدكتور فوزان صالح والدكتور اندي فيصل بكتي بمداخلات قيمة.

تقييم عام لندوات اندونيسيا:

قدم المحاضرون بحوثهم في ندوات اندونيسيا خصوصا القادمون من الفيتنام والفلبين وميندناو وكامبوديا والتايلاند، وكانت تنصب على الحد من التوتر والتأسيس لتهدئة المنطقة المضطربة بغية تحقيق السلام والطمأنينة فيها متسائلين عن كيفية الاستفادة من رسائل النور لمواجهة هذه المشاكل.

موازاة مع هذه الندوة أيضا تم عرض رسائل النور المترجمة إلى العربية والإنجليزية وإلى اللهجات المحلية تيسيرا للاستفادة منها، ولوحظ بهذه المناسبة شغف شديد ليس له مثيل لدى القراء عند رؤية تلك المؤلفات، خصوصا الكتب التي عرضت موازاة مع ندوات إندونيسيا والتي أصدرتها دار النشر: ''ساني بريس'' ومنها كتاب ''الإسلام في تركيا الحديثة، بديع الزمان سعيد النورسي'' لمؤلفته ''شكران واحدة'' الذي ترجم إلى اللغة الإندونيسية، وكذا المثنوي العربي النوري الذي ترجم إلى اللغة الإندونيسية وطبع بدولتها، كل هذه الكتب وغيرها لقيت اهتماما خاصا من القراء.

بلغ عدد الندوات التي نظمت إلى حد الآن في إندونيسيا ١٦ ندوة انعقدت في كل من جزيرة جاكرتا وماكسر وصورابايا وكوجكا ومدان ولامبونج وبالمبانج وباكنبارو وبنغا.

كانت سلسلة الندوات التي انعقدت باندونيسيا في القمة من حيث عطاؤها وتجاوب الحضور معها، وخصوصا البحوث المتنوعة التي قدمت فيها بسبب اشتراك أساتذة وباحثين كبار من دول مختلفة وباعتبار اللغة التي استعملت في المؤتمر، بعضهم تكلم باللغة المالاوية والبعض الآخر قدم بحثه بالإنجليزية. ويمكن أن نخلص من هذه الندوات بنتيجة ختامية، عبّرت عنها الندوة التي انعقدت في جامعة جاكرتا، نوردها كما وصلتنا:

- استثمار رسائل النور في معالجة أكبر مشكل تعاني منه الإنسانية وخاصة العالم الإسلامي وهو الجهل والفقر والاختلاف.
- مباحثات عن حلول المشاكل التي نعاني منها وغيرنا من مكوّنات الأسرة الإنسانية، مع التركيز على الحوار والتعاون لحلها والتفكير في تحقيق إمكانيات لذلك.
- تشجيع قراءة كليات رسائل النور.
- عقد اتفاقيات تعاون بين الدول التي تتكلم باللغة المالوية لفهم رسائل النور أكثر.
- توسيع العلاقات مع وسائط الإعلام لنشر كل الفعاليات التي تعقد حول رسائل النور.
- الأخذ بعين الاعتبار توصيات بديع الزمان النورسي التي تتماشى مع مفهوم الحضارة الإسلامية وأبعادها الإنسانية.
- الاستفادة من تفسير مفهوم ''الجهاد المعنوي'' بتيسير فهمه واستيعابه وتمثّله مضامينه وأبعاده في شعاب الحياة الفردية والاجتماعية، وفق ما أكّدت عليه رسائل النور.

* * *

معرض أيام قسطموني

بمقر مركز الثقافة والعلوم لإستانبول تم تنظيم معرض تحت عنوان: ''أيام قسطموني'' تم فيه عرض كل ما يعود لتلك المرحلة من وثائق ومخطوطات وخواطر، وكذا كل ما له علاقة بالنور وكيف كانت تستنسخ الرسائل وحياة أبطال النور الذين وهبوا حياتهم لهذه الخدمة القرآنية الجليلة والنساء النوريات اللواتي وهبن أوقاتهن لخدمة الايمان، وأولئك الشهداء الذين سمموا في السجن ليس لشيئ إلا أنهم صمدوا

في وجه الالحاد لأجل الدفاع عن الايمان في ذلك الوقت العصيب ووثائق ولحات أخرى تم عرضها تعبر عن تلك المرحلة من رسائل وغيرها، وتم شرح كل ذلك من طرف طلبة الأستاذ سعيد النورسي الذين عايشوه وتتلمذوا على يديه منهم: محمد فرنجي ومصطفى صونغور وسعيد أوزدمير وعبد الله يكن وعبد القادر بادللي وآخرون. هذا ويعتبر معرض أيام قسطموني المعرض الثاني بعد معرض السنة الماضية الذي كان حول أيام بارلا.

* * *

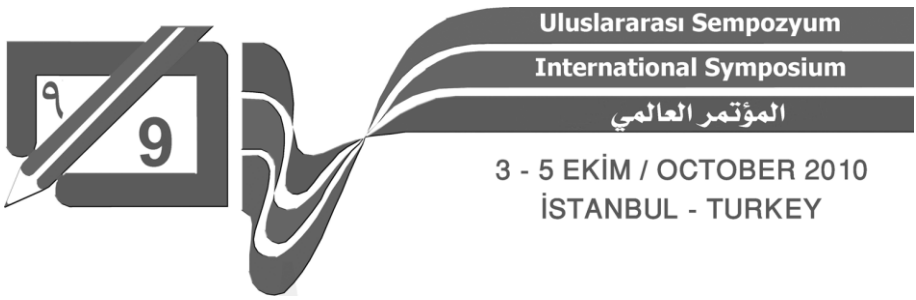

إعلان عن انعقاد المؤتمر العالمي التاسع

العلم والايمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية، مقاربة رسائل النور

محتوى المؤتمر وأهدافه

يتكلم المفكرون والعلماء بصفة دائمة عن حل المشاكل المعاصرة الناجمة عن الفساد الأخلاقي، وفي الوقت الذي تسجل فيه الإنسانية تطورا سريعا في العلم والتكنولوجيا تتجاهل المبادئ الأساسية التي يستند إليها الوجود، وتهمل القيم الإنسانية التي يجب أن يركز عليها باهتمام بالغ. حتى غدا الجري وراء الربح والاستهلاك المفرط غاية الحياة. وتم نسيان البعد المعنوي والروحي لحياة الإنسان. وفي الوقت الذي اتسعت مساحات البيوت ضاقت فيها العلاقات العائلية وانحسرت وتفرقت بشكل مهول. وبينما تنظم السياحات إلى أبعد المسافات وفي أعماق الفضاء، لا يعثر على طريق أو سبيل للولوج إلى العالم الداخلي للإنسان. وقد تطورت وسائل المواصلات غير أنه انقطع التواصل مع الأقارب والجيران المقربين، وكلما تزايدت قنوات الأخبار والمعلومات تناقصت الدقة والحقيقة والموثوقية والأمان فيها، بل أصبحت ستارا للحقيقة وحجابا دونها. وعلى الرغم من هول المعلومات الحاصلة وعظم المعارف المكتسبة وسرعة التقدم التكنولوجي، فقد ازدادت المشاكل النفسية واختلال الطبقات الاجتماعية وتعاقب الأزمات العالمية وتفاقم المشاكل البيئية. فبينما العلوم كان عليها أن تساعد الإنسان على استيعاب غاية خلقه وعلى الوصول الأكمل إلى معرفة الطبيعة وفهمها منيت بالاخفاق. فهل ارتُكب خطأ في فهم العلوم وإدراك أهدافها أو استعمالاتها؟ وهل استعملت المعلومات وكافة الإمكانيات لخدمة المنافع الشخصية والفردية والحاجات المادية فحسب؟ وهل يمكن أن يكون نضوب المعنويات ونقصان الإيمان الحافز إلى الخير والذي يحمي الإنسان من التجاوزات والتطرف، سببا ودافعا ومصدرا لكل هذه المشاكل؟ هل المسؤول الذي يدفع بالإنسانية إلى العزلة ويسبب لها الشقاء واللامبالاة ويدفعها إلى

المشاكسة ويحرضها على العنف هو فقدان الأبعاد المعنوية في حياة الإنسان اليومية؟ فكان المفروض أن يتم البحث في هذه المسائل بشكل مكثف وأن يعيش الإنسان بكرامة تليق بإنسانيته. ومن المعلوم أن عدداً من المؤسسات الإجتماعية والمنظمات قد عملت على القضاء على هذه المشاكل، لكن ولأن الأبعاد المعنوية أُهملت في التدابير المتخذة للحد من الأزمة، ظلت غير كافية ولا وافية رغم الحصول على بعض الفوائد، بل سقطت في مشاكل أخرى يستبعد ايجاد حل لها. هكذا وفي الوقت الذي يزداد فيه العالم صغرا وتتحول فيه الدنيا إلى قرية صغيرة تكبر فيه مشاكل العالم وتوشك أن تهدد مستقبل البشرية المادي والمعنوي.

تُعد ''كليات رسائل النور'' لبديع الزمان سعيد النورسي التي هي تفسير للقرآن الكريم لهذا العصر مصدرا مهما يحتاج إلى الدراسة لأجل حل هذه المشاكل. تستند مقاربتها ونهجها على الحصول على معلومات دقيقة، وتوجيه هذه المعلومات للمقصد الصحيح، وكذا جعلها وسيلة للإيمان التحقيقي، فبناء واستنادا على هذه الأسس وهذا المبدأ ينبني مفهوم الأخلاق.

ولأجل هذا الهدف ينعقد هذا المؤتمر التاسع والذي يتوافق مع الذكرى الخمسين لوفاة سعيد النورسي والذي ستتم فيه مناقشة وبحث ما تقدمه رسائل النور من أجل سعادة الإنسان الأبدية وذلك من قبل مفكرين متخصصين وعلماء أفاضل قدموا من العالم الإسلامي وخارجه من ديانات وثقافات ودول متعددة ومختلفة.

العناوين الفرعية والمحاور المطلوبة في المؤتمر من منظور رسائل النور

- الأوضاع الحالية للعالم المعاصر.
- اقتراحات وحلول الأزمات المختلفة المشاهدة في المجتمعات المعاصرة.
- ماهية العلم واستعماله لأجل سعادة الإنسانية.
- العلاقة بين العلم والإيمان والمساهمة في إعطاء معنى للوجود.
- أهمية تقوية الإيمان لفهم العلوم الصرفة.
- أبعاد وخصائص مفهوم الأخلاق استنادا للعلم والإيمان.
- مقترحات وحلول لمشاكل العنصرية والظلم الإجتماعي والإختلال الطبقي.
- العوامل المغذية لثقافة العنف وحلولها.
- حلول المشاكل الناشئة من الإختلاف في المجتمعات متعددة الثقافات.
- دور الإيمان في تأهيل الشعور بالمسؤولية وتطوير محاسبة النفس.
- مفهوم الأخلاق الكلي ومستقبل الإنسانية.
- العجز والفقر والشفقة التي هي من أسس مسلك الخدمة عند النورسي في حل المشاكل.
- أساس منهج الشفقة والتعاون عند النورسي.

- مساهمة المفاهيم الاقتصادية في حل المشاكل.
- مشاكل الحداثة مصدرها وحلولها.
- اقتراحات وحلول للمشاكل الناجمة عن التعلق بالدنيا.
- المشاكل السياسية والحلول الإدارية الخاصة بها.
- حلول الحد من عادات الاستهلاك.
- دور الإيمان ومساهمته في ايقاظ الشعور بالشفقة والرحمة.
- حلول المشاكل الناجمة عن التعددية بين أهل الأديان.

ملاحظات مهمة

١. سينعقد المؤتمر أيام ٣-٥ أكتوبر ٢٠١٠ بإسطانبول.
٢. ترسل البحوث إلى سكرتارية المؤتمر وفق ما يلي:

أ- أن لا يتجاوز مختصر البحث ٢٥٠ كلمة ويرسل إلى سكرتارية المؤتمر قبل تاريخ ٢٨ شباط / فبراير ٢٠١٠

ب- أن لا يتجاوز البحث ١٥ صفحة، وأن يصل البحث كاملا في آخر موعد ٣٠ حزيران / يونيو ٢٠١٠ حتى يُقوّم من طرف لجنة التحكيم.

ت- آخر موعد للإعلان عن الأبحاث المقبولة هو ٣١ تموز / يوليو ٢٠١٠

٣. تكتب الأبحاث في ضوء رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي وفي إطار العناوين أعلاه، ولا يقبل قطعا أي بحث خارج هذا الصدد.
٤. البحوث الأكاديمية التي أنجِزت عن كليات رسائل النور والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي توجد بالمواقع الآتية:

www.nuronline.com — www.nursistudies.com — www.barlaplatformu.org

٥. للمزيد من المعلومات والمصادر يرجى الاتصال بسكرتارية المؤتمر.
٦. تقبل الأبحاث باللغات التركية والإنجليزية والعربية وفي أثناء العرض ستكون الترجمات مباشرة.

معلومات للإتصال

ISTANBUL ILIM VE KULTUR VAKFI
مؤسسة إستانبول للثقافة والعلوم
RUSTEMPASA MEDRESESI, SURURI MAHALLESI,
MEDRESE SOKAK, NO: 2
34120 EMINONU, ISTANBUL / TÜRKİYE
PHONE: + 90 212 527 8181, FAX: + 90 212 527 8080
symp2010@iikv.org

معلومات عن النشر في المجلة

١. تنشر المجلة البحوث الأصيلة (تنشر أول مرة) المنجزة في الدراسات الحضارية والفكرية بمعناه العام.
٢. تسعى المجلة إلى نشر البحوث والدراسات المتوافقة مع العمل العلمي الجدي المتجلي في وضوح المقاصد والأهداف، ودقة المنهجية.
٣. لا ترى المجلة مانعا من نشر الدراسات التأصيلية في ميادين الدراسات الفكرية والحضارية، وخاصة إن حازت عناصر الجدة والدقة.
٤. ترحب المجلة بالبحوث المقارنة سواء تعلّقت بالدراسات المقارنة في ذات الفضاء الفكري أو من فضائين مختلفين أو من فضاءات متعددة.
٥. تعمل المجلة على تشجيع الدراسات والبحوث النقدية الواضحة المقاصد الملتزمة بآداب الحوار والنقاش، المتقيّدة بالمنهجية العلمية.
٦. تشجع المجلة على التعريف بأعلام الفكر والدراسات الحضارية، لهذا تتبنى خدمة هذا الهدف بنشر الدراسات المعرّفة برجالات الفكر ولاسيما الشخصيات العلمية التي لم تحظ بالتعريف بالقدر الكافي.
٧. تخدم المجلة الباحثين الناشئين وتشجّع دراساتهم المنجزة، وتقدّم ملخصات مركّزة عن أعمالهم المقدّمة لنيل الدرجات العلمية الأكاديمية.
٨. تنشر المجلة بعنوان المقالات المحكّمة التغطية الجيّدة لأعمال المؤتمرات والورشات أو الأيام الدراسية العلمية الحضارية والفكرية.
٩. تنشر المجلة بعنوان الدراسات الأكاديمية، البحوث المنجزة في التعريف بالكتب النوعية في ميدان الدراسات الحضارية والفكرية، يقدّم فيها الباحث أهم عناصر الكتاب وأهم النتائج التي خلص إليها، مع بيان المآخذ التي سجّلها على الكتاب.
١٠. تعرض الدراسة أو البحث المقدم للنشر على محكّمين من أهل الاختصاص، تختارهم إدارة المجلة، ويُلْزَم صاحب العمل المقدّم بإعادة النظر في بحثه أو دراسته في ضوء الملاحظات المقدّمة له.
١١. يمنح صاحب البحث نسخا (عدة مستلات) من بحثه المنشور، فضلا عن عدد من المجلة التي نشر بها بحثه.
١٢. تحتفظ المجلة بحق نشر العمل المنشور في كتاب أو بشكل مستقل، بلغته الأصلية أو مترجما.
١٣. البحوث والدراسات التي وصلت المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
١٤. ترسل البحوث والدراسات على العنوان الإلكتروني للمجلة editor@nurmajalla.com بشرط أن لا يزيد حجمها عن ٤٢٠٠٠ حرف (مع الهوامش والفواصل).

الإشتراك السنوي (عددان)

الإشتراك في تركيا: ٢٠ ليرة تركية
الإشتراك في الأقطار الأخرى للأشخاص: ١٥ دولار أمريكي
الإشتراك في الأقطار الأخرى للمؤسسات: ٣٠ دولار أمريكي

العنوان للإشتراك

info@nurmajalla.com
Cucecesmesi Sk. 6, VEFA, 34134
Fatih, ISTANBUL - TURKEY
Tel : +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
www.nurmajalla.com

عبد الكريم بابيارا kerimbaybara@gmail.com
شركة سوزلر للنشر
٣٠ شارع جعفر الصادق - الحي السابع
مدينة نصر– القاهرة - جمهورية مصر العربية
تلفون + فاكس: ٩٣٨ ٦٠٢ ٢٢ (٢٠٢+)

* * *

Contents

Amar Djidel: Introduction to the First Issue 4

Miscellaneous Studies

Colin Turner: A Revolution of Belief 7
M. Salim Sa'dullah: Concepts for the Contemporary Islamic Awakening: Critique and Orientation 19
Taha 'Abdurrahman: Nursi on the Disjunction between 'Human' Philosophy and the Wisdom of the Qur'an 29

Dossier

'Abd al-Karim 'Akiwi: Nursi's Method of Enumerating the Divine Names 49
'Imaduddin Khalil: The World of the Unseen as Regarded by Nursi 69
M. Khalil Cicek: Nursi's Method of Relating to Allah's Most Beautiful Names 93
M. Hamed Kenan Migha: Said Nursi's Ideas Concerning the Aims and Purposes of Life as Reflected in the Risale-i Nur 123
Bukari Kindu: Nursi's Risale-i Nur as an Example of the Positivistic Method of Studying the Questions of Belief 137

Interviews, Publications and Conferences

An Interview with Professor Abderezak Guessoum 164
Publications 174
Conferences and Study Circles 182
Announcement of the Ninth International Symposium in Istanbul 189
Information about publication of articles or papers in the Journal 192